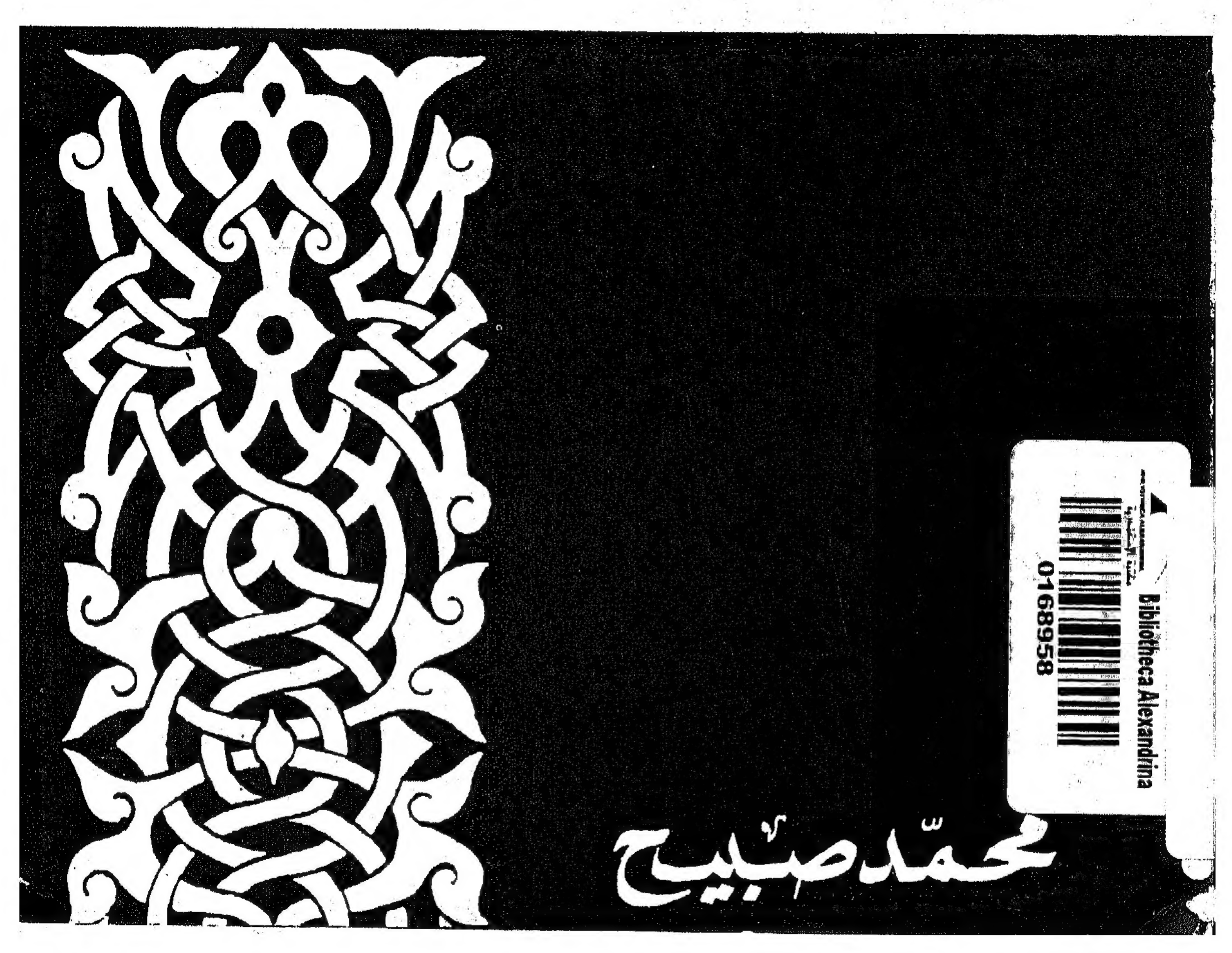
قواعد الإسلام

خمس... وخمس

دراسة جديدة

في أعماق الدعوة الإسلامية



محمد صبيح

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــود ديــــاب

جراح بالمستشفى الملكي لمصر

قواعد الإسلام خمس ... وخمس

دراسة جديدة فى اعماق الدعوة الإسلامية

بقلم
محمد صبيح



الطبعة الأولى

الثمن ٣٠ قرشاً

شركة مطابع الطنانى
٩ شارع جودة المقاول بعابدين

اد.

جر

إهداء ... ودعاء

إلى هؤلاء الذين آزروا
وهؤلاء الذين عاندوا
أهدى آية وحديثا :

قال تعالى :
« قل لا أسألكم عليه أجراً »
« إلا المـــودة فى القربى »
الشورى

وعلمهم رسول الله على بن أبى طالب دعاء ، هو :
« يا على قل :
« اللهم اجعل لى عنـدك عهدا » ،
« واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الضياء

كان خالد بن الوليد يقود جيوش المسلمين فى حرب الردة . وذات صباح أسر إلى بعض أعوانه بأمر ، ثم غاب بضعة أيام ، لم يعلم أحد اين ذهب ، بل لم يعلم أحد — إلا هذه القلة القليلة،أنه بعيد عن مقر قيادته ... فلما عاد ، عرف أنه ذهب سرا إلى مكة ، فى لهفة المسافر المتعجل ، وأدى فريضة الحج ، ثم عاد ليستأنف جهاده فى سبيل الله .

لقد أحس هذا القائد العظيم ، أنه فى حاجة إلى شحنة روحية ، قدر مكانها وزمانها ، فهرع بغير إذن من الخليفة ، يغترف ما شاء من فيض الرحمة الربانية..

وعندما اصطف المسلمون ، وعبأوا جيوشهم للقاء الرومان فى اليرموك ، وكانوا عددا قليلا بالنسبة لجيوش هرقل الجرارة ، وقف خالد فى المسلمين خطيبا وقال لهم ، وكأنما القدر يتحدث على لسانه : « هذا يوم من أيام الله ... »

يوم لله ، يتصل فيه كل محارب بخالقه ، ويستمد منه العون والمدد ...

يوم لله ، لا يقيس المرء فيه قوته بمقاييس البشر ، ولكن بالسر الأعلى ، الذى لا مقياس لقوته ، ولا حد لطاقته .

يوم لله ، تصبح الحياة فيه قمة الجهاد ، والموت فيه قمة الاستشهاد .

وهكذا لم يجد خالد بن الوليد ، فى بسالته ، وهو فارس العرب الجسور ، ما يغنى عن الذهاب متخفيا مع الحجيج يجثو أمام ذات الله وعظمته، يدعو ويتضرع مستمدا منه الإلهام والسداد .. وكذلك صنع فى اليرموك ..

وكذلك صنع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو فى يتحنف خارج مكة قبل البعثة ، ثم وهو يدعو كفار قريش إلى كلمة الحق فلا يسمعون له ، ويؤذونه، ثم وهو عائد من ثقيف وقد صده أهلها وردوه ردا عنيفا ، ثم وهو يختفى فى الغار مع صاحبه أثناء الهجرة ، ثم وهو يدعو ربه فى بدر قبيل التقاء المسلمين بالمشركين.. ثم فى مئات المواقف التى تجلت له فيها حاجته إلى رحمة ربه ورضوانه

وكذلك صنع أبو بكر والعرب ترتد من حوله ، ويهمون بمهاجمة المدينة ، ويخيل لأقرب الناس إليه ، أن دنيا الاسلام توشك أن تدول إلا من هذه القرية الصغيرة ، فيأبى عليه إيمانه بالله وبالرسول، إلا أن ينفذ جيش أسامة بن زيد إلى حدود الشام ليناوش قوات الروم ، ويثأر من مقتل أبيه وأصحابه ، ثم يسير هو مع عدد قليل من المسلمين ، ليباغت القبائل التى كانت تهم بالاغارة على المدينة وينتصر عليهم ، ويريهم أن الله حق ، وهو الشيخ الذى تجاوز الستين من عمره، ولم يعرف عنه أنه من صناديد الحروب . . ولكنها قوة اليقين فى الله ، وفيما أنزل على رسوله ، جعلته فى عامين ، يقضى على المرتدين ، ويبعث بالمسلمين إلى بلاد الفرس وبلاد الرومان فى نفس الوقت ...

لو أن أحدا من هؤلاء الرجال العظام، قاس جنوده ، وقوته العسكرية ، بجنود أعدائه وقواتهم ، لما حرك قدما واحدة نحوهم . . ولكنهم عندما وضعوا فى الميزان إيمانهم بالله ، رجحت كفتهم ودفعتهم إلى أن يمدوا دعوتهم ، فى أقل من قرن من الزمان ، من مياه المحيط الأطلنطى،إلى بحار الهند وداخل أسوار الصين .

هذا هو ما صنعه الاسلام ، فى أبناء الصحراء العربية ، عندما اضاءت أرواحهم هذه الشعلة المقدسة،فاضاءت لهم الطريق، وجعلتهم يرون بنور البصيرة ما لا تراه العيون ، وما ينهزم أمامه المنطق العادى للناس ...

ولقد اعطانا الله سبحانه وتعالى درسا عظيما فى سورة الكهف ، وبين لنا ، أن هناك طاقة ، وراء علمنا ، وعقلنا ، ومنطقنا ، هى أرجح وأهدى سبيلا من كل ما ندركه بحواسنا العادية ...

إن هذا الحوار الرائع ، بين الفتى «موسى» الذى تعلم فى مصر، واغترف من

حضارتها ، والرجل الصالح «الخضر» الذى بعث إليه موسى لكى يتلقى منه ، مالم تحوه الكتب ولا تعرفه مدارس الكهان والفلاسفة والطب والكيمياء والرياضة والهندسة وغيرها .

وصف القرآن الكريم الخضر بانه كان « .. عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما » . وهذا النوع من المعرفة التى رغب فيها موسى ، ولم يجدها فى مصر ، وصفه بأنه «الرشد» وكان شرط هذا التعلم أن يتذرع التلميذ بنوع فريد من الخلق ، وهو الصبر ، وذلك لأنه سيرى أشياء وتلقاه أحداث ، لا يصلح العقل وحده فى استيعابها ، وتفسير اسرارها .. والخضر يعلم أن ذخيرة صاحبه من الصبر لن تكفيه ، لأن العقل القلق المتطلع ، يقيس بالمنطق العادى ، أما الرشد فيحتاج مع العقل إلى القلب ، وإلى هذه الشرارة المقدسة التى تضيء نفوسنا ، فتمد بصيرتنا إلى آفاق لا يصل اليها ادراكنا العادى . يقول الخضر :

(إنكَ لن تَستطيعَ معِىَ صبرا ، وكيفَ تَصبرُ على ما لم تُحِطْ بهِ خُبْرا) ؟ !

وعلى الرغم مماقدره الشيخ لتلميذه ، فقد مضت التجربة (فانْطَلقا حتى إذا ركبا فى السفينةِ خرَقَها . قال : أخرَقتها لِتُغرِقَ أهلَها . لقدجئتَ شيئاً إمرا)

كان كل ما اهتدى اليه موسى من منطقه ، ان خرق السفينة ، سوف يغرقها ، ويغرق أهلها !! فصاح منكرا . مارأى ، ولعل الخضر تبسم ضاحكا ، فان صاحبه لم يثبت للتجربة فى أول خطواتها : قال (ألمْ أقُل إنكَ لن تَستطيعَ معىَ صبرا)

ومضت التجربة ، فى حادثين آخرين ، وموسى فى كل مرة ، يضيق بما يرى ، ويصيح منكرا .. وكان الدرس قد وصل إلى غايته ، والرحلة انتهت حيث قدر الله لها أن تنتهى ، فكشف الخضر عن سره . وفى موضوع السفينة مثلا كان تأويل الخضر لها : « أمَّا السفينةُ فكانتْ لمساكينَ يعملونَ فى البحرِ ، فأردتُ أن أعيبَها وكان وراءهُم مَلكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْبا » وإذن فلم يكن خرق السفينة ، لإغراق ركابها كما بدا فى أول الأمر ، ولكن حتى تتعطل عن العمل بعض الوقت ، فلا تتعرض لمصادرة الملك المغتصب ، وتبقى لأصحابها الذين لا مورد لرزقهم غيرها .

ويجتهد العلم فى أطواره القديمة والوسيطة والحديثة، كى يكشف عن هذا السر الذى يكمن فى نفوس أفراد مختارين فيدفعهم إلى ارتياد آفاق المجهول، والكشف عن غوامض هذا الكون..

ما الذى جعل عمر بن الخطاب،فى لهفته على انباء المعارك الدائرة بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس ، يدرك وهو على بعد سحيق يقاس بمئات الفراسخ والأميال ، أن قوة معادية . تسلقت جبلا ، وتوشك أن تنقض من خلف على المسلمين ، فصاح فى قائده « سارية » يحذره قائلا : ياسارية ... الجبل .. الجبل ..

ومن عجب أن « سارية » سمع ، وكأن صوت أمير المؤمنين عمر يملأ عليه أقطار نفسه ، فتلفت وراءه ، واستطاع أن يناور بجنوده ، ويفسد هجوم عدوه المباغت من فوق الجبل . .

ولا تقل ، ولا أقول : ما سر هذا الصوت، أنتقل من بادية المدينة المنورة، يسمعه واحد بعينه فى سواد العراق ؟.. وإلا مثل أمامنا الخضر الذى علمه ربه « الحكمة » وهو ينظر فى عطف وأبوة إلى الفتى القادم من مصر ؛ يريد أن يسكن ثائرته ويهدىء من روعه .

لقد لفت الاسلام نظرنا بقوة ؛ وفى آيات كثيرة جدا من القرآن الكريم ؛ إلى أن نهذب نفوسنا ، ونزودها من المعرفة بالقدر الذى تطيقه ؛ ونثابر على هذا السلوك فى كل وقت ؛ وفى جميع الأحوال .

دعانا الاسلام إلى أن نكون من «..الذين يذكرونَ اللهَ قياماً ، وقُعوداً ؛ وعلى جُنوبِهم،ويَتفكرونَ فى خَلقِ السماواتِ والأرضِ. ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً .. سبحانك »(١)

وإن تعلقنا بارادة الله ، والتماسنا رحمته، هو السبيل الذى ينير أمامنا طريق المعرفة ، وطريق التقدم ، وطريق تعمير الأرض ، وطريق اكتشاف المجهول ؛

---

(١) آل عمران

وطريق تيسير الحياة للناس. انه يقول : « مَنْ إلهٌ غير الله، يأتيكم بضياء »(١)

هذا الضياء هو قبس من نور الله ؛ يصعد بالانسان فى سلم الرقى الروحى، والمادى على السواء .

وان الكلمة الطيبة لتحتل المقام الأول ؛ فى علاقات الناس بعضهم ببعض ؛ «ألم تر كيف ضربَ اللهُ مثلاً ؛ كلمةً طيبةً؛ كشجرةٍ طيبةٍ؛ أصلها ثابت ؛ وفرعها فى السماء » (٢).

واسمع إلى رسول الله فى احاديثه ؛ ينادى البشرية كلها فى كل زمان ، وكل مكان، أن تستيقظ قلوبها قبل عقولها، ومودتها قبل معاملاتها، ورحمتها قبل عدلها

فى طبقات ابن سعد (٣) قوله عليه السلام :

« تنام عيناى ، ولا ينام قلبى »

« إنما بعثت لاتمم حسن الاخلاق»

«أيها الناس.. انما أنا رحمة مهداة»

كيف نتصور الله تعالى ؟

وإذا كان المسلمون قد عزوا فى وقت ، وهانوا فى وقت .. إذا كانوا قد غفلوا فى زمن ، واستيقظوا فى زمن ، فما ذلك إلا بمقدار ما اقتربوا من صميم الرسالة التى جاءهم بها رسول الله ، أو ابتعدوا عنها .

إن تحديات العصر الذى نعيش فيه حملت المفكرين الغربيين على ألا تنام عيونهم بحثا عن طريق ينجى البشرية من عذاب يحل بها فى صورة حروب ومذاهب هدفها السيطرة والعدوان على أمن الآخرين ، ومواردهم ، وحرياتهم

هل وجدوا فى رسالات السماء شيئاً يهديهم ؟... هذا ما حاولوه، ويحاولونه جاهدين.

---

(١) الاسراء (٢) ابراهيم (٣) صفحات ١٥٣ و ١٧٧ الجزء الأول

هل وجدوا فى رصيد الفكر الفلسفى ، وفى فوران الفكر العلمى ما يخفف من أعباء الحياة القاسية التى يحياها معظم البشر ؟

إنهم يتحسسون طريقهم ، فى وسط حيرة حائرة ، وظلام تتكاثف طبقاته من أمامهم ومن خلفهم .

لقد صاح تشرشل فى أوائل الأربعينيات يهيب بالعالم المسيحى أن يشد أزره فى وجه القوات النازية ، لأن الحضارة المسيحية فى خطر ، ومن قبله تحرك رتشارد قلب الأسد من نفس الجزيرة ، وصاحب جيوشه ، وصاحب ملوك أوروبا وأمرائها ، إلى الشرق الأوسط ورايات الصليب تخفق فوق رؤوسهم ، وهدفهم إخماد أنفاس الإسلام والمسلمين ، لأن الحضارة المسيحية ، ولأن قبر المسيح نفسه . . فى خطر .

وما كانت للمسيحية فى القرنين العاشر والحادى عشر ولا فى القرن العشرين ، حضارة منبعثة من صميم العقيدة المسيحية ، يخشى عليها تشرشل ، ولا رتشارد . . ولكن كانت للمسيحيين أنفسهم فى هذه البقعة ، وما جاورها ، أطماع ومخاوف ، سارعت بهم إلى راية يحتمون تحتها .. أى راية !! حتى إذا تحقق ما يطمعون فيه ، وزال ما يخافون منه ، تفرق جمعهم ، وانفض سامرهم . حتى هذا الحلف مع الشيطان ـ وكان وقتها إسمه ستالين فى تعبير تشرشل ـ زال وانتهى أمره . (١)

ومن نفس نزعة الخوف والطمع ، تحرك لسان هنرى سباك السياسى البلجيكى فى عام ١٩٥٦ ، يصيح فى أوروبا أن تتجمع ، كما تتجمع الفراخ تحت جناح أمها ، لأن نسرا حديد العينين حلق فوقها . . وما كان هذا النسر إلا تأميم قناة السويس ، وقد أثمر هذا التجمع محاولة العدوان الثلاثى على مصر فى ذلك العام .

لم يكن الصليبيون فى القرن الحادى عشر الميلادى (التى استمرت مائتى عام) ولا فى القرن العشرين ، التى توشك حروبهم أن تستغرقه كله ، إلا معارضين تماما لروح الأديان كلها .

وفى أزمة الضمير العالمى الحالية ، التى تجمعت أثناءها كميات من الأسلحة يكفى جزء منها لإنهاء حياة الإنسان من فوق هذا الكوكب . . فى هذه الأزمة ظهر

(١) وضع ايزنهاور عنوانا لمذكراته عن الحرب العالمية الثانية : الحرب الصليبية فى أوروبا !

مسيحيون صادقون ، لا يكتفون بلعن الظلام ، ولكن يحاولون اشعال بعض الشموع فى طريق البشرية .

إن البابوية فى مركزها العتيد بالفاتيكان ترفع الصوت من حين لآخر ، مشددة النكير ضد الماديين والملاحدة الذين أصبح لهم سلطان فى بعض أجزاء الأرض ويحاولون مده إلى ما يليها من أرض أخرى .

وربما كان البطريق « فولتون شين » . وهو أستاذ الكاثوليكية فى الولايات المتحدة . من أعمق الاصوات المسيحية الحقيقية تأثيراً فى الجماعة الغربية ، وقد أقبل المسيحيون من كل المذاهب ، وفى كل مكان ، على قراءة عظاته ـ واحسوا مع معانيها بكثير من الراحة والاطمئنان .

يقول هذا القس الذى طارت شهرته ولمع اسمه : إن هناك محاولة لإيجاد مقاييس جديدة للخلق ، تلائم أساليب الحياة غير الأخلاقية التى يندفع فيها الناس. ومن مثل هؤلاء إلا كمثل من يحاول تعريف الصحة ، بحيث تشمل مرضا شائعا بين الناس . وهؤلاء الذين يحاولون تعليم الناس قواعد الأخلاق ، منفصلة عن تعاليم الدين ، إنما يسلكون طريقا مسدودا تماما . وذلك لأن قواعد الخلق وحدها ، لا يمكن أن تنقذ العالم . فإن تأثيرها إنما يتم فقط فى مناخ دينى . فالدين هو الهواء الذى تتنفسه الأخلاق ، والمادة التى تحكسها . وإذا فقدت روح الدين ، ما تلبث قواعد الأخلاق أن تفقد قوتها .

ويقول عن التعليم المدرسى ، إنه لا يمكن أن يقود وحده المجتمع . فإن فروع التعليم تكثر من حولنا كثرة لا حد لها ، ولكنها مع ذلك عاجزة عن أن تقودنا إلى الحقيقة . فالقرن العشرين هو عصر المحاولة العظمى لإيجاد تعليم عالمى . ولكنه مع ذلك قرن الخلاف ، والحروب ، والثورات التى لم يسبق لها مثيل. فقد حشدنا أذهان صغارنا بالحقائق العلمية ، وأهملنا أن نعلمهم كيف يعيشون ؟ وربما نجح التعليم فى أن يحول من كثير من الناس دوائر معارف تسعى على الاقدام،ولكنه أخفق فى أن يعلمهم كيف يكونون مواطنين مسؤولين فى حياة ديمقراطية.وكثير من التعليم يبنى على نظرية سقراط الخاطئة ؛ التى تقول : ان الجهل بالخير هو الذى يسبب الشر ؛ ولكى نتغلب على الشر ؛ ما علينا إلا أن نعطى الناس قدرا

كبيرا من المعرفة وكان ينبغي تطبيقا لهذه القاعدة ، أن يكون كل متعلم شخصا طيبا . ولكننا نعلم أن هذا ليس صحيحا .

ويسأل فولتون شين : كيف يتصور بعضنا « الله » ؟ هل هو إله الحق والرحمة أم إله الغضب والنقمة !

ان الله تعالى يبدو غضوبا للخاطئين ، فاذا عشنا حياة مضادة لما اراده الله لنا ، ولما منحنا من أجله نعمة الحياة ، انبعث فى داخلنا احساس بالمقاومة. وكما أن العمل الطيب هو بذرة السمو . كذلك الاثم هو بذرة النبات الذى تحتطب منه جهنم . والطريق الذى نغير فيه تصورنا لذات الله ، هو أن نغير سلوكنا . فاذا ثابرنا على البحث وراء الحقيقة ، لا الفرار من طريقها ، فان ارواحنا تنجو من الاحساس بالذنب، ومحاولة القاء التبعات على الآخرين،أو على ذات الله تعالى

سر الاسرار

هذه لمحات من كفاح رجال الدين المسيحى فى عصر التحديات المادية المعاصرة

ولكن ثمت محاولات من جانب آخر من مفكرى أوروبا وأمريكا ، لفت نظرها بقوة، الاسلوب الذى يكسب به دين الاسلام، شعوبا وافرادا فى مشارق الأرض ومغاربها . . فراحوا يتعمقون هذه الظاهرة ، ويبذلون جهدهم لفهم بعض خصائص هذا الدين . فقد وجدوا أنه يكفى شخص مؤمن واحد، يصل إلى منطقة لم تسمع شيئا عن محمد عليه السلام ، ولا عما يدعـــو له ، وما هى إلا جلسات ، حتى تعمل الكلمة الطيبة عملها ، فاذا العراة الذين لم يعرفوا كيف يستحمون ، يتطهرون ، ويلبسون ثيابا نظيفة ، ويقفون صفوفا وراء امامهم فوق أى منبسط نظيف من الأرض، وينادون جميعا فى خشوع ووقار: الله أكبر. تجد هذه الظاهرة حدثت فى أفريقيا ، وفى آسيا ، وإذا مائة مليون من البشر فى اندونوسيا ، ومائة وخمسون مليونا مثلهم فى الهند والباكستان ، وعشرات الملايين فى جنوب شرقى آسيا ، وعشرات أخرى من الملايين فى الصين والفلبين وهذا فضلا عن الأغلبية الكبرى من سكان أفريقية الآن . . . هؤلاء جميعا

يقفون فى نفس الصف ، ويتجهون الى نفس الكعبة ، وينادون : الله أكبر ...
ثم يتابعون صلاتهم .

وقد قيل كلام كثير عن أن الاسلام أنتشر بحد السيف ، ولكن ثبت للبحث المنصف،ان سيفا واحدا لم يرتفع فى وجه الناس من المحيط الهادى عبر القارتين إلى المحيط الاطلنطى ، لكى يردد مئات الملايين شهادة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويسلمون وجوههم وقلوبهم لله رب العالمين .وهوماسنفصله بعدحين.

بل ربما كان من معجزات التاريخ الكبرى، أن جيوش المغول التى اجتاحت آسيا كلها تقريبا ، ودمرت فى طريقها كل مقاومة ، وحولت بغداد ودمشق ومئات المدن قبلها إلى ما يشبه الرماد ، ووصلت شعبة منها — اسمها القبيلة الذهبية ، إلى بحر قزوين ، ثم اجتاحت روسيا ، وهزمت أقوى جيوش أوروبا مجتمعة عند نهر الفستولا هزيمة مروعة ، إذ لم تثبت أمامها أكثر من ثلاثةأيام.. هذه القوة الآسيوية القادرة فى كل مكان،لم يمض على انتصاراتها إلا سنين معدودة تقل عن العشرين — حتى استمع قوادها إلى دعوة الاسلام ، وتمعنوا فيها،وشرح الله صدرهم لها ، فاذا هم يذعنون لكلمة الحق ، ويهتفون فى أوروبا الشرقية . كما فى بغداد الجريحة المرتمية تحت أقدامهم : لا إله إلا الله . . محمد رسول الله .

لم يكن إسلام كل هذه الجموع من البشر على مر الأجيال عبثا، ولا باطلا وقد شهدت منها القرون الأربعة عشر إلا قليلا ، الشيء الكثير .

وإذن فقد جاء الوقت لكى يطوى العناد رايته ، ويجلس الباحثون ، مع الحقائق وقتا كافيا ، ليستخلصوا منها ما يريدون .

ودعك من كتاب القرن الماضى وفلاسفته ، فأمامنا الآن قائمة طويلة من الباحثين المحدثين ، ووراء سر الأسرار ، ونعنى به صمود عقيدة الإسلام لكل التحديات ، واستمرار زحفها إلى آفاق جديدة . .

آراء مسلم عظيم

نذكر من هؤلاء الباحثين ف. س. نورثروب[1]، الذى درس أفكار وآراء شاعر الإسلام العظيم محمد اقبال وتأثر بها فى بحثه . إنه ينقل عنه ماجاء فى كتابه: تجديد الفكر الدينى فى الإسلام :

« إن الإنسانية لفى حاجة اليوم إلى ثلاثة أمور :

أولها : تفسير روحى لحقيقة العالم .

ثانيها : تحرير روحى لذات الفرد

ثالثها : إيجاد نظام من المبادىء العالمية توجه تطور المجتمع الإنسانى على صعيد روحى . . . »

ويستطرد إقبال :

« إن فلسفة أوروبا المثالية لم تصبح فى يوم ما ، عاملا فعالا فى حياتها العملية . فأسفرت عن ذاتية منحرفة تحاول تحقيق نفسها عن طريق ديمقراطيات متنافرة متباغضة . . . صدقونى إن أوروبا اليوم لهى أكبر عقبة فى سبيل التقدم الأخلاقى فى حياة الإنسان »

وفى رأى إقبال أن : « الرجل الحديث لم يعد يعيش حياة مشبعة بالعاطفة الروحية ، أى حياة داخلية ، لكنه صار يعيش على صعيد الفكر فى نزاع صريح مع نفسه ، وعلى صعيد الإقتصاد والسياسة فى خصام حاد مع الآخرين »

وقد تسائل إقبال عن السبب الذى من أجله يخذل الله المسلمين ، وهم أمته ، بعد كل ما عملوه لنشر كلمته فى هذه الدنيا . فالمسلمون أصحاب الفضل الأكبر فى وصول هؤلاء الغربيين المسيحيين . الذين تثقفوا بعلوم اليونان ، إلى ما هم عليه

---

1) The Taming of the Nations by F.S. Northrop (NewYork 1958)
الفصل الثامن المترجم فى « دراسات إسلامية » باشراف الدكتور نقولا زيادة أستاذ التاريخ العربى الحديث فى الجامعة الامريكية ببيروت

الآن من تقدم ورقى . وما وصلت أوروبا إلى كنوز الفكر اليونانى إلا عن طريق ما نقله إليها مفكرو العرب المسلمين . . وإذا ما نظر السائح إلى مآثر الحضارة الجليلة الرائعة ، المنتشرة من حدود جبال البرانس فى أوروبا الأسبانية ، حتى أطراف خليج البنغال فى الهند ، لوجدها كلها من نتاج هؤلاء المسلمين ، الذين كان الله قبلتهم وهم يعيشون فى هذه الأصقاع ، وهم يعمرون .

وفى رأى إقبال أن القرآن الكريم ، كتاب مقدس ، يولى العمل من الاهتمام أكثر مما يولى الفكر . .

هذا هو رأى فيلسوف الإسلام وشاعر هذا العصر ، الذى تخرج فى جامعة كمبردج بانجلترا ، وجامعة مونشن بألمانيا . وبلغ مكانا رفيعا فى عالم المحاماة والسياسة، وقاد نضال بلاده ضد الإستعمار الإنجليزى ؛ حتى تحقق استقلال الهند والباكستان فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ .

إن إقبال يسأل سؤالا واضحا محدودا وهو :

— هل نستطيع أن نحتفظ بالإسلام من حيث هو نظام مثالى للأخلاق ؛ وأن نرفضه كنظام سياسى ؛ ونستعيض عنه بسياسة قومية لا تفسح فيه مجالا للعامل الدينى ؟

ويجيب على هذا السؤال بقوله :

— ليس الدين مجرد تجربة خاصة ؛ تجرى داخل المرء دون أن يكون لها تأثير فى محيطه الإجتماعى . . إن الإسلام تجربة شخصية مفضية إلى قيام نظام اجتماعى ؛ نشتق منه الأصول اللازمة لنظام سياسى . . . إن المثل الدينية فى الإسلام ؛ متصلة اتصالا وثيقا بالنظام الإجتماعى الذى إنبثقت منه . وإذا كان قيام نظام سياسى على قواعد قومية صرفه ؛ من شأنه أن يزحزح مبادىء التضامن الإسلامى فهو أمر لا يمكن أن يتصوره المسلم . . .

ويمضى إقبال فى مواجهة تحديات العصر ؛ التى أنشأها الفكر الأوروبى على أصول مادية فيقول :

إن ديمقراطية الإسلام تتسع لكل الإمكانيات الإقتصادية، بل هى مبدأ روحى قائم على أن كل كائن بشرى ؛ إنما هو مركز لقوة كامنة؛ نستطيع اخراجها ؛ بأن نتعهد فى كل منها ضربا من السجايا الخلقية . . . .

ويستطرد إقبال :

« إن معضلة الخبز تزداد حدة . . لكننا نجد ؛ لحسن الحظ ؛ حلا موفقا لها ؛ بتطبيق شريعة الإسلام ؛ وبتوسيع أحكامها على ضوء الفكر الحديث . . . . لقد توصلت ؛ بعد دراستى للشريعة الاسلامية دراسة دقيقة طويلة ؛ إلى أنه حيث يتيسر فهم هذه الشريعة فهما جيدا ؛ ويتم تطبيقها كما ينبغى ؛ فإن حق العيش يعدو مضمونا للجميع »

وبعد أن يمضى (نورثروب) فى تحليل أراء إقبال يعلق عليها بقوله :

« لا يخفى أن فى العالم معتقدات سياسية وثقافية أخرى ؛ غير التى نجدها فى الغرب الديمقراطى المتحرر ؛ تصلح هى الأخرى ؛ لأن تكون أساسا لديمقراطية إقتصادية عالمية مسالمة . فقد صدق اقبال حين قال : أن مشعل الحياة لا يستعار من الغير ؛ بل ينبغى لكل فرد أن يوقده بنفسه فى هيكل ذاته »

رسالة المشرق

وإذا كان هذا الباحث الأمريكى فى أغوار النفس الاسلامية ، ومثلهـــا واتجاهاتها ، قد بهر بإقبال ؛ فمن واجبنا أن نقف نحن قليلا عند هذا المفكر الإسلامى العظيم .

لقد كشف لنا عن كنوز علمه ومعرفته ؛ استاذنا الفاضل المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ؛ عندما ترجم عن الفارسية رسالة المشرق لإقبال ؛ والتى أسمها فى الأصل : « بيام مشرق » ؛ وقد أعدها شعرا ؛ لتكون ردا على ديوان شاعر ألمانيا الشهير « جوته » . . . وقد جعل على رأس الرسالة الآية الكريمة : «ولله المشرق والمغرب».

وقدم الدكتور عزام هذه الترجمة (١) بقوله :

« إن كلمة الشرق عند إقبال ، هى رمز لمثل عال ، وأسلوب من الحياة يمكننا إيجازه فى كلمة واحدة هى . . . الاسلام .

« إن المقارنة بين الغرب والشرق فى نظر إقبال ، هى مقارنة بين النظر إلى الحياة نظرة بعيدة عن الاعتقاد بالله ، وبين الايمان بالله القائم على جميع قيم الحياة الأبدية ، ولابد من الاعتراف بأن هذه الفكرة عن الشرق ، هى فكرة مثالية ، تمثل الاسلام على حقيقته ، لا على ما نراه اليوم فى الأقطار الاسلامية . والحق أن رسالة الشرق هذه هى الرسالة التى أهداها إقبال إلى الشرق نفسه .

« إن — بيام مشرق — رسالة أمل ، رسالة إلى عالم اليوم من قبل طبيب يعرف علله .. إن بصيرة إقبال فى هذا الظلام الحالك ، والضباب الذى يكتنف العالم الإسلامى ، قد رأت الفجر الموشك أن يبزغ فى الأفق »

ويلخص عزام فلسفة صاحبه بقوله :

لإقبال مذهب ، سماه مذهب الذاتية (خودى) وخلاصته أن الذاتية أساس الحياة . فالله تعالى ذات ، والإنسان ذات ، وحياة الإنسان تتجلى فى هذه الذاتية . فعلى الإنسان أن ينظر إلى فطرته ، ويستخرج كل مافيها . . والاستقلال فى الفكر ، والابتكار ، يبين عن الذاتية ، والتقليد يضعفها أو يميتها . . والشدائد والمحن فى هذه الحياة تقوى الذاتية . والآلام واللذات يكمل بعضها بعضا .

« واقبال لا يعول على العقل كثيرا ، وإنما يعول على القلب ، ويقول اقبال نفسه ، وهو يقدم ديوانه :

« ان الشرق يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . ولكن يجب على أمم

---

(١) توفى اقبال فى ٢١ ابريل سنة ١٩٣٨ بمدينة لاهور . وقد عين الدكتور عزام سفيراً لمصر فى السعودية ، وسفيراً فى الباكستان ، وبمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لوفاة اقبال ، قدم عزام المطبعة أول ترجمة لديوان من دواوين اقبال احتفالا بالذكرى ، وصدرت فى « كراجى » عام ١٩٥١ .

الشرق ان تتبين ان الحياة لاتستطيع أن تبدل ما حولها حتى تبدل ما فى أعماقها . وان عالما جديدا ، لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى ، حتى يوجد فى ضمائر الناس قبل ذلك . هذا قانون الفطرة الثابت الذى يبينه القرآن فى كلمات يسيرة وبليغة : إن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم . . إنه قانون يجمع جانبي الحياة كليهما ، الفردى والاجتماعى . وقد اجتهدت فى كتبي ، أن أبين الناس صدقه » .

وقد ألقى إقبال نظرة فاحصة نافذة على نتائج الحرب العالمية الأولى ووجد أن الاضطراب الباطنى فى أمم العالم، هو مقدمة إنقلاب حضارى،وروحى عظيم جدا:

كانت الحرب العظمى التى قامت فى أوربا ، قيامة ، كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وإن الفطرة لتخلق اليوم فى اعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة ، إنسانا جديدا ، وتخلق عالما جديدا لاقامة هذا الانسان .

وإذا نظرنا نظرة أدبية خالصة، نرى أن اضمحلال قوى الانسان، بعد الحرب (الأولى) لا ييسر نشوء مثل روحية صحيحة ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع الناس هذه الاباحية المنهوكة الضعيفة الاعصاب ، التى تفر من مصاعب الحياة ، والتى لا تميز بين نزعات القلب ، وأفكار العقل . . .

هذا اجمال لخلجات نفس مسلمة مؤمنة . . ولو ان اقبال امتد به الأجل ، لوجد الحرب العالمية التى شهدها،استشونفت مرة أخرى فى ضراوة أشد، وباسلحة أفتك . ولوجد أن العقل الغربى ، استباح أن يلقى قنبلة واحدة على هيروشيما باليابان ، يزيد ضحاياها من البشر عن مائة ألف نسمة . . حتى إذا انتهت حروب النصف الأول من هذا القرن . نجد معسكر المادية الماركسية ، ومعسكر المادية الرأسمالية ، يتحفز كل منهما لمعركة فاصلة . والعالم غير المنحاز لأى من الفريقين فى حيرة من أمره، يمسك أنفاسه خشية هذا الصدام،الذى قد لا ينجو من شره

ومن هنا كان من واجب الكتلة العظمى فى العالم غير المنحاز ،وهى المجموعة الاسلامية ، أن تبحث لها عن طريق ، وأن تحدد لها فى الحياة أهدافا واضحة ، لا تطمع فيه الطامعين من المعسكرين المتناحرين . وقد تهديه إلى طريق الأمان .

وقبل أن نبدى رأينا فى الطريق الذى يجب أن نسلكه نعرض لمفكر غربى معاصر آخر ، حاول أن يكشف عن سر الاسلام وقوة تأثيره ..

الاسلام فى حالة الحركة

هذا الباحث ، ولفرد كانتول سميث (1) .. يقول إن الحياة على كوكبنا الأرضى مليئة بالتجديد السريع والمشاكل الجديدة ، والامكانيات ، وكذلك الأحلام والأخطار. وأن أهم وأمتع فصل من فصول التاريخ الاسلامى حتى اليوم بالنسبة للغرباء عن الاسلام والمسلمين معا ، إنما هو الفصل الذى هو الآن فى طريق الخلق والتكوين .

إن وعيا ينتشر بقوة بين المسلمين، يدرك المرونة التى يمتاز بها حاضر الاسلام وقد كان الاسلام كذلك دائما .. وأننا لفى حاجة إلى فهم أوضح لماهية هذا الدين.

إن حقيقة الاسلام هى أنه إيمان خاص حى متجدد مع كل صباح ، فى قلب كل فرد من أفراد المسلمين . والمسلم يعتقد أن الله خالقنا ، واليه المصير ، وهو خالق الناس أجمعين . وهنالك طريق مستقيم للحياة وقد خلق الإنسان واعيا وحرا . وهذه الحرية عبارة عن مسؤولية خطيرة . وقد عرض الله تعالى الامانة على السماوات — أى القوى الروحية ، والأرض والجبال (أى القوى الطبيعية) فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان . وبذلك ألقى على عاتقه إعباء تسيير مصيره ، بادراك ووعى .

والناس ، فى مجتمع المسلمين ، لا يستطيعون أن يجنبوا مجتمعهم الانحلال والفوضى ، إلا إذا عاشوا حياة مستقيمة . وإن كانت لهم الحرية فى اختيار النهج الأعوج ، وتدمير النظام الاجتماعى كله . ولهذا بعث الله الرسل من ابراهيم حتى خاتمهم محمد بن عبدالله . وإن دعوته لم تكن منفصلة منعزلة ، ولا هى نص جامد

---

1) Islam in modern History by Wilfrid Cantwell Smith
طبعة جامعة برنستون عام ١٩٥٨.

حتى يأخذ الدين مسؤوليته فى اعادة بناء الحياة البشرية . ولم ينطو المجتمع الذى ظهرت فيه رسالة الاسلام على نفسه ، ولكنه رحب بالخلق جميعا ترحيبا حارا . وألح فى دعوة الغير للاشتراك فى هذه العقيدة الجليلة السامية .

بهذه الطريقة جاء الاسلام ، الذى كان منذ الأزل ، إلى تاريخ اعلانه فى القرن السابع الميلادى، وأخذ طريقه النهائى بين الناس. وسجل رسالته ، ذلك الكتاب العربى « القرآن » الذى حفظ بدقة تامة ، حيث تتلألأ الرسالة بتمامها وفى لغة من الوضوح الصافى ، والجمال الرائع الأخاذ .

والجماعة التى التفت حول رسول الله ، كانت تتألف أول الأمر من أهل مدينتين اثنتين فى بلاد العرب . ثم ضمت عربا آخرين . وما لبث أن انضم إليها أناس من كل أمة ولغة ، وكل جنس ولون . وكل حدب وصوب . وكانت هذه الجماعة تتميز عن غيرها من الجماعات البشرية بأنها قبلت — بينما غيرها لم يقبل — الارشاد الواضح السليم ، وسلمت بالكتاب المنزل ، وأسلمت أمرها لله . ولذلك عرف أفرادها بالمسلمين . وبظهور هذه الجماعة ، ظهر الاسلام كحركة عالمية ، تترجم الفكرة إلى عمل منظم متواصل . وهكذا بزغ فجر عهد جديد فى حياة الانسان .

ومنذ ان كان الاسلام ، فان معنى أن تصبح مسلما ، هو أن تنخرط فى هذا المجتمع ، وتشارك فى العمل حسب ارادة الله ورضوانه.. وبهذا يقترب الانسان من الله .. لأنه عمل صالحا . والصلاح هنا هو ما تضمنه القرآن من وحى السماء، وعبر عنه المجتمع الاسلامى بالعمل .

لقد كان الأغريقى يرى أن الصلة التى تجمع الانسان المحدود، والقوى المطلقة هو العقل ، وأما المسيحى ، فان المسيح هو صلته بين المحدود والمطلق.. ولكن المسلم ، فان الواسطة بينه وبين الله تعالى ، هى الفضيلة . فالانسان لا يلتقى مع الله إلا بالمسلك الخلق الفاضل . وكلمة الله الخالدة هى الآمرة الفاصلة .. والتاريخ الاسلامى ، هو مجتمع المسلمين فى حالة الحركة. ومن المعروف جيدا ، أن المجتمع الاسلامى يتمتع بروابط متينة . وولاء أفراده وتماسكهم شديد .

ان المجتمع الإسلامی ، لیس متحدا فقط ، بالاخلاص المشترك والتقالید ، وبنظام دقیق من القیم والمعتقدات . . أنه ینبض بحیویة اعتقاد شخصی عمیق . اعتقاد دینی حار ملیء بالمعانی بالنسبة لكل فرد من المسلمین . ویدفع الاعتقاد الدینی المسلم إلی المساهمة فی بناء مجتمعه .

واستعرض هذا الباحث نجاح المسلمین الأول فی تكوین مجتمعات متحضرة. فقد كانت قوانینه تطاع ، وصكوكه المالیة تقبل فی أی مكان ، وكان الفن المعماری رائعا اخاذا ، وشعره سحرا ، وعلمه ضخما ، وعلومه الریاضیة جریئة مقدامة وتكنولوجیته نافذة مؤثرة.. لقد أوجد المسلمون للعالم حضارة جدیدة ، نهض فیها مجتمع عظیم علی أسس لغویة وشرعیة جدیدة ، كما قام كذلك علی أسس اقتصادیة وادارية حدیثة .

وكان النجاح كله دینیا . فالذی حققه المسلمون ، كان بالنسبة لایمانهم أمرا جوهریا. إنهم لم یكونوا فقط منتصرین فی میادین الحرب وذوی أثر فعال فی میادین الحیاة علی تنوعها، بل نجحوا ، فی فترة قصیرة نسبیا ، فی جعل الحیاة كلا یتألف من هذه الحضارة.وقد اشتركت عناصر عدیدة فی خلق الحضارة الاسلامیة عناصر فی شبه الجزیرة العربیة ، وعناصر أغریقیة ، وعناصر من ثقافات الشرق الأدنی القدیم السامیة ، وأخری من ایران الساسانیة ، وأخری من الهند . وقد صهر المسلمون ذلك كله فی بوتقة واحدة،ثم طوروه بعد ذلك إلی حضارة جدیدة وكان الاسلام هو الذی ساعد فی إنجاز هذا الأمر . وكان الدافع والقوة وراء صیانته والمحافظة علیه. وقد أعطی القالب الاسلامی لكل ناحیة من نواحی الحیاة مهما كان الشیء الذی تنطوی علیه . . وكان الطابع الاسلامی هو الذی أعطی المجتمع صلابته وحیویته .

ولاحظ هذا الباحث أیضا ، أن حضارة الغرب الحدیثة ، ونظامه الاجتماعی امر خارج عن نطاق الدین المسیحی . وعندما نجح المسیحیون فی أمور دنیاهم — لم یعتبروا ذلك نجاحا لهم كمسیحیین ، أو نجاحا لدینهم،وبهذا انفصلت المعانی الروحیة عندهم عن شؤون الدنیا . أما المسلمون فإنهم یعتقدون أن الله عن طریق دینهم نطق بالحق . وأن نجـــاح أعمالهم مرجعه إلی إیمانهم بالله ، وما نزل به رسوله .

وعندما اصابت المسلمين النكبات بهجوم المغول ، وسقوط بغـــداد ، ترى الاسلام نفسه ينجو من هذه الأزمة ، ويعيش ، ولـكن دون جمود أو سكون . فقد نهض يعبر عن نفسه فى الحركة الصوفية التى تطورت،وأصبحت لها مدارسها وعبر عنها جلال الدين الرومى فى قصيدته « المثنوى » تعبيرا رائعا . وقد انشد هذه القصيدة بعد سقوط بغداد بسنوات قليلة. وما لبثت الراية أن ارتفعت من جديد على ايدى العثمانيين ، حتى كان القـرن السادس عشر من أعظم القرون فى تاريخ المسلمين . فقد ارتجفت أوروبا فزعة أمام اندفاعهم . وكان الصفويون فى إيران يجمعون إلى سلطتهم الملـكية الروعة الفنية . وكان المغول فى الهند يمثلون بالقوة والثروة ، والجمال الفنى ، أعظم حكم عرفته شبه القارة الهندية لعصور طويلة ، خلت .

ولـكن ما أن اقبل القرن الثامن عشر ، حتى توقف المجتمع الاسلامى عن التقدم ، وأصيب بانهيار خطير . فوهنت قواه السياسية والاقتصادية والفكرية والفنية . وما ذلك إلا لأن العالم الغربى تحول إلى مارد جبـــار يخطو إلى الأمام مستكشفا الضعف فيه،وفرض عليه حكمه طوال القرن التاسع عشر.فالهولنديون فى أندونسيا ، والبريطانيون فى الهند وغيرهـــا ، والروس فى أواسط آسيا ، والفرنسيون فى افريقية ، وأخذوا يحـــكمون المجتمع الاسلامى . اما إيران والامبراطورية العثمانية فقد احتفظتا بالسيادة السياسية.ولـكنهما كانتا مستقلتين دون أن تـكونا حرتين . وبغض النظر عن السلطة السياسية،فان المجتمع الاسلامى الذى كان فى الماضى مهيبا قويا متيقظا . قد انهار روحيا ، فى كل مـكان ، بحيث خضع فى تصرفه ومصيره لقوى خارجة عن الاسلام .

وعليه ، فان الحقبة الحديثة من التاريخ الاسلامى،تبتدىء بانحلال فى الداخل وتهجم ووعيد وتهديد فى الخارج ، وبان المجد العالمى الذى اشتهر بأنه كان يجرى إطاعه لـكلمة الله ، إنما اصبح مجرد ذكرى بعيدة لماض سعيد . ا.هـ.

ولـكن هذا الباحث عكف على دراسة عناصر الـكفاح التى قامت بها القوميات الاسلامية لخلع السيطرة الأجنبية عن كاهلها.فقد تخلص الاندونوسيون من الحكم الهولندى،وتخلص المغاربة والسوريون من الفرنسيين ، وتخلص المسلمون الهنود



من الانجليز ، وتخلص الأتراك من اليونانيين . ونسي سميث أن يذكر أيضا أن المصريين والسودانيين والنيجيريين والغانيين تخلصوا من الانجليز وأن الصوماليين والليبيين تخلصوا من الايطاليين وأن عديداً من المناطق الإفريقية تخلصت من الفرنسيين . . ومع ذلك عاد يستطرد قائلا :

ليس صحيحا قط ، القول بأن العنصر الاسلامي الديني هو العنصر الوحيد في هذه الحركات . فمن الواضح أن هنالك عناصر أخرى من الاقتصاديات حتى اللغة واكثر ساعدت على التحرر ، وليس صحيحا أيضا الادعاء بأن النغمة الاسلامية كانت غائبة عن مجال النضال ، أو متنافرة معه ، أو غير مطابقة له .

وفي رأي «سميث» أن المسلم الحديث لم يأخذ بعد من النظام والالهام والطاقة التي أقامت مجتمعه العظيم. فقد كان الفرد من قبل ينهض مبكرا في الصباح، ويعمل ساعات طويلة ، ويرفض الرشوة وكانت له حوافز الأحلام ، وطاقة لتحقيق هذه الأحلام .. وذلك كله في سبيل رفاهية الأمة ، ومكافأة لها .

ونختم استعراض آراء هذا الباحث بقوله :

« إن رد اعتبار الاسلام في جميع انحاء العالم ، إنما يتم ، ويجب أن يتم مجزءا محليا . ثم إن حلم الوحدة الاسلامية اليوم ، إنما هو في جوهره ، تصور كل أمة أو جماعة اسلامية — العالم العربي .. تركيا .. إيران .. باكستان إلى غير ذلك - أنها تنتعش ثانية على انفراد، وتدب فيها الحياة ، وتزدهر ، وتقوى . ومثل هذا الحلم ، لا يضيف الى قومية كل منطقة إلا الأمل ، أو الافتراض المسبق أنها ستتحد جميعها في تبادل نفعي ودي مشترك.

« إن أوربا ، التي تتألف من قوميات عديدة ، عملت على تمزيق وحدة المسيحية ، التي كانت سائدة في وقت ما . قد تكون اليوم في سبيل السمو بتلك القوميات بحاجة الى لون جديد من الولاء الأكبر . وذلك لما تشعر به من ضغط التهديد الروسي الخارجي . ومن وعي آسيا وأفريقيا الذي ينمو ، ومن ناحية أخرى يمكن للعالم الاسلامي أن يسمو بحيوية دولية متعددة إلى أخوة دولية عليا لا أن يكفر بها ... هذا هو الحلم — على الأقل .

« إن الوحدة الاسلامية لا تزال أصلا ، كما كانت دوما . شعورا بالتماسك

والاتحاد . إنما ليست اتحادا بالذات ، أو تعبيرا نظريا أو عمليا له . إن وحدة العالم الاسلامى هى وحدة عاطفة ..

« والمسلمون العصريون ، قد نجحوا نجاحا كافيا جعلهم يواجهون مشكلة حاجتهم الدينية الصميمة ،وهى علاقة الاسلام بالمشاكل الواقعية فى العالم الحديث

« إن السؤال الذى يواجهه المسلم اليوم ، لم يعد مجرد التساؤل عن سبب وجود فجوة بين إعتقاداته ، والعالم الذى وجد نفسه فيه . أنه اكثر نفاذا من ذلك . ألا وهو : كيف يملأ الفجوة بين إيمانه وبين العالم الذى يجب عليه الآن أن يبنيه ؟! » .

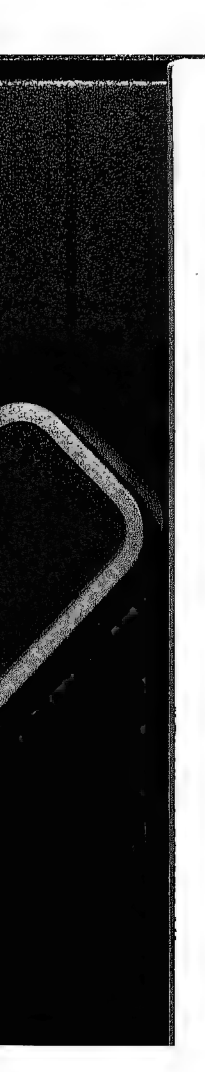
الفكر الغربى والاسلام

لقد قصدنا من هذا الاستعراض المفصل لكتابين من أهم الدراسات الحديثة جدا ، التى تناولت شؤون الاسلام ، أن نلقى نحن نظرة على الفكر الغربى ، وما يجول فيه بالنسبة لعالمنا ..

إن كثيرا من نظراتهم الآن فيها شيء من الصدق والجدية ، وقد برئت من تهم التعصب المقيت الذى شاب دراسات الغربيين للاسلام فى القرون الماضية .

وفى رأينا ، أن حالة العالم اليوم استوجبت هذه النظرة العميقة الفاحصة .. فالمجتمع ،الذى ظهرت فيه هذه الدراسات وعشرات أخرى مثلها تتوالى كل يوم ، ينمو نموا ماديا خطيرا ، ولكنه يرتجف من الداخل خوفا وهلعا من أن يحدث له انفجار يدمر كل ما بناه . وهذا الانفجار ، قد يتم نتيجة حركة خاطئة ، أو حماقة طارئة من أحد السياسيين أو بعضهم . لقد تضخمت قوة الغرب بمعسكريه ولكن الاطمئنان لهذه القوة زايله ، وثقته بغده ، وما يسفر عنه هذا الغد انتهت أو كادت ..

لقد رأينا فى الأعوام الأخيرة ، كيف أن كنيدى بكى ،عندما علم أن مشروع غزو كوبا أخفق . ولما تبادل الرسائل مع خروشوف لإنقاذ العالم من اصطدام



مروع أوشك أن يقع سارع كل منهما يقول إنه اخطأ : احدهما اخطأ فى محاولة للغزو والثانى اخطأ فى زرع أرض كوبا بالصواريخ . وهذا الاعتراف من الجانبين ، لا يمثل فضيلة، ولا هو ارتفاع باخلاق الساسة الغربيين، ولكنه رعب من تصور النتائج التى يؤدى إليها أى تصرف أرعن .. وفجأة ، وفى فترتين متقاربتين ، رأينا هذين الزعيمين يختفيان من ميدان العمل السياسى ، احدهما تقضى عليه رصاصة ما زال الغموض يكتنفها ، والثانى يعزله قرار لم تعلن أسبابه حتى الآن ...

هذه الأعصاب المشدودة ، والممزقة أحيانا ، ترى الظلام من حولها يتكاثف والمواطن العادى فى أى من هذه الدول الغربية ، تزداد حالته النفسية سوءا ... حتى أن تمثيلية فى الاذاعة أراد منها مخرجها أن يصور حالة حرب ذرية لو وقعت، كادت تصيب أهل أمريكا بالجنون ، إذ نسى المستمعون لها أنها تمثيل ، وراحوا يقذفون بأنفسهم من أعلى العمارات، ويهرعون معـــولين إلى حيث يلتمسون النجاة .. ولم ينقذ مئات الآلاف منهم إلا إيقاف هذه الاذاعة وتذكير الناس أنها تمثيل ، وأنها لن تستمر ، ولن تعود !!

فى ظل هذه الحالة ، يعكف الباحثون على بصيص من النور . . وهم يعودون للتفتيش فى التاريخ، وفى الحاضر،عن القيم الروحية ، لعل فيها النجاة .. لا يقفون عند دين المسيحية ، الذى تعتنقه كثرتهم، ولكنهم وصلوا الى الأسلام وأمعنوا فيه التفكير .

كانوا بالأمس يبحثون فى الاسلام ، للعثور على مآخذ ومطاعن فيه ، عندما كانت الغنيمة هى أرض المسلمين وثرواتهم . . وعندما كانت بقايا الحروب الصليبية والاندلسية والعثمانية والاستعمارية الحديثة تحركهم. وما أكثر الأكاذيب التى أهالوها على رءوس المسلمين . والتهم التى الصقوها بدينهم ظلما وعدوانا . . بل لقد وصل الأمر بقوادهم فى الحرب العالمية الأولى ، أن وقف أحدهم على قبر صلاح الدين فى ظاهر دمشق قائلا : لقد عدنا ياصلاح الدين . . وصاح ثانيهم عندما دخلت جيوشه بيت المقدس : الآن انتهت الحروب الصليبية !!

هذه هى الروح التى سادت مجتمع الغرب حتى أوائل هذا القرن . . ولكن

الأمر كما نرى بدأ يتغير من جانبهم ، لا حرصا على الحقيقة من حيث هي ، ولكن رغبة فى استخدام هذه الحقيقة حبل نجاة ، أو قبسا من نور يضيء الطريق.

انى ألمح سؤالا يطل على . ولعله أطل على قراء هـــذه الصفحات : ما دام الإسلام أمام الباحثين الغربيين بكل هذه القيمة ، وكل هذا الاشراق ، فهل أسلم هؤلاء الباحثون ؟ ! !

طبعاً لم يسلم أحد منهم ، أو هذا بالقليل ما نعلمه . وليس الأمر الإهتداء إلى دين ، يعوضهم عن دين آخر . ولكنه محاولة البحث عن طاقة قوية متجددة العزم ، قد تساعد على إيجاد التوازن بين قوى الصراع الفكرى والعقائدى الحالى : بين مجتمع الماركسيين ومجتمع الرأسماليين :

لقد صنع الإسلام قديما معجزات حضارية عظيمة الشأن . فهل يمكن أن يقدم الوجود الحضارى عونا جديدا فى محنته الحالية ؟ ! !

هل الطاقة الروحية الهائلة ، التى انبعث بها الإسلام ، وسار عبر القرن ، بقادرة على أن تستأنف مسيرتها ، وفاعليتها فى مواجهة موجات الألحاد والمادية واللا أخلاقية التى تسود البشر ؟ ! !

هذا فى إعتقادنا ، هو مفتاح البحث ، وسره ؟ ! !

وإنا لنراهم يراجعون سيرة المجددين المحدثين فى طرائق التفكير الإسلامى . وتداولت بين باحثي الغرب أسماء محمد بن عبد الوهاب فى نجد ، ومحمد عبده وتلميذه رشيد رضا واحمد أمين فى مصر ، وأمير على ، وعبيد الله سندى وإقبـــال ، وابو الكلام أزاد فى الهند ، والحاج آغس سليم فى أندونوسيا ، وجمال الدين الأفغانى فى بلاد إسلامية كثيرة .

كما نراهم يعودون بالدراسة والتدقيق إلى حركات السنوسية والمهدية والمرغنية والجيلانية والتيجانية فى أفريقيـــة . وحركات ساركات إسلام ، والمحمدية فى أندنوسيا ، والخلافة فى الهند .. وحركات إصلاحية أخرى فى إيران وتركيا وغيرها

أننا نحن الباحثين فى التاريخ الحديث للأمة الإسلامية ، لم نتعمق كما تعمقوا ،

ولم يتسع بحثنا ، ليشمل أطراف الحركة الإسلامية فى كل مكان توجد فيه . . فإن فترة نضالنا — فى مصر — ضد السيادة التركية ، ثم الإحتلال الإنجليزى ، شغلت معظم تفكيرنا ، ولم تترك إلا فضلة قليلة من الطاقة الذهنية والقلمية ، تصلنا بهذا العالم الذى ربطنا به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وربطنا به القرآن الكريم ،

ومع ذلك فإن المسلمين حيث وجدوا لم ينسوا القاهرة ، مدينة الأزهر وملجأ الخلافة العباسية ، بعد أن دمرت قاعدتها فى بغداد ، وحامية الحرمين الشريفين لآماد طويلة من الزمن .

لم ينس العرب من حولنا معركة الألف يوم التى خاضها شعب مصر ضد غزو نابليون مصر فى آخر القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر ، وهى أول تحرك أجنبى بعد سبعة قرون من إنتهاء الحروب الصليبية . فقد وقف المصريون فيه وقفة رجل واحد ، بغير زعامة شاملة ، ولاقيادة موحدة ، يدفعون بأرواحهم وأجسادهم وكل ما فيهم من طاقة البشر ، أكبر عجلة حربية حديثة تحركت نحو بلادهم ، ومقابل كل جندى فرنسى قضت عليه المقاومة ، دفعنا أرواح عشرين مصريا ، غير الأحياء والمدائن والقرى التى أحرقت أو خربت عن آخرها . ولم يكن شعب مصر وحده فى هذا النضال . فقد مد أبناء الحجاز جسرا عبر البحر الأحمر إلى القصير ثم إلى قنا يشاركون بالرجال والسلاح والمؤونة أبناء الصعيد البطل فى نضالهم الرهيب ضد جنود الغزو ، وقد أحس نابليون بما كان يحدث ، فاضطر إلى الاستغناء عن عدد من جنوده ، وما كان أحوجه لهم ، كى يحتلوا القصير ، ويحاولوا قطع هذه المعونة . . ومن ليبيا ، جاء مجاهد لا نعرف عنه الكثير ، أطلق عليه أهل البحيرة إسم المهدى ، وتعاون مع المواطنين المصريين كى يقطع طريق المواصلات بين الاسكندرية والقاهرة ، ويكبد الفرنسيين ، مع طائفة السنوسيين الذين قدموا من الواحات ، خسائر لا تعد ولا تحصى . ومن هناك .. من فلسطين والشام الكبير ، كانت تفد إلى الدلتا معونات ثمينة ، ويهرع إلى غزة ويافا أبناء الدقهلية والشرقية عندما تضيق بهم السبل . حتى ان نابليون اضطر لمد غزوه إلى يافا ، حيث جرت مذبحة رهيبة ، قبض بعدها على مئات المصريين اللاجئين هناك — ومنهم السيد عمر مكرم — وعند عكا وقف هذا

القائد العبقرى مذهولا ازاء مقاومتها ، وبعد بضعة أسابيع إرتد عنها منهزما ، سائراً على قدميه إلى مصر ، بعد أن أهلك طاعون يافا دواب النقل وامتد إلى رجاله . وقد كان هذا الانسحاب الذليل أول طريق الطاغية فى جر أذيال الخيبة ، الذى صادفه بعد ذلك بصورة مكبرة فى موسكو . وكانت خاتمة المطاف فى النضال الاسلامى ، ضد نابليون وقواته ، خنجر شاب من حلب ، متعاونا مع بعض أبناء غزة ، أغمده فى صدر كليبر خليفة نابليون مصر . .

وهكذا طويت هذه الصفحة الدامية ، من تاريخ النضال الاسلامى ، ضد أول غزو أجنبى حل بمصر فى التاريخ الحديث،وكانت الروح التى تسود عملياتها كلها ضد العدوان ، هى روح الاستشهاد فى سبيل الله . . هى نفس الروح التى تحرك بها المسلمون الأول ، وهم يخوضون الأهوال ، فى سبيل ارضاء عقيدتهم ، وآخر دعائهم أن الحمد لله رب العالمين .

حتى إذا انتهى القرن التاسع عشر أوكاد ، واستسلمت مصر أمام قوة الخديعة والانقسام ، وعدة عسكرية بريطانية تزيد على ضعف ما أعده نابليون لمصر ، كان السودان يتحرك تحت زعامة المهدى للتخلص من التسلل البريطانى إلى ربوعه ، وتتأهب قوات هؤلاء المناضلين الذين حملوا إسم « الدراويش » لمعونة مصر فى التخلص من إحتلال الانجليز لها . وكانت خطة المهدى وتعليماته لرجاله ، أن يأسروا « جوردون » الحاكم الانجليزى حيا . . . لماذا ؟ كى يفادى به « عرابى » زعيم المصريين ، الذى أسر ، ونفى إلى سيلان .

لم تكن هناك معرفة ، ولا علاقة مباشرة بين المهدى ، وعرابى . ولم يلتق أحد من أعوانهما قبل هذه الأحداث أو بعدها . ولكن رابطة ما ، هى أقوى ، وأعز من رابطة المعرفة والخطة المشتركة . . رابطة الاسلام ، هى التى أملت على المهدى تفكيره : ولقد أسف زعيم السودانيين فى ذلك الوقت،لأن خطته لم تنجح ، ولأن أعوانه دفعتهم الحماسة كى يقتلوا « جوردون » فى المعركة !!

ولكن هذا التفكير ، لم يقف عند هذا الحد . . فهناك فى باريس ، حيث كان بعض زعماء المسلمين يعيشون فى المنفى ، دار بحث جديد ، بين السيد جمال الدين

الأفغانى ، والشيخ محمد عبده . ومؤداه ، أن يحاول ثانيهما الوصول إلى السودان متنكرا ، وأن يلتقى بالمهدى ، وأن يتعاون معه ، للزحف إلى الصعيد ، وتجديد ما قام به المصريون أيام نابليون ، وشن حرب شعبية شاملة ضد الاحتلال البريطانى . .

وقد نفذ الشيخ محمد عبده الخطة ، فحلق ذقنه ، ولبس زيا أفرنجيا وقبعة ، ونفذ من ليبيا إلى الصعيد دون أن يخطر أحدا من أصدقائه بقدومه ، ووصل إلى أسوان ، وهناك كان القدر قد أعد ترتيبا آخر ، إذا بلغه أن المهدى مات ، وأن التعايشى حل محله فى حكم السودان . . وأدرك الشيخ أن خطته لا يصادفها النجاح مع الخليفة ، وعاد . . وليته ما عاد . . فعلى الرغم من الفوارق الكبيرة فى الشخصية وطاقة الزعامة بين المهدى وخليفته ، إلا أن الأيام أثبتت بعد ذلك أن الخطة التى وضعت فى المنفى لإنقاذ مصر ، لم تكن غريبة عن تفكيره . إذ حشد التعايشى قوة برياسة قائده النجومى للوصول إلى أسوان ، ومحاربة الإنجليز

هزمت هذه القوة فى أسوان . وما يزال قبر النجومى هناك حتى الآن ، ولو أن الشيخ محمد عبده ، وصل إلى الخرطوم ، لكان هيأ برسله ، وخططه ، أذهان المصريين ، وهو الخبير بمواطنها ، وطاقاتها ، ولربما كانت الأمور قد سارت فى غير هذا الطريق الذى سلكته بعد ذلك ، وربما كانت مقاومة المصريين مع إخوانهم السودانيين قد استؤنفت بعد الإحتلال مباشرة ولم تنتظر بضعة عشرات من السنين كما حدث فعلا .

وإذا كنا نضرب الأمثال القريبة ، لقوة الروح الإسلامية ، التى تجلت فى منطقة الشرق الأوسط ، وتصدت للعدوان الإستعمارى ، فينبغى أن نؤكد أننا لا ندون تاريخا ، ولكننا نريد أن ندل على شىء واحد ، وهو أن هناك رابطة روحية عميقة الجذور ، سارية مع كل نفس يتردد فى الصدور . . وهى رابطة « لا إله إلا الله . . محمد رسول الله » بمفهومها الواسع الكبير ، الذى يشمل أبناء الأمة المحمدية . . .

هذه الرابطة الواسعة الكبيرة هى التى جعلت مصر ، تفور وتغلى عندما

ضربت مدافع الفرنسويين دمشق ، وعندما ثار لبنان فى سبيل حريته ، وعندما قبض الفرنسيون على بطل الريف الأمير عبدالكريم ،ثم عندما هرب فى بورسعيد وحنت عليه مصر مرحبة ، ثم عندما قبض الفرنسيون على السلطان محمدالخامس حتى أفرج عنه ، ثم عندما ثارت الجزائر فى وجه استعمار الـ ١٣٠ سنة حتى تخلصت منه ، ثم عندما ضرب الفرنسيون بنزرت التونسية حتى تم الجلاء عنها ثم عندما ناضل الصومال من أجل حريته حتى تحققت هذه الحرية ، ثم عندما قدمت مصر الجلاء عن السودان على الجلاء عنها ، ثم عندما وقفت مصر فى اليمن وفى الجنوب العربى ضد عدوان الاستعمار وما يحركه من أطماع . أوعند ما يقف العرب والمسلمين متربصين بالصهيونيين فى فلسطين

كل هذه أمثلة ، وليست احصاء ، تدلنا على هذه الطاقة الهائلة ، التى تتحرك من تلقاء نفسها ،وتؤدى واجبها ،فى غير من ،ولا إحساس حتى بالاريحية والفخر

وكم كان بودنا أن نمضى مع هذه الامثلة ، لنشرح إلى جانب جهود الجماعة ، جهود الأفراد الذين حملوا عقيدتهم معهم ،وساروا غير هيابين ،إلى غابات ومجاهل أفريقية وآسيا ، ووفقوا فى زيادة عدد أفراد الاسرة المحمدية زيادة هائلة ... ولكن لهذا البحث كتاب خاص(١) .. وحسبنا أن نشير إلى أن العقيدة الاسلامية لم تركد فى يوم من الأيام ، ولم يصادفها الجمود كما تخيل الكتاب الأجانب ، الذين أشرنا إلى بعض دراستهم من قبل .. كل ما حدث هو أن حركة التاريخ يصادفها المد والجزر . وفى منطقة هائلة مثل المنطقة التى تقيم فيها الأمة الاسلامية ، تطرأ عوامل عسكرية واقتصادية ، فى موضع هنا ، وموضع هناك ، تؤدى الى انكماش أو إتساع . ولا يمكن أن نأخذ حالة بعينها دليل حكم عام شامل .

فمثلا عندما احتل الفرنسيون بلاد المغرب الكبير من تونس إلى مراكش ، أخذت الدعوة الاسلامية طريقها عبر الصحراء إلى وسط أفريقية غربا وشرقا ، فلما انحسر الحكم الفرنسى عن مواقعه الافريقية بقى الاسلام موطدا أقدامه حيث وصل ..

«١» كتابنا عن الدعوة الاسلامية أثناء وبعد الخلافة العثمانية — تحت الطبع

وقبل ذلك بثلاثة قرون وصل الضغط الأوربى على مسلمى الأندلس حتى أنهوا وجودهم فى أسبانيا فى عنف بالغ الشدة ، تشهد به محاكم التفتيش الرهيبة ولكن حدث فى نفس الوقت بالضبط ، إندفاع إسلامى آخر ، قام به العثمانيون الأتراك على شرق أوربا ، فاحتلوا منطقة البلقان ، حتى وصلوا الى أسوار فينا.. فكان التعويض فى شرق أوربا عما حدث فى غرب أوربا .. ولكن بعد مضى أربعة قرون بدأ شرق أوربا بمساعدات خارجية ضخمة ، يسترد سيادته، ولكن بقى الوجود الاسلامى ممثلا فى أكثر من ستين مليونا من المسلمين فى منطقة القوقاز والقرم والبلقان من شواطىء بحر قزوين والبحر الأسود إلى شواطىء الأدرياتيكى.

ومثلما حدث فى أسبانيا حدث فى جنوب روسيا ، وفى البلاد التى تسيطر عليها الشيوعية ، فقد أبيد الاسلام منها أبادة تكاد تكون تامة، وكان آخر المسلمين بعد الحرب العالمية الثانية فى القرم حوالى ٦٠٠ الف،أمر ستالين بنقلهم جميعا إلى سيبريا، حتى لا يكونوا رأس جسر فى جنوب بلاده للحركة الاسلامية فى وقت من الأوقات .

ولقد تنبه الضمير الاسلامى لمأساة الأندلس وعرض لها كثير من الباحثين شرقا وغربا ، ولكن مأساة شرق أوربا وجنوب روسيا ، لم تظفر بعناية تذكر لحجاب الظلام الكثيف الذى أسدله الحكام الشيوعيون على بلادهم من بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى نهاية عصر ستالين فى أوائل الخمسينيات:

ومع ذلك فان خسارة المسلمين فى جنوب أوربا الشرقى، قد عوضت بمكاسب كبيرة فى جنوب آسيا وشرقيها . ولولا حركة غاندى النشيطة القوية الفعالة ، بفتح معابد الهندوس للمنبوذين فى الثلث الأول من هذا القرن،لانضم إلى مسلمى الهند أكثر من مائة مليون من المنبوذين .

ووجود الاسلام فيما يلى الهند إلى المحيط الهادى ، هو وجود قوى نشيط يتسم بالغيرة والصلابة والمحبة . . وربما كانت الملايو ، ثم أندونوسيا من أقوى المعاقل الاسلامية ، ونحن على ثقةمن أن عاطفة الدين سوف تصنع المعجزة المنتظرة وهى تذويب الخلافات السياسية بين البلدين مهما بدا من حدة الأزمةهذه الأيام.

الصين ... والاسلام

فإذا ما وصلنا إلى الصين.. هذا البحر المتلاطم من البشر، الذي يوشك في نهاية هذا القرن أن يزيد تعداده عن ألف مليون نسمة .. إذا ما وصلنا إلى الصين فلا بد من وقفة خاصة بها .

الصين كما نعلم يسيطر عليها الآن الحزب الشيوعي — الذى كافح بزعامة ماوتسى تونج حتى أزال فساد الماضى ، وأحل مكانه حكما نظيفا يقظا واعيا ، مدركا واجباته حيال ماديات الشعب ، وفى ظل هذا النظام الجديد، سوف تصبح المجاعات والأوبئة والفيضانات المدمرة تاريخا يروى . . وسوف يصبح الجهل والتخلف المادى الشنيع من ذكريات ماض كريه ولى . . وسوف يصبح قواد الحروب ، وصنائع الأجانب، والأفيون والتهريب صحائف سود، تصنع من وحيها قصص الرعب .

ولقد تحدث زعماء حزب العمال البريطانى عن مشاهداتهم فى الصين عندما زاروها ، وضربوا مثلا لنجاح الحكم ، أنهم لم يجدوا فى الصين ذبابة واحدة ، بعد انتهاء حملة خاصة وجهت لمكافحة الذباب .. ومعجزة أكبر منها فى نظرى أنه بعد أن سحب الاتحاد السوفياتى خبراءه وعلماءه ، واصل أبناء الصين عملهم حتى تمكنوا من تفجير الذرة ، وإنتاج قنبلتهم الذرية ، وعما قريب (نحن الآن فى عام ١٩٦٦) سوف ينتجون قنبلتهم الهدروجينية ، وبذا أصبحت بلادهم عضوا فى النادى الذرى الذى لم يكن يتسع لأكثر من أربعة اعضاء .

كل هذا يحدث ، ويحدث أيضا أن الصين تحولت إلى دولة قادرة على الأخذ بأيدى كثير من الدول النامية فى أفريقية وآسيا ، بما تقدمه من معونات فنية ومادية ، ودخلت فى سباق النفوذ مع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى وكل ذلك فى غير ضجة أعلام ، ولا دق لطبول الدعاية .

هذا التطور الهائل ، ينسبه الباحثون إلى صرامة التطبيق الشيوعى فى الصين ونحسب أنهم وقعوا فى خدعة الاستطراد والقياس .. فقد حدث تطور مشابه

فى جمهوريات الاتحاد السوفياتى ظهرت نتائجه بعد ربع قرن من قيام الحكم الشيوعى فيها .

ونحسب أن القياس هنا خاطىء جدا . فلا مجال للمقارنة بين الثورتين الصينية والروسية ، على الرغم من وجود ملامح متشابهة تبدو عند النظرة الأولى .

فقد خرجت روسيا من حكم المغول ، منذ خمسة قرون (١٤٨٠م) ووقعت فى براثن حكم ملكى هو إمتداد لحكم الاقطاع فى القرون الوسطى .. وعندما خطط كارل ماركس للثورة الشيوعية قدر أن يكون ابتداؤها فى انجلترا أو المانيا حيث توجد بيئات عمالية قادرة على أن تتأثر بالدعوة الشيوعية .. وفى نفس الوقت استبعد كارل ماركس روسيا من إمكان نجاح الشيوعية فيها لأنها بيئة زراعية شديدة التخلف لا تثمر فيها دعوة من الدعوات !! وخاب تحليل كاهن الشيوعية الأول ، وواضع مذهبها ، إذ أن روسيا شهدت أول حكم يطبق المذهب الماركسى وقد نجح هذا الحكم بعد أن أباد الملايين من معارضيه ، واستمرت حركة المعارضة إلى ما بعد الحرب العالميه الثانية كما ذكرنا .

تأخر شديد .. وعنف أكثر شدة فى بيئة تكاد تكون متحجرة من وطأة التخلف

أما الصين فعلى العكس من روسيا .. فالشعب الصينى يمتاز بأنه من أقدم الشعوب حضارة وأعمقها فكرا وفلسفة ولا يبارى الصين فى عراقة وجودها إلا مصر القديمة . والصين هى البلد الفريد فى العالم التى يقدم فيها الأب لأبنه أو بنته عند الزواج هدية ، هى حكمة من الحكم الخالدة تساعد الأسرة الجديدة على حياة مطمئنة منتجة سعيدة . وهذه الحكمة عندهم أغلى بكثير من ثمين الجواهر ، ومن فاخر الرياش .

وقبل ميلاد المسيح بخمسة قرون ظهر مصلح فى الصين هو كونفشيوس جمع حكمة الصين ، ومبادىء الحياة الانسانية الكريمة كما رآها ، وهى عنده تتلخص فى ثمانية مبادىء [1]

«١» دائرة المعارف البريطانية ، وتاريخ الانسانية لاحمد حسين

١ ـ إذا نظرت بعينيك ، يجب أن ترى بوضوح .

٢ ـ إذا تحدثت ، يجب أن تكون مخلصا فى حديثك .

٣ ـ إذا رأى الناس وجهك ، فيجب أن يبدو دائما وقورا .

٤ ـ إذا عملت ، اتقن عملك .

٥ ـ إذا اتصلت بالآخرين ، فلتكن علاقاتك باعثة على أن يحترموك .

٦ ـ إذا شككت فى أمر ، فاحرص على سؤال الذين يعلمون .

٧ ـ إذا غضبت ففكر فيما يجره عليك غضبك من الصعاب .

٨ ـ إذا لاحت لك المكاسب ، فكر فى أن تكون عادلا مستقيما .

ومن وحى هذا التفكير الهادىء المكين ، صنعت الصين على مر القرون الكثير من وسائل الحياة المتحضرة ... وصف ﻫ . ج . ويلز . الحياة فى الصين خلال القرن الذى ظهر فيه الاسلام ، والقرون التى تلته بقوله (١) أن مدارس الادب العظيمة القيمة ظهرت ، ومنافسات الشعراء العباقرة كانت حديث المجامع والحياة الفنية ، والمهارات العملية كانت تسود جنبات الحياة .. وشربت الصين الشاى ، وصنعت الصين الورق . وبدأت الطباعة بالحفر على الخشب . وعاش ملايين البشر من أهل الصين حياة هادئة وادعة مطمئنة يسودها الامن والدعة . فى الوقت الذى كانت مدن أوربا تعيش فى رعب من غارات الناس بعضهم على بعض . ويعيش ابناؤها وراء الاسوار والحصون . ولا مجال للمقارنة بين ذهن الصين المتفتح . وحياة الضيق والظلام العقلى التى كانت تحياها أوربا

وفى العام الذى انتصر فيه هرقل على الفرس ودمر نينوى (٦٢٧ م) كان يحكم الصين الإمبراطور « تاى تسونج » .. وفى العام التالى ـ وهو السابع الهجرى

« ١ » مختصر تاريخ العالم ص ١٧٤ و ١٧٥ من طبعة بيليكان

استقبل هذا العاهل الصينى ، وفدا مرسلا من نبى الإسلام ، وصل مع قافلة بحرية إلى كانتون ، قطعت الطريق من شواطىء البحر الأحمر ، مساحلة على شواطىء آسيا حتى وصلت إلى وجهتها ، وهى رحلة ربما إستغرقت عاما بوسائل الملاحة فى تلك الأيام .

يقول ويلز : أنه على خلاف ما حدث من هرقل الرومان ، وقباذ الأكاسرة ، فإن عاهل الصين استقبل رسل النبى العربى أحسن استقبال ، واطلع على رسالتهم ، واستمع إلى أحاديثهم ، وأبدى مزيدا من العناية بما جاءوا به ، وأذن لهذا الوفد الإسلامى بأن يقيم فى بلاده ، ويدعو الناس ما شاء إلى دين الإسلام ، وعاونهم على إقامة مسجد يؤدى فيه هذا الوفد ومن تبعه من المسلمين صلاتهم ونسكهم ..

ويضيف ويلز ، إن هذا المسجد ربما كان أول مسجد وأقدم مسجد أقيم فى العالم — خارج الحجاز طبعا —

وفيما نعلم أن هذه الرواية لم ترد فى مرجع عربى من مصادر التاريخ الإسلامى فلم يكن وفد لصاحب الصين من بين قائمة الوفود التى وردت أنباء رحلتها لدعوة الحكام والشعوب إلى الاسلام . ولكن ويلز استقى روايته من مصادر صينية . ومما يعزز صحة هذه الرواية ، أن هرقل ، بعث فى عام ٦٣٥ م وفدا يدعو الصين إلى المسيحية ، وكان تاريخ هذه البعثة فى العام الرابع عشر الهجرى ، أى بعد هزيمة الرومان فى اليرموك وأخلائهم للشام ، وربما بعد وصول رسول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى القسطنطينية يدعو هرقل نفسه إلى الاسلام .

ومن المرجح أن البعثة المسيحية ، وقد أذن لها الامبراطور ببناء كنيسة ، هى التى عادت بالأنباء عن نشاط المسلمين هناك . .

وقد علمنا من بعض إخواننا الصينيين أنهم يفاخرون بأن أول من لبى دعوة الاسلام من غير العرب ، هم أبناء الصين ، وأن أول مسجد بنى خارج المدينة هو مسجد كانتون ، ولدينا ترجمة للبخارى باللغة الصينية .

ومهما يكن الأمر ، فإن ما يعنينا الآن هو ظاهرة العقل المتسع الذى لقيه

رسل الأديان المبعوثين من الشرق الأوسط ، عند وصولهم إلى الصين . فقد وجدوا من حاكم أكـــبر شعوب الأرض،حسن إصغاء ، ومحاولة جادة لتفهم ما جاءوا به . . كما أن الاذن لأصحاب هذه الديانات بأن يبشروا بدينهم ، يبعد عن العقل الصيني خلق التعصب ، ورفض أي جديد يأتيهم لأنه جـــديد . . والشعوب القديمة العريقة ، هي الشعوب التي تكره التطرف . وتعيش بقلب مفتوح . وصدر مفتوح . وهي السمة التي تميز شعب مصر . وتجمعه مع شعب الصين على صعيد واحد .

وإذا كان ثوار الصين اليوم . قد اقتنعوا بالماركسية كأسلوب للحكم . فإن طبيعة هذا الشعب ترفض ــ تماما ــ ما يذكر عنها من أنها « متعصبة » لهذا المذهب . وذلك لأنهم يعتقدون في قرارة أنفسهم أن حكمتهم تأبى الوقوف عنده . ولا تأخذ منه إلا ما يناسب ظروفها .

وفي رأينا . ان الماركسية هي علاج مؤقت . لجأ إليه حكام الصين الحاليون. للتخلص من أمراض العهود الفاسدة . والتدخل الأجنبي ، الذي عكر عليهم مجرى تاريخهم . وان يطول بنا العهد . حتى نرى الصين عادت سيرتها الأولى. وأغلى ما في حياتها « الحكمة » وأثمن ما تتصف به ، هو العقل الراجح . والقلب الذي يتسع لكل دعوة تكرم الانسان . وترفع من شأنه . وتقوي نوازع الفضيلة في سلوكه . وإذا كان دين الاسلام . وهو انسب الأديان لطبيعة الشعب الصيني. لم ينتشر إلا بين حوالي خمسين مليونا من أبنائه (لانعلم الآن عنهم شيئا) . فإن مستقبلا قريبا . سوف يشهد ازدهار الدعوة الاسلامية في هذه البلاد .

اننا نكتب هذا الكلام . وقد طافت بذكراتنا العبارة الحمقاء التي رددها أحد رواد الفضاء الروسي . عندما سئل : إذا كان قد رأى الله في رحلته خارج جاذبية الأرض ؟! . فقال أنه لا إله حيث كان . ولكنه رأى إلاها آخر هو زميله الذي كان معه في رحلته ! ! .

لم يعلم هذا الفتى انه عندما كان يطوف في مساره حول الأرض . وعندما كان زملاؤه الذين لحقوه من الروس . والامريكان يدورون دورتهم . كم من

الدعوات انطلقت متجهة إلى ذات الله ، تبارکت آیاته ، کی یعودوا سالمین إلى الأرض: إن قلوب البشرية كلها تقريبا ، كانت تصلى إلى الله من اجل سلامة هؤلاء الفتيان المغامرين . لسبب بسيط جداً . وهو انهم بشر . . ان كل واحد منهم « إنسان » له أهله . وله أصدقاؤه . وإن خير وديعة أودعها الله لنا هى حياتنا . نحسن التصرف فيها . حتى يستردها بارئها . .

وليقل الملاحدة ما يشاؤون . وليطل الأمد بعنادهم ما يطول . فإنهم لن يضروا الله شيئا . ومهما يكن ما وصلوا إليه . فما أوتوا من العلم إلا قليلا . . وان مؤمنا واحدا . قد يرى بعين بصيرته من آيات خلق الله . وقدرته . مالا يراه هؤلاء وان اجتمعوا قبيلا بعد قبيل .

إن طاقة الانسان المؤمن . على اتيان العجائب لا يحدها حد . . ويكفى أن نتأمل فى ظروف هؤلاء الرسل الذين بعث بهم سيدنا محمد إلى الملوك والحكام فى كل مكان . . لقد تلقى هرقل رسولين : واحداً بعد أن انتصر على الفرس . وحسب أنه أصبح سيد الدنيا وقد رد صليب المسيح إلى مكانه فى القدس ورنت إليه قلوب الملايين اعجابا . . وإذا بعربى ، قادم من أرض الحجاز القفراء الجرداء يطلب الاذن بمقابلته : ويتلو عليه رسالة من نبى ظهر هناك ربما لم يسمع عنه شيئا ، أو سمع عنه أقل من القليل . وإذا بهذا الرسول ينقل إلى أكبر ملوك الأرض فى زهوه ونصره ، ان يسلم ، وإلا وقع عليه إثم من يظلمهم فى ملكه .

إننا نستطيع أن نتخيل هذا الرسول وقد ملأ الايمان قلبه ، فرفع رأسه ، ومد قامته . ولمعت عيناه . ولم يلق بالا إلى العرش والتاج . وإلى الحراس والسلاح وإلى مظاهر المجد والسلطان . فإنه جاء يطلب شيئا أثمن من هذا كله . . جاء يطلب طاعة هرقل نفسه لله ولرسوله .

ومرة ثانية وقف رسول ثان، من قبل عمر بن الخطاب ، أمام هرقل. يدعوه إلى الاسلام ، بعد أن رأى من آيات ربه فى اليرموك وفى دمشق وفى حمص ، ما ذكره بالموقف السابق قبل بضع سنين .

ولا نجد هرقل هنا أمام رسول الخليفة عمر ، هو هرقل فى حياة رسول الله .

أنا نراه يتلطف مع العربي الثاني ، ويبعث به لكي يرى النعمة والجاه الذي يعيش فيه عربي آخر هو جبلة بن الأيهم الذي هرب إلى بلاد الامبراطور في القسطنطينية ، فلا يدهش الرسول ، ولا تهزه مظاهر النعمة والثراء التي أمامه ، ويصر على أن ما فيه هرقل ، وما فيه جبلة . ليس إلا الزخرف الباطل ، وما يدعوهما إليه هو النعيم الباقي ...

كذلك كان ايمان هؤلاء الرسل . رؤوسهم برؤوس الملوك الاباطرة ، بل أعلى شأنا. واعتزازهم بدينهم جعل قلوبهم ارسى من كل القلوب واثبت

هذا هو الايمان الذي تتضاءل بجانبه كل قوى المادة ، ويمد الانسان بطاقة تصغر بجانبها كل طاقة .

وليس هذا من قبيل الغيبيات . ولا الدعوة إلى اهمال التذرع باسباب القوة والمنعة من علم ومعرفة وارتياد لآفاق المجهول فوق سطح الأرض وفي باطنها، وفوق البحر ومن تحته . وفوق السماء وما يليها من أجرام الكواكب .. كل ذلك مطلوب أن يتذرع به الانسان . ولكن يساعد على بلوغه هدفه في أيسر وقت ، أن تمتلىء قلوب الناس إيمانا بالله . الذي يعلم السر وما أخفى .. فيذلل العسير ويقترب البعيد . ولا يداخلنا الوهم . نحن أمة المسلمين — أننا تخلفنا أشواطا كثيرة عن الذين سبقونا في مدارج القوة والمنعة، وإلا كانت الاهداف التي نرتجيها أثقل من الجبال وزنا . وأنأى من النجوم بعدا، وصدق علينا القول الحق : ضعف الطالب والمطلوب .

وما أجمل أن يسير الانسان تحت الثلوج في غواصته الذرية حتى يقف عند القطب الشمالي تماما ومن فوقه الثلوج طباقا ، وأن يهبط على القمر بادواته وآلاته وأن يرسل أقماره الصناعية إلى المريخ والزهرة والمشتري .. ولكن

ولكن أليس كل هذا كشفا لقدرة الله الذي أبدع الكون . وجعل لكل شيء فيه حسابا وقدرا ؟!! انها مجرد معرفة . أو مواصلة معرفة ؟!!

ترى لو أن الانسان أراد أن يحول ظهور الشمس من المشرق إلى المغرب .

أو حاول أن يسيطر على حركة المد والجزر ، فلا يصبح مد ولا جزر . أو حاول أن يمنع هبوب ريح من مسار لها ويحولها إلى مسار آخر .. هل يستطيع بوسائله وعلمه وطاقته ؟!

لقد قال الله إن الروح من أمره ، جعل سرها بعض علمه .. فهل يقوى الماديون على حل لغز الحياة والموت والروح .. من أين وإلى أين ؟!!

أبدا .. ثم تعال الى أحداث الحياة اليومية ، فقد رأينا هذا الرجل الذى اشتعل الحريق فى بيته بأعلى العمارات ، فحمل خزانة ماله وانطلق بها مذعورا إلى الطريق ينجو بها من النار . فلما اجتمع الناس عجبوا من قوة الرجل كيف استطاع أن يحمل هذا الحمل الضخم الثقيل الذى عجز خمسة من الاشداء عن رفعه ولما طلبوا منه أن يكرر ما صنع عجز عن تحريك الخزانة قيد أصبع واحدة ؟!!

من أين جاءته هذه الطاقة المادية الخارقة ؟...

ووصف برنارد شو فى خياله الرائع ، هذا العالم الراجح العقل والتفكير ، الذى أخذ يشرح شئون الحياة لزنجية سوداء .. وما أن صاحت به الفتاة: حاسب.. تمساح ! .. حتى قفز هذا العالم كأنه من قرود الغاب ، وإذا هو فوق شجرة عالية .. ولما ضحكت الفتاة . وأكدت له ألا خطر هناك ، لم يعرف كيف ينزل

من أين جاءته طاقة القفز صاعدا ، وهو الشيخ الوقور .. وكيف لم يستطع أن ينزل من فوق شجرته ؟!!

وتذكر معى جان دارك الفتاة القروية التى امتلأت نفسها ايمانا فاذا هى تقود جيوش بلادها ، وتهزم أعداءها .. إن قدرتها الأولى ، التى فتحت لها هذا الطريق ، هى إقناعها من حولها ، بأنها صاحبة رسالة لا بد من ادائها .. وقد نجحت ... ثم احرقت .. ثم أصبحت قديسة فى العالم المسيحى

وهكذا نفهم لدينا حديث رسول الله عليه السلام ، وهو يعظ على بن أبى طالب ، قال :

« يا علي . ما من عبد إلا وله جواني وبراني . يعني سريرة وعلانية . فمن أصلح جوانيه . أصلح الله برانيه . ومن أفسد جوانيه ، أفسد الله برانيه . وما من أحد إلا وله صيت في أهل السماء . فإذا حسن ، وضع الله ذلك في الأرض . وإذا ساء صيته في السماء . وضع له ذلك في الأرض » [1]

* * *

إنها دعوة إلى أن يعمر الايمان بالله وكتبه ورسله قلوبنا . وأن نتوكل عليه في انطلاقنا . ولن نخذل أبداً مهما بدا لنا من إختلال ميزان القوى . . فأمة محمد ليست طالبة عدوان . ولكن طالبة سلام . وإنها تريد أن تحيا . وتدع غيرها يعيش . محققة عزة الله ورسوله والمؤمنين .

لا إكراه في الدين

وثمت سؤال وجهه بعض الباحثين الأجانب ، من الذين توصلوا إلى أن البعث الإسلامي قريب موعده ، وأن مسيرة هذه الأمة نحو أهدافها الإنسانية الكبرى موشكة أن تستأنف . .

هذا السؤال هو : الأقليات ، ومصيرها ، وماذا سيعمل بها ؟ ... وهم يعنون بطبيعة الحال الأقليات الدينية ، ماداموا يتحدثون عن المسلمين كأمة .

وهذا التفكير يشير بطريقة مباشرة ، إلى النقطة التي قد يعتمد عليها اعداء البعث الاسلامي ، لعرقلة سيره ، واضطراد نموه . . وما كانت الأقليات الدينية

«١» يراجع في ذلك « الجوانية » للدكتور عثمان أمين ، وكتاب الطاقة الإنسانية للأستاذ أحمد حسين، وكتاب قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن للشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي ، وكتاب الله للأستاذ عباس محمود العقاد

فى تاريخ المسلمين كله ، تشكو ظلما يحل بها وحدها ، وإلا كان الحاكمون بهذه التفرقة مجانبين لروح الدعوة ، مغاضبين لسنة رسول الله وخلفائه . .

فأول ما تعلمنا دعوة الاسلام أن نؤمن بما أنزل على سيدنا محمد . وما أنزل من قبله . وقد أمرنا أن ندعو لدين الحق . ولكن لا إكراه فى الدين .. وما على الرسول إلا البلاغ . . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . .

إسمع إلى الأمر الواضح البين فى سورة النحل : « أدْعُ إلى سبيل ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسنة ، وجادلْهُمْ بالتى هى أحْسَنْ . إن ربك هو أعلَمُ بمن ضَلَّ عن سَبيلهِ ، وهو أعلمُ بالمُهتدين »

واسمع إليه مرة أخرى فى سورة العنكبوت : « ولا تجادِلُوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحْسَنْ ، إلا الذين ظَلَموُا مِنْهم . وقولوُا آمَنّا بالذى أُنزِلَ إلينا ، وأُنزِل إليكُمْ ، وإلهُنا وإلهُكُم واحدٌ ، ونحن له مسلمُون »

حتى إذا بلغ جدالهم لك أشده ، فما عليك إلا أن تتذكر أمر ربك فى سورة غافر وتعمل به : « إنَّ الذينَ يُجادِلونَ فى آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطان أتاهمُ ، إنْ فى صُدورِهم إلا كِبْرٌ ما هُم ببَالِغيهِ ، فاستعِذْ باللهِ ، إنهُ هوَ السميعُ البَصير »

حتى هؤلاء الذين يحاولون الإساءة إلى الدعاة — وكلنا دعاة — فقد رسمت سورة «فصِّلت» طريقة التعامل معهم : « ومن أحسنُ قولا ، ممَّنْ دَعَا إلى اللهِ ، وعَمِلَ صَالِحاً ، وقال إننى مِنَ المُسْلمِين . ولا تستوى الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ، إدْفَعْ بالتى هِىَ أحسنُ . فإذا الذى بينك وبينَه عدَاوةٌ كأنهُ وَلِىٌّ حَميمٌ »

ومرة أخرى قال تعالى فى سورة الشورى : « فإنْ أعرَضُوا فما أرسلناك عليهم حَفِيظا . إنْ عليكَ إلاَّ البَلاغ »

أما وهذه أوامر الله تعالى ، فان لب الدعوة الاسلامية سلام واخاء . ليس فيها أكراه ولا عدوان.

ورب سائل يسأل : وماذا تقول فى آيات القتال ، وفى حروب المسلمين فى صدر الاسلام وبعده ؟

وهؤلاء يعلمون الجواب ، إلا أن يكونوا تأثروا بأحقاد الصليبيين .. فقد ظل رسول الله ثلاثة عشر عاما يدعو قومه ويبلغهم رسالات ربه . ويحتمل من أذاهم ما لا يطيقه بشر . حتى لقد بعث بأعوانه فى رحلتين إلى الحبشة فراراً مما صنعه المعاندون . فلما لم يكن بد من إيجاد بيئة أخري غير بيئة قريش التى أعمتها امتيازاتها وأموالها.ووجدت الخطر كل الخظر على ما فى أيديها إن هى سلكت سبيل السلام .. وما أن هاجر رسول الله وأصحابه. حتى حدث عدوان آخر من قريش غير الأذى البدنى . وهو مصادرة أموال المسلمين ومساكنهم . وكل ما خلفوه وراءهم ... وهنا لم يكن بد من التعرض لتجارة قريش، إستيفاء لهذا الحق الذى أهدر ، وربما كانت فى هذه القوافل أموال للذين هاجروا إلى الحبشة أو إلى مكة..

وإذن فقد كانت الحرب دفاعا ، ورداً لعدوان وهو أمر واجب . وقد ظلت دائرة من بدر إلى أحد إلى الأحزاب . حتى إستطاع رسول الله فى العام السادس أن يظفر بهدنة حسبت قريش أنها أملت فيها أقسى ما عندها من شروط . وقد قبلها المسلمون على مضض. ولكن رسول الله كان يدرك أن فترة سلم مع هؤلاء المعاندين الذين لا يلينون، سوف تبلغ بالدعوة أفاقا ما كانت ببالغتها والسيف مرفوع والرمح مشرع والقتال دائر . وفى عامين اثنين كانت دعوة الاسلام قد بلغت أقطار الأرض جميعا . فضلا عن إذعان معظم القبائل العربية لها .. فلما نقضت قريش الهدنة . سار لها رسول الله فى عشرة آلاف محارب . وكان يستطيع إقتحام مكة . ولكنه عمد الى تحطيم روح المقاومة فى قريش بمعسكر من النار أحاط ببطاح مكة . فادرك أهلها معه ألا سبيل للمقاومة . فأستسلموا وعفا عنهم رسول الله . على الرغم من كل ما صنعوه ضده وضد أصحابه .

هذه هى روح الخير والسلام ..

وتسأل : وما شأن الحروب فى فارس والشام .. فنرد عليك بأمر ينبغى أن يكون دائما واضحا فى أذاهننا . وهو أن هذه البلاد لم تكن أرض الفرس ولا الرومان . ولكن كان يسكنها العرب من قديم الزمان من مناذرة وغساسنة وغيرهم .. وكانوا مستعمرين للدول القوية من حولهم ونعنى بهم الفرس والرومان. وما تحرك العرب إلا فى أرض العرب . لإنقاذهم من ظالميهم ..وكما هى العادة فقد أقام المستعمرون حكاما على هذه البلاد يدينون لهم بالولاء ، وهكذا استمر سلطانهم ..وكان لا بد لتحطيم هذا السلطان ، من حرب التحرير التى خاضها العرب .

وفى مصر أيضا . . كان المصريون من القبط يخوضون معركة ضارية ضد الرومان ، وهرب زعماؤهم يختفون فى أطراف الصحراء ، وحمل حاطب بن أبى بلتعة ، ومن قبله تجار قريش مثل عمرو بن العاص ، تقارير لرسول الله عن الظلم الهائل الذى يحل بابناء النيل . وربما كانت هناك اتصالات ، تجرى لم نعلم من أمرها شيئا ، يبررها ، انهما أن ظهر العرب فى الدلتا ، حتى سارعت جموع الشعب المصرى تؤازرهم ضد الرومان. وبذا انهارت الحصون ، واستسلمت الجيوش ، أمام القوة العربية الجسورة فى شجاعتها وايمانها .القليلة فى عددها .. وما اكثر الفظائع التى كشف عنها الفتح العربى ، وهو ينهى الحكم الرومانى عن مصر ، وكيف وجد اعداداً كبيرة من المصريين فى حصن بابليون قطعت أوصالهم ، وسيموا سوء العذاب من اعداء الحرية والانسانية — وهم الرومان —

ورب سائل يسأل : ولكن حروب القرن الأول الهجرى مضت قدما إلى ما وراء مصر، وما وراء سواد العراق؟ .. فما تفسيرها ؟

وتفسيرها واضح. فلو أن المسلمين تركوا فلول اعدائهم تنسحب ، دون أن يدمروها تماما لكرت عليهم مرة ومرة .. ومن هنا كان لا بد من انهاء كل مقاومة عسكرية قد تتحرك من القسطنطينية أو من أواسط آسيا أو من الرومان الذين كانوا يحتلون بلاد المغرب

وعلينا بعد هذا أن نتذكر ، أن المسلمين لم يكرهوا أحدا — إلا الوثنيين — على ترك دينه . وكل ما ألزموا به الكتابين هو أداء ضريبة دفاع تمول بها الجيوش لان الجيوش كانت تعتمد اساسا على المسلمين .. وهى ماسمى بالجزية ..

وعلينا - أيضا - أن نتذكر هذه المناقشة الحادة العنيفة التى دارت بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبين واليه على مصر عمرو بن العاص. فقد حلت مجاعة بالحجاز ، وطلب الخليفة تموينا سريعا من مصر .. فرفض عمرو ، لأن مصر كانت منهكة بعد حرب التحرير ، وقبلها كانت المعركة دائرة بين الرومان والمصريين . فأغلظ الخليفة القول لواليه ، فرد عليه أنه إذا انتزع من المصريين أقواتهم ليمد بها الحجاز ، فلا يكون هناك فرق بين حكم الاسلام، وحكم الرومان.

ولم ينته هذا الحوار الرائع. إلا بعد أن سافر وفد من المصريين وشرح لأمير المؤمنين حال البلاد الاقتصادى . وكيف تعطل الكثير من مرافق الرى فيها . وأنه لابد من مضى بعض الوقت . حتى يعاود الناس حياتهم فى ظل الأمن والاستقرار . وتثمر زراعاتهم وصناعاتهم ما يحول فقرهم إلى رخاء ..

واقتنع عمر بن الخطاب .. فهذه هى روح الاسلام : وهذه حقيقة دعوته: انصاف . وسلام . ورحمة .. كما سترى فى فصول الكتاب التالية .

واذن فلا خوف ، من أن تؤدى يقظة المسلمين إلى حروب دينية . من النوع الذى يتوهمه المرجفون .

أجل لا اكراه فى الدين . .. نقولها مرة أخرى ردا على روح التعصب والعدوان التى ظهرت من بعض الفئات فى سير التاريخ الاسلامى من أيام ظهور الخوارج : حتى أيامنا هذه .

ان جماعة بهذا العدد العديد من مئات الملايين تظهر فيها كل الملل والنحل . ويندس فيها المنحرفون من كل نوع وصنف : حتى احاديث رسول الله لم تنج من وجود منحرفين يزيفونها . وما هم إلا اسرائيليون يكيدون للاسلام كيدا ..

لقد حارب بعض المسلمين ، بعضهم الآخر خمسين سنة كاملة فى بلاد المغرب، لإختلافهم على تفسير كلمة «الأمى» صفة للنبى عليه السلام التى وردت فى القرآن . وكل فريق يدعى أن تفسيره هو الأصوب، وما عداه كفر يجب ان يقاوم بالسيف، وتمكن فريق آخر من انتزاع الحجر الأسود من مكانه ، وحمله إلى شرق الجزيرة

لأن لهم رأيا يخالف رأى الناس ، وظل الحجر الأسود فى غربته عدداً غير قليل من السنين .

بل لقد استحل البعض أن ينسب إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب الكفر ويشرع خنجره ، ويطعنه حتى الموت .. واختلف بعض هؤلاء الخوارج : هل يقتلون من لا يقولون بآرائهم وحدهم ، أم يقتلون معهم أولادهم الصغار !!

إلى هذا الحد بلغ هوس التعصب .. بل لقد وصل بنا الأمر إلى أن نجد من يقول إن كل مسلمى الأرض خرجوا على دين الإسلام ، وأصبحوا من الجاهليين اللهم إلا حفنة قليلة . وأنه لابد من ردعهم ، وردهم إلى حظيرة الاسلام من جديد .

ان نزعات التعصب عمرها قصير . ولن تصلح الجماعة على أساسها . فالدين يسر .. وكل ميسر لما خلق له .. والعبرة بالنوايا ، ولكل امرىء ما نوى .. وحتى رسول الله أمر ألا يكون مسيطراً على الجماعة .

وفى ظل سماحة الاسلام نمت المواهب واتسعت المدارك ، وبنيت الحضارة الزاهرة ، التى دلت على أن الاسلام دين دنيا وآخرة .. دين تعمير وإنشاء .. دين معاملات وعبادات . وما كان يمكن أن يكون الاسلام آخر الأديان ، إلا لأن صدره الرحب يتسع للإنسانية كلها بكل نزعاتها الخيرة المتطلعة المتقدمة فى ركب الحياة .. وإلا جمد ، وجفت أعواده ، وتخلى عنه أنصاره . ومعاذ الله أن يكون أمره كذلك .

كيف إذن نبدأ خطوات البعث الاسلامى الجديد ، ويؤدى كل منا ما عليه ...

فى تقديرنا — والله تعالى أعلم — إن ما رآه السيد محمد إقبال ، هو الأسلوب السليم للعمل .. أن نبدأ بأنفسنا . . أن نوافق على مبدأ « خودى » أو الذات ؛ ونصلح من ذواتنا .. فإذا رعى كل فرد منا الله فيما يرى وما يقول وما يعمل ؛

وتحول من مسلم فقط . إلى مسلم مؤمن . سادت الجماعة روح العزة والأنفة من الخطايا والدنايا .

إن الذين يحسبون أن الحكم هو أساس صلاح الجماعة ينسون القول العظيم : كيفما تكونوا يول عليكم .. فإذا أردنا حكما بأسلوب معين . فى مكان ما . بدأنا بأنفسنا كأفراد شعب . فتخلقنا بخلق الفاضلين .. نبذنا الحقد والحسد . والعدوان على من نستطيع الاعتداء عليه .. ووقر صغيرنا الكبير . وأعان قادرنا غير القادر . ورعى أحدنا جاره . ومنع المسلم أخاه الانسان مما يمنع منه نفسه وماله وعياله .. ولا يكون ذلك تفضلا ولا منا . ولكن حق وواجب . وما من أحد فى البشر يظن أنه كبر حتى يقدر كل شىء .. فالله أكبر . وقدرته فوق كل قدرة .

إن الفرد منا ، إذا كان أمينا مع نفسه ، ومع غيره ، فإنه يؤدى واجبه بغير رقابة ، إلا رقابة العين الى لاتنام ، عين الله تعالى . وإذا بذل جهداً أكبر فى إتمام عمله وإتقانه ، وزيادة إنتاجه ، مد الله له فى طاقته ، وصحته ، ورزقه ، ومحبة الناس له .

هذا كله من خلق الاسلام .

ومن وحيه نستطيع أن نوجد الدعاة ، الذين ينتشرون فى أطراف الأرض ، وينشرون كلمة الله ، حيث يجب أن توجد هذه الكلمة ، ويؤمن بها الناس ..

وما أعظم ما اتجهت له مصر : عندما أضافت ثورتها إلى الأزهر الشريف جامعة الأزهر ، لتتخرج جيلا كامل العلم بالاسلام من العلماء فى كل فرع من فروع المعرفة ، ويكون هدفهم الانتشار فى الأرض وتلبية حاجات الجماعات الانسانية إلى الأمرين معا : شؤون الدين ، وشؤون الدنيا .. شؤون الروح . وشؤون المادة .

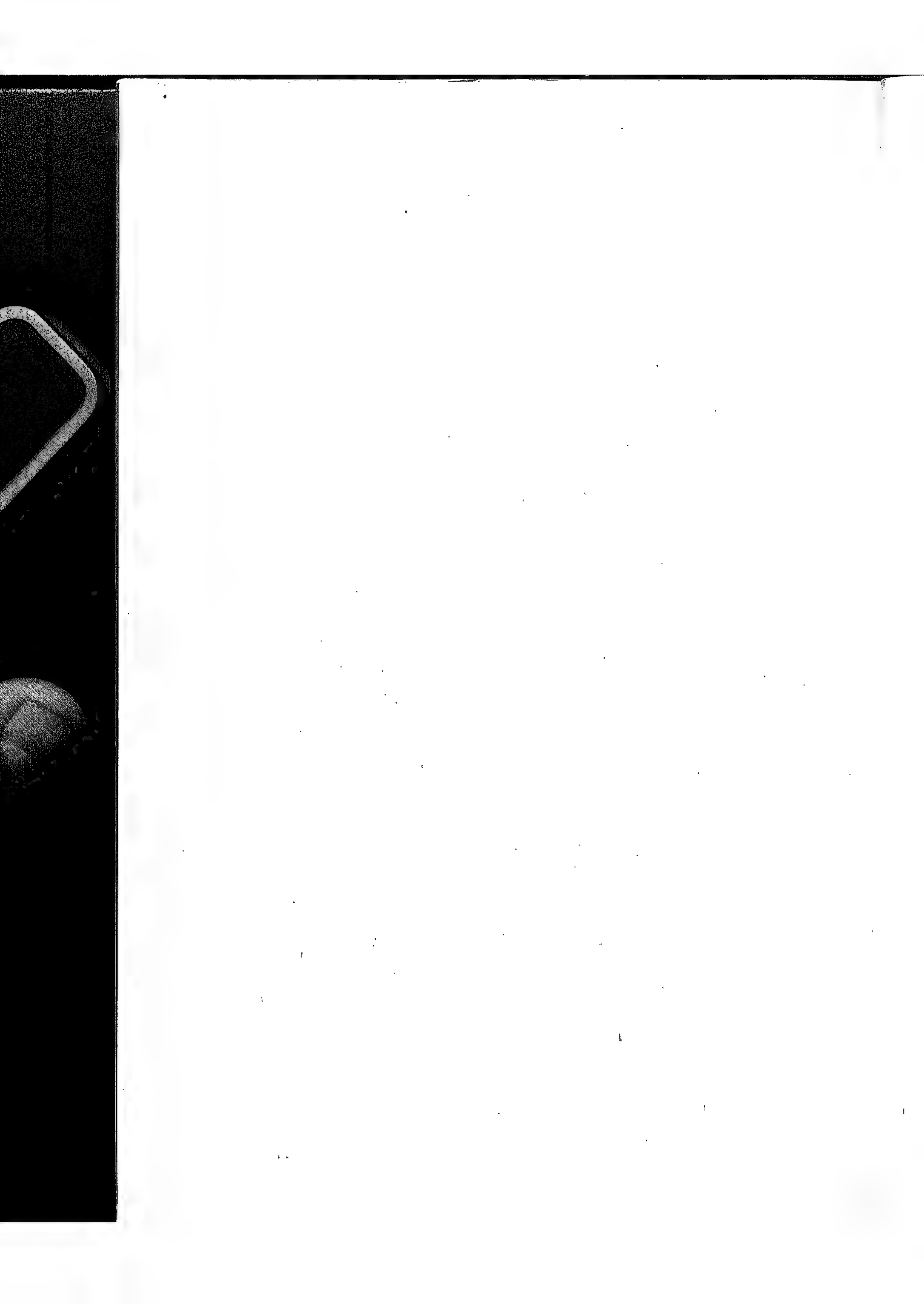
وإنا لنعلم أن فى برنامج « فلسفة الثورة » دائرة ثالثة بعد الدائرتين العربية والافريقية . وهى الدائرة الاسلامية . وقد جاء وقتها . وهناك إحساس عام بأن التمهيد لها وجب الآن .. ولن يكون واجب المرحلة القادمة ملقى على عاتق حكومة من الحكومات الاسلامية . ولكنه ملقى على عاتق الأفراد المؤمنين . . .

إن ما وصل بالاسلام إلى أندونوسيا لم يكن جهد حكومة من الحكومات ولكن جهد أفراد من المؤمنين .. وكذلك الذى وصل بالاسلام إلى أكثر من مئة مليون من الافريقيين فى أقل من قرن من الزمان . هم أفراد وليست حكومات .. أنهم أفراد من المؤمنين .

إننا نريد أن نسلح المسلم بهذا الايمان القديم ، الجديد . والرشد من الله . والتوفيق منه : هو الذى يملك كل شيء ، وليكن عمادنا هو اتصالنا بالعلى الأعلى واستضاءة أرواحنا بأقباس من نوره وهدايته وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ

1. شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
2. وإقام الصلاة
3. وإيتاء الزكاة
4. وصوم رمضان
5. وحج البيت



١ شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

إنها دعوة التوحيد ..

أدركها آدم أبو البشر وآمن بها ، ثم جاء من بعده خلف عاشوا من السنين ، ومرت بهم من أطوار الحياة ، مالا يعلم التاريخ إلا أقله .. حتى يقف بنا عند عصر إبراهيم الخليل

نشأ ابراهيم فى مدينة « أور » بجنوب العراق ، وكان أبوه صانع تماثيل ، على النحو الذى كانت تصنع به آلهة الأشوريين . ورأى الابن فى صباه الباكر ، أن هذا التمثال ما هو إلا قطعة حجر ، لا تختلف عنها قطع الأحجار التى تملأ الأرض ، ولا يضيف إليها حياة أو ادراكا، أن ينحت لها أنف أو فم او عينان او اذنان او يضاف إليها ذراعان او ساقان .. انها قبل ذلك كانت جمادا ، وبعد ذلك فهى أيضا جماد .

ودفعت النفس المتطلعة ، والعقل القلق إبراهيم إلى ان يبحث ويتامل ويحاول ان يتعلم، وفى هجرات متعاقبة لقومه إلى فلسطين والشام ومصر، رأى إبراهيم كثيراً، وسمع كثيراً، وفاضت نفسه بالمعرفة ، والإدراك السليم ،والرشد، العظيم

وقد روى القرآن الكريم فى آيات كثيرة،كيف اهتدى إبراهيم إلى سر الكون وهو ان خالقا ، ابدعه وكونه .. فى عشرات السور ، تجد قصة نبى التوحيد ، مروية .. فى سور البقرة ، وآل عمران، والانعام .. فى سور إبراهيم، ومريم، والصافات ، والحج ، والذاريات .. وغيرها كثير .

فى سورة الأنعام :

وإذْ قَالَ إبراهيمُ لِأبيهِ آزَر ، أَتتخذُ أصناماً آلِهةً ، إنى أراكَ

وقومَكَ فى ضلالٍ مُبين. وكذلكَ نُرى إبراهيمَ ملكوتَ السماوات والأرض وليكونَ من الموقنينَ. فلما جنّ عليه الليلُ رأى كوكباً قالَ هذا ربى، فلما أفلَ، قال لا أحبُّ الآفلينَ. فلمّا رأى القمرَ بازغاً، قالَ هذا ربى، فلمّا أفلَ قال لئن لم يهدِني ربى، لأكونَنّ منَ القومِ الضالّينَ، فلمّا رأى الشمسَ بازغة قالَ هذا ربى، هذا أكبرُ فلمّا أفلَت، قال يا قوم: إنى برىءٌ مما تشركونَ. إنى وجّهتُ وجهِىَ للذى فطرَ السماواتِ والأرضَ حنيفاً. وما أنا من المشركين. وحاجّهُ قومُهُ، قال: أتحاجّونى فى اللهِ، وقد هدانى ولا أخافُ ما تشركون بهِ، إلا أن يشاءَ ربى شيئاً، وسع ربى كلَّ شىءٍ علماً، أفلا تتذكّرُون. وكيفَ أخافُ ما أشركتمُ. ولا تخافُونَ أنكم أشركتُم باللهِ مالمْ يُنزل به عليكمْ سُلطاناً، فأىُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتمْ تعلمونَ. الذين آمنوُا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ، أولئكَ لهمُ الأمنُ وهم مُهتدون. وتلكَ حُجّتُنا آتيناهَا إبراهيمَ على قومِهِ، نرفعُ درجاتٍ منْ نشاء، إن ربّكَ حكيمٌ عليمٌ».

كان ذلك حوار إبراهيم مع نفسه، وتأثير ظواهر الطبيعة من حوله على فكره . . . ولقد دار حوار ابراهيم مع قومه، وأخذ صورة عملية هى تحطيم الأصنام فى سخرية بالغة، ومحاولتهم عقابه على ما فعل . . إسمع ما ورد فى سورة الأنبياء :

« ولقد آتينا ابراهيمَ رُشدَهُ من قبلُ، وكُنّا به عالمينَ. إذْ قال لأبيهِ : ما هذهِ التماثيلُ التى أنتمْ لها عاكفُونَ، قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلالٍ مُبينٍ. قالوا أجئتنا بالحقّ أم أنتَ منَ اللاعبينَ. قال بل ربُّكم ربُّ السماواتِ والأرضِ الذى فطرهُنّ، وأنا على ذلكمْ منَ الشاهدينَ. وتاللهِ لأكيدَنّ

أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ماهؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ، مالا ينفعكم شيئاً، ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين »

وتتابع حوار إبراهيم مع الناس من قومه وغيرهم ، وقد لقي في رحلاته واحداً من الملوك ، ودار بينهما حديث شائق ، يدل على عظيم إيمانه بقدرة الله ، وقد صورت سورة البقرة هذا الحوار في بيان رائع قالت :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لايهدى القوم الظالمين » .

وفى نفس السورة — البقرة — ترى إبراهيم لا يكتفى بحوار ابراهيم وحوار قومه ، والرحيل إلى القرى ، وإلى الملوك يبلغها حجته ، بل نراه يصعد بالحوار إلى الله تعالى ، فيناجيه ويتلقى وحيه بالجواب ، بعد أن أصبح خليل الرحمن . إسمع ما قال :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن

إليكَ (١) ثمّ اجعَل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءاً ، ثم ادعُهنّ يأتينكَ سعياً، واعلم أنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ)

هكذا ابتدأ دين التوحيد فيما نعلم بعد المرحلة التالية لوجود البشرية على الأرض ، بوجود آدم فيها،وخلفائه الذين ورد ذكرهم فى الكتب المنزلة ..

وقد انحصرت ديانة التوحيد بعد ذلك فى خلفه من ولد اسحق ، وهم بنو إسرائيل ؛ وفى خلفه من ولد إسماعيل ابنه من هاجر المصرية .. أما شعبة بنى إسرائيل ، وهم اليهود فلم تبلغ دعوة التوحيد ، لأنها لا ترى أن لغيرها من الناس صلة بها،فقد كانت دعوة مقفلة عليهم بعد أن اخفق كل من دعاهم لكى يكونوا شعبا مختارا ، ومثلا للناس فى الصلاح والتقوى ..

ولقد حصرت الوصية التاسعة والعاشرة من وصايا سيدنا موسى لهم ، أمانة التعامل، فى اقاربهم ، مما دعا اليهود إلى الا يلتزموا بهذه الأمانة مع غيرهم من الناس (٢).

ثم ظهر فى بنى إسرائيل سيدنا عيسى عليه السلام ، محاولا أن يخلص قلوب اليهود مما ركب فيها من عناد وأحقاد .. وكانت دعوته بينهم ثلاثة اعوام ، وكما صنع اليهود مع انبياء كثيرين سبقوا،حاولوا ان يقضوا على صاحب هذه الدعوة.

---

(١) كلمة نبطية معناها قطعهن ، وهو بعض ما ورد فى تفسير الطبرى .

(٢) نص الوصايا العشر: ١ — انا الرب إلهك الذى اخرجك من ارض مصر من دار العبودية ، فلا يكن لك آلهة اخرى تجاهى ٢ — لا تصنع لك منحوتا ولا صورة شىء مما فى السماء من فوق ، ولا مما فى الأرض من اسفل ، ولا مما فى المياه من تحت الأرض ٣ — لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يزكى من يحلف باسمه باطلا ٤ — اذكر يوم السبت لتقدسه ٥ — أكرم اباك وامك ، لكى يطول عمرك على الأرض التى يعطيك الرب الهك ٦ — لا تقتل ٧ — لا تزن ٨ — لا تسرق ٩ — لا تشهد على قريبك شهادة الزور ١٠ — لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا امته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك .

التى تعتمد على المحبة. ولو لم يهرب عدد من تلاميذ المسيح فرارا بدينهم من الظلم والاضطهاد ، لما انتشرت المسيحية فى ارجاء كثيرة من الأرض .

وكان اليهود ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم اصحاب دعوة التوحيد ، وانها لهم دون غيرهم من الناس . وأما من عداهم من الناس .ومن عداهم من الأمم ، او الأميين ، فليسوا من اهل الكتاب ..

ولما أراد الله لدعوة التوحيد ان تعم الناس ، وتخرج من نطاقها المحدود الذى عاشت فيه بينهم من ايام إبراهيم الخليل، اظهر فى نسل ابراهيم من ولده إسماعيل نبيا هو سيدنا محمد عليه السلام ، لكى يخرج بالدعوة إلى نطاق الدنيا بأسرها ويبشر بها الانسانية قاطبة فى كل زمان ومكان .

ولقد سبق فى علم الله ما سيكون، فوجه إبراهيم وابنه اسماعيل مع أمه هاجر إلى موقع مكة ، وهناك حدث الاختبار العظيم ، لإيمان خليل الرحمن بان جاءه فى الرؤيا ان يذبح ابنه .فلما ثبت للاختبار،وهم بان ينفذ امر ربه ناداه العلى العظيم :

« قد صَدَّقتَ الرُّؤيا ، إنّا كذلكَ نجزِى المحسنينَ . إنَّ هذا لهُوَ البلاءُ المبينُ . وَفدَيناهُ بذِبحٍ عظيمٍ . وَتركنا عَليهِ فى الآخرينَ . سلام على إبراهيمَ . كذلكَ نَجزِى المحسنينَ . إنه من عبادِنا المؤمنينَ »

كم مضى من الزمن ، منذ جاء ابراهيم إلى مكة ، وأقام فيها بيت الله الحرام مع إسماعيل ؟

إنها خمسة وعشرون قرنا من الزمان على ارجح الأقوال ، هى الفترة التى مضت منذ هدم إبراهيم أصنام قومه فى بيت عبادتها ، حتى بعث رسول الله ، وهدم أيضا أصنام العرب جميعا ، ومنها اصنام جاءت من بلاد الإغريق ، ومن مصر ، ومن غيرها... بل أن هناك من يذهب إلى أن «هبل» ما هو إلا «أبولو» الأغريقى والعزى ، هى « إيزيس » المصرية (١)

---

(١) اقرأ بحثا مفصلا عن أصنام قريش والعرب فى كتابنا نور الله — ص ٣٣ وما بعدها

أنها فترة طويلة ، فى حسابنا ونحن نؤرخ رحلة التوحيد المعروفة لنا ، من أيام إبراهيم الخليل، إلى بعث محمد بن عبد الله عليه السلام ، ولكن هذه الرحلة فى حساب يقظة الضمير البشرى ، واستكمال نموه، ليست شيئاً طويلا.

والذين نعرفهم ، ونعرف تحركاتهم قبل سيدنا محمد نجد منهم أربعة زاروا مصر . أو ولدوا فيها ، وأقاموا على ضفاف النيل مددا مختلفة ، وهم إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام .

وقد تركوا من معانى التوحيد أثاراً ظهرت فى دعوة أخناتون ، ولكنها لم تكن واضحة المعالم قاطعة فى أن الاله واحد ، لا يعبد الناس أحداً سواه .

وكما جعل موسى التوحيد أساسا فى وصاياه ، كذلك بدأت دعوة الإسلام بهذه الشهادة ، فقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، بنى الإسلام على خمس :

١ ـــ شهادة ألا إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

٢ ـــ وإقام الصلاة .

٣ ـــ وإيتاء الزكاة .

٤ ـــ وحج البيت .

٥ ـــ وصوم رمضان .

وقد جعل الإسلام التوحيد . وفريضتين من هذه الفرائض عاصمة للمسلمين : دماؤهم وأموالهم . . . روى البخارى ومسلم أيضاً عن سيدنا محمد عليه السلام أنه قال :

« أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا ألا إله إلا الله،وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الله تعالى » .

وفى أحاديث رسول الله ، حض على الايمان بالله الواحد الأحد ، إيمانا ،

لايخالجه شك ولا ريب . وجعله قوام الحياة فى هذه الدنيا ، ومنه تستمد قواعد السلوك التى تقوم على أساسها جماعة متحضرة متطلعة إلى حياة أكرم فى الدارين .

اسمع إليه عليه السلام يقول :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم جاره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

وهكذا لم يعد يكفى أن نقر بأن الله واحد لا شريك له . ولكن هذا الايمان يغذى الحياة ويجعلها كالشجرة المورقة المثمرة التى تظل وتطرح الخير .

إنك لاتؤمن بالله الواحد . إذا لم تتق هذا الإله فى سرك وجهرك .. واسمع إلى خاتم أنبياء التوحيد يقول . « إتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالق الناس بخلق حسن » :

أو اسمع إليه عليه السلام يقول :

« احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فأسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله . وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

ومن جوامع كلمه عليه السلام فى دلالة الايمان بالله أن سائلا سأله : يارسول الله : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال عليه السلام : « قل آمنت بالله . ثم استقم » .

وما أكثر آيات القرآن الكريم التى جعلت التوحيد أساس الحياة . وأن يكون توحيدا مؤمنا خالصا من كل شائبة .

إن معركة الاسلام الكبرى فى حياة سيدنا محمد . منذ بعث حتى قبض إلى الرفيق الاعلى . هى تثبيت كلمة التوحيد . والإيمان بالذات الألهية أساس الحياة كلها ومرجع كل نسمة نتنسمها وكل حركة نتحركها منه نصدر ، وإليه المصير .

وما أعظم القوة التى بثها هذا الايمان بالله فى نفوس أصحابه.. إنها قوة كانت تزن الدنيا كلها ، بل لقد وضعت كل القبائل ، وكل الشعوب ، بما تملك من طاقة التحدى فى كفة ، وإيمان هؤلاء الأصحاب بربهم الواحد القهار فى كفة ، فرجحت كفة المؤمنين وملأ نور الله وتوحيده مشارق الأرض ومغاربها .

وإنك لا تكاد تجد الله تعالى فى قلبك ، حتى تجد خطاك فى دنياك سارت فى طريق مشمر نافع لك وللناس؛ وهذا الطريق ينتهى حتما بالحياة الآخرة، بالبعث والحساب ؛ وما وعد الله عباده من جنة ونار .

آيات القرآن الكريم التى اقترن فيها الإيمان بالله،مع الإيمان بالآخرة كثيرة لا تحصى .. افتح سورة البقرة ، تجدها بدأت بالحديث عن المتقين :

(والذينَ يُؤمنونَ بالغيبِ ،وَيُقيمونَ الصَّلاةَ،وَمِمَّا رَزَقناهم يُنفقونَ ، وَالذينَ يُؤمنونَ بما أنزِلَ إليكَ ، وَمَا أنزِلَ مِنْ قبلكَ وبالآخرةِ هُم يُوقِنُونَ)

وتمضى الآيات بعد ذلك تتحدث عن الإيمان بالله وباليوم الآخر ، حديثا فيه من التلازم ، ما يجعل التسليم بالبعث هو تمام التسليم بوحدانية الله .

ويرى العقاد(١) أن الكتب الاسرائيلية خلت من ذكر الحياة الثانية يقول: وأول إشارة ليوم كيوم البعث وردت فى الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب اشعيا الذى عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد... وجاءت إشارة أخرى إلى يوم البعث والدينونة فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب دانيال ، وهى أصرح من الإشارات فى الكتب السابقة حيث يقول « إن كثيرين من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون:هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى»(٢) ويرجع تاريخ هذه النبوءة إلى حوالى سنة ١٦٥ قبل ميلاد المسيح.

١ـ كتاب الله ص ٣٣٢ الطبعة الثانية لعباس محمود العقاد

٢ ـ لا يحسب كتاب دانيال فى كثير من نسخ التوراه بين كتب العهد القديم

أما السيد المسيح فكان من معجزاته أنه أعاد الحياة لبعض الموتى ؛ وبهذا قدم دليلا عمليا ، على أن الروح باقية وخالدة ...

فلما جاء الاسلام ، جعل فكرة الإله الواحد الأحد ، واضحة وضوحا يشمل دفتي القرآن من أول سورة فيه ، إلى آخر سورة. وجعل إفتتاح كل سورة، باسم الله ، وفصل صفاته تعالى ، فله الأسماء الحسنى ، التى تجمع الكمال المطلق في كل ما يخطر على الذهن من صفات . فسبحانه يبدأ الخلق ، ثم يعيده، وفي سورة النساء « الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه» . وفى سورة النحل: « إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة». وفى سورة البقرة: « فقال لله موتوا ثم أحياهم » وفى سورة يونس : « قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون » . وفى سورة الروم : « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »

لقد كانت دعوة التوحيد ، مع الايمان بالبعث مثار جدال نرى ذكره فى سورة الجاثية : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ، ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يظنون »

ونرى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وبملائكته ، وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، يصل المخلوق بالخالق ، فى صورة نور يملأ أقطار النفس ، ويضيء لها سبل الحياة .

إسمع اليه تعالى يقول فى سورة الأعراف :

(فالذينَ آمنوُا بِهِ وَعزّرُوهُ (١) وَنصرُوهُ ، وَاتبعُوا النورَ الذِى أنزِلَ مَعهُ ، أولئكَ همُ المفلحُون)

فالنور هنا هو كلام الله ودعوة الاسلام .. و« الله نور السماوات والأرض» « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب » .. و « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ».. و«الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم»

(١) فى تفسير الطبرى عزروه أى حموه من الناس وسددوا أمره

(ويأبى الله إلا ان يتم نوره ، ولو كره الكافرون) . . (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)

ونور الإيمان ، هو غير النور الذى ترى به العين الأشياء والأحياء . . (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) .. وهؤلاء الضالون ، الذين لانور لهم (مَثلهُم كمثلِ الذين اسْتوقَدَ ناراً ، فلمَّا أضاءت مَاحولهُ ، ذَهب اللهُ بنورِهم ، وتركهُم فى ظُلماتٍ لايُبصرُون . صم بكمٌ عمىٌ فهُم لايَرجِعُون) .

وقد فصلنا فى كتابنا « نور الله » ما صنعته دعوة التوحيد فى مجتمع العرب الذى ظهرت فيه ، ثم فى المجتمعات التى وصلتها . . فان من سمات الإيمان بإله واحد أحد ، أنه جعل فى الأرض خليفة له هو الإنسان ، وكرمه أعظم تكريم عندما أمر ملائكته ، وهى المخلوقات النورانية التى تصدع بأمره وتسبح له ، ان تسجد لهذا الإنسان .

هذا هو تقدير الإسلام ، خاتم الأديان ، وداعية التوحيد الأكبر لكل فرد حى يعيش على ظهر هذا الكوكب .

« . . . (١) كانت كلمته الأولى ، ان الله واحد . وكان هذا القول غريباً فى مجتمع يكسب الأموال الطائلة . من تعدد الالهة ، وتعدد العبادات ، وأن مكة ، والكعبة ، مزار الناس كافة ، وفيها نصبت رموز العبادة من كل لون ونوع ، وراجت عروض التجارة . التى يبتغيها الحجيج القادمون من أطراف شبه الجزيرة وأدناها . . فإذا كان الإله واحداً ، فقد يقبله البعض ، ويرفضه البعض ، وبهذا تزول صفة الكعبة ، كمكان مقدس بالنسبة لكل من أحس بمجاعة روحية ، وجاء يطوف ويقدم الهدى ، فى المكان الذى أقام فيه إبراهيم وإسماعيل البيت العتيق .

والعرب تعرف القصيدة من الشعر ، وتغرم بها ، وتتغنى بأبياتها مدحاً وهجاء ، وفخراً ووصفاً ، إلى آخر هذه الأغراض ، التى تناولها الشعر الجاهلى .. وجاء

« ١ » كتاب نور الله للمؤلف ص ١٠٦ وما بعدها

سيدنا محمد بجديد من القول ، هو « القرآن » ، ليس شعراً ، وليس نثراً ، وفيه من المعانى ، مالم يعرفه العرب ، ولا العجم . فقاومه فصحاء شبه الجزيرة ، لأنهم عجزوا عن محاكاته ، ولأن الناس كانت تغرم بما تسمع من القرآن ، وتذعن له ، وتردد آياته عن ظهر قلب ، حتى لقد أسموا النبي ساحراً ، فإن ما صنعه القرآن بعقول الناس ووجدانهم ، لم تصنعه من قبل معلقة شاعر مشهور ، ولا خطبة خطيب من أصحاب الفصاحة .

والنظام الإجتماعي يقوم فى قريش ، وبين العرب ، على تمييز صاحب الثروة ، وعلى تمييز اللون والجنس ، وعلى ان الناس نوعان : سيد له كل شيء ، ومسود لا شيء له من ماديات الحياة ومعنوياتها . . فإذا بالدعوة المحمدية ، تأتيهم بجديد ينكرونه أعظم إنكار ، وهى ان الناس سواء ، وان العربى لا يفضل العجمى ، والسيد لا يفضل العبد ، إلا بشيء واحد .. هوالتقوى .. وان الأسود والأصفر يساويان الأبيض متى تساوت أعمالهم .

وكان سباق الشهرة ، يجرى أعلى أسس العصبية والفروسية والقدرة على الإغارة والنهب ، والمهارة فى الشراء والبيع ، والتفاخر بالآباء والأجداد . . فإذا بهذا الدين الجديد صاحب دعوة التوحيد يدعو إلى سباق من نوع آخر : سباق إلى الخير والحب والرحمة .. وتكريم للإنسان ، كل إنسان ، لأنه خليفة الله فى أرضه ولهذا نهضت مثل الحياة القديمة المألوفة تتصدى لهذه المبادىء الجديدة وتتحداها .

واسمى رسول الله الدين الجديد الإسلام ، وبه نزلت آيات القرآن الكريم . وتلخص الاية الكريمة معنى الإسلام كما بدأ فى أول الدعوة :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاما » (الفرقان ٦٣) .

فقد انقسم الناس فى هذه الآية إلى فريقين ، الجاهلين والمدركين .

وتحدث القرآن الكريم فى آيات كثيرة عن هؤلاء الجاهلين .. سواء أكانوا من العرب ، أم من غيرهم من الذين عاندوا دعوات السماء فقال تعالى :

(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين) (البقرة ٦٧) .

وقال . (... ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين) (الأنعام ٣٤) .

وقال : (خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين) (الأعراف ١٩٩) .

وقال : (... إنى أعظك ان تكون من الجاهلين) (هود ١٦):

وقال : (قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن اصب إليهن واكن من الجاهلين) (يوسف ٣٣) .

وقال : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا اعمالنا ، ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) (القصص ٥٥) .

وقال : (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ...) (الأحزاب ٣٣) .

وقال : (قل افغير الله تأمرونى اعبد ايها الجاهلون) (الزمر ٦٤) .

وربما كانت سورة الفتح ، التى عرضت لانتصارات الإسلام ، بعد طول كفاح ، تعبر تعبيراً واضحاً ، عن طبيعة المعركة ، التى دارت فى ارض شبه الجزيرة . تقول الآية (٢٦) .

(إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها واهلها ، وكان الله بكل شىء عليما) .

وإذن فقد كانت طبيعة الجاهلية ، وحميتها مما واجهت دعوات السماء جميعاً ، وكان لابد من اخذها ، حينا بالأناة والصبر عليها ، وحينا بالشدة والردع .

* * *

وهنا نأتى الى القسم الثانى من أول القواعد التى بنى عليها الاسلام ، ونعنى بها شهادة أن محمداً رسول الله .

فواضح أنه لا إيمان بالرسالة،إلا ويتمها الإيمان بالرسول الذى بلغ كلمات ربه

وقد كتب الكتاب فى الشرق مجلدات كثيرة عن النبى الإنسان ، الذى أتم بدعوته كلمة الله للبشر . وكانت دعوته هى الإسلام ، ينظم علاقة الفرد بربه ، وبأخيه الإنسان ، وبالجماعة الانسانية كلها .

كان رسول الله فى قوله وعمله ، المثل الذى يحتذيه المسلمون ، وما من خلق أو تصرف دعا له الإسلام ، إلا حققه سيدنا محمد بنفسه ، حتى لا تشمل دعوته مبادىء غير قابلة للتطبيق . وبهذا كان الانسان الكامل ، الصادق ، الأمين مع ربه والبشرية كلها .

حطم الإسلام أثقال القديم ، التى كانت تعوق سير البشرية ، متكاتفة متآخية ، وأطلق نسائم من التآلف والمحبة بين الناس .. حتى التحية ، مهما كان مصدرها ، يرى الإسلام أن ترد بأحسن منها أو بمثلها . . حتى البيوت ، رأى الإسلام الإستئذان قبل دخولها .. حتى الزينة فى غير تبرج ، وافق الإسلام ، على أن يأخذ الناس نصيبهم منها .

وظهر الإسلام ، ديناً واضحاً تضىء تعاليمه ما حوله..صريحا لا يعرف الهمس ولا الدس .. نظيفا يحب الجمال فى الفكر والروح ، فى الإنسان والطبيعة . .

ظهر الإسلام ، دين شهامة ونجدة ومروءة .. يمد يده للضعيف والمحتاج يشجع البذل والسخاء ، ويكره الإسراف والتقتير على السواء ، ويرى فى المال أنه مال الله ، يعطيه للناس لينفقوه ، لا ليكنزوه . . وبهذا لا تطول اعناق على اعناق ، ويتساوى ابناء آدم ، وبنات حواء فى مراكزهم الاجتماعية اويتقاربون

ومن هنا بدأت المعركة ، بين سيدنا محمد عليه السلام،وقومه: يقول (١) احمد

(١) فجر الإسلام ص ٩١ .

امين : « إنما هو نزاع بين عقليتين ، عقلية وثنية تباح فيها اللذائذ ، وتمنح فيها الحرية إلى حد بعيد ، وتقدر فيها الأخلاق تقديرا خاصاً . وعقلية اخرى موحدة ، تداس فيها الأصنام دوسا ، وتمتهن بكل أنواع الإمتهان ، وتكسر فى غير هوادة ، ولا تباح فيها اللذائذ إلا بمقدار ، وتدفع فيها الضرائب ليصرف منها للفقراء وللصالح العام ، وتقيد فيها الحرية بجملة قيود ، عبادات فى أوقات خاصة ، واحترام ملكية (فى حدود) ، وإحترام نفوس ، وتقلب فيها قيمة الأخلاق قلباً ، فالإنتقام ، والأخذ بالثأر لم يعد خير الخصال » .

إن تنظيم الحياة الروحية ، هو لب الدعوة الإسلامية ، والعبادات طريق إلى الحياة الروحية السليمة ..

والمعاملات تتناول الحياة المادية للناس ، وترتقى بهذه العلاقات التى كثيراً ما أفسدت على الجماعة أمرها .

وقد تعودنا ، أن نقسم الدعوة الإسلامية قسمين : عبادة ، ومعاملة ، وقلنا إن الدين المعاملة .

ولكننا نضيف أن قواعد السلوك التى سار عليها رسول الله ، هى من أهم خصائص الإسلام ؛ وهى التى تجعل من الانسان المسلم ، إنساناً راقياً ، على قدر كبير ؛ من التشبع بروح الحضارة ، والاستعداد للمزيد منها .

يقول الدكتور عمر فروخ (1) :

« الإسلام يفرق بين الدين ، وبين الأخلاق ؛ إن الصدق ، وطاعة الوالدين والإحسان إلى المحتاجين ، وترك إيذاء الناس ، والنظافة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والعدل فى الرعية ؛ أمور تلحق فى الاسلام بالتعبد ، بل هى فوق التعبد العادى أحيانا . فإن معصية الأبوين كالشرك بالله تدخل النار . وطاعة الأبوين فرض على الأولاد » ..

---

(1) « تاريخ الفكر العربى » للدكتور عمر فروخ ، ص ١١٨

وقد تضمن القرآن الكريم ، الكثير من قواعد السلوك ؛ على هذا المستوى الذي يجعل من الإنسان (إنساناً) فى كل زمان ومكان . . ولكن سنة رسول الله أحاطت بهذه القواعد إحاطة تامة إذ عنى مؤرخو حياة الرسول ، والمدققون من جامعى أحاديثه ، بعرض تفاصيل حياته اليومية ، فإذا هى حياة مشرقة ، بكل ما ترقى إليه النفس البشرية من تطلع إلى الصفاء ، والسلام مع الله والناس ، والرغبة فى الجهاد لمنع الشر ، من غير حقد ، ولا رغبة فى الإيذاء .

إننا نستطيع أن نطل من نوافذ كثيرة ، فتحتها سيرة الرسول على قواعد السلوك . من ذلك (١) أنه كان إذا دخل على اهله ، ربما يسأل : هل عندكم طعام ؟ وما عاب طعاما قط ، بل كان إذا اشتهاه أكله ، وإن كره تركه وسكت . . . وكان يمدح الطعام أحيانا ، كقوله لما سأل أهله عن الأدام فقالوا : ما عندنا إلا خل ؛ فجعل يأكل منه ، ويقول : (نعم الأدام الخل) وليس فى هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق ، وإنما هو مدح له فى تلك الحال التى حضر فيها ، ولو حضر لحم أو لبن ، كان أولى بالمدح منه ، وقال هذا تطييباً لقلب من قدمه .

وكان عليه السلام إذا دعى لطعام وتبعه أحد ، أعلم به رب المنزل . وقال : (إن هذا تبعنا ، فإن شئت تأذن له ، وإن شئت رجع) . . وكان إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم ، ومن دعائه : (اللهم بارك لهم فيما رزقتهم ، واغفر لهم وارحمهم) . . وقال مرة لمن سقاه لبنا : (اللهم أمتعه بشبابه . .) .

وكان عليه السلام لا يأنف من الإشتراك فى طعام مع أحد ، صغيراً كان أو كبيراً ، حراً أو عبداً ، أعرابيا أو مهاجرا .

---

(١) بإيجاز من كتاب « زاد المعاد فى هدى خير العباد » . للأمام ابن القيم شمس الدين بن عبد الله .

وفى الصحيحين: إن افضل الإسلام وخيره ، إطعام الطعام، وأن تقرأ السلام على من عرفت ، وعلى من لم تعرف .

ومن آداب الإسلام فى صحيح البخارى وغيره : تسليم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والراكب على الماشى ، والقليل على الكثير .

حتى المسجد تجب له تحية الدخول فيه ، وهى صلاة ركعتين ، ثم يأتى دور السلام على أهل المسجد .

وذكر مسلم أن رسول الله ،كان إذا دخل على أهله بالليل ، يسلم تسليما ، لا يوقظ النائم ، ويسمع اليقظان .

وكان رسول الله يكره للمسافر وحده أن يسافر بالليل ، فقال:«لو يعلم الناس ما فى الوحدة ، ما سار أحد وحده بليل» .

وإذا غضب الإنسان ، واشتد به الغضب، امره صلى الله عليه وسلم ان يطفىء عنه جمرة الغضب بالوضوء ، والقعود إن كان قائما ، والإضطجاع إن كان قاعداً والإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

ومن آداب الرسول ، ألا يقول السيد لغلامه وجاريته ، عبدى ، وأمتى ، وليقل السيد ، فتاى ، وفتاتى . ويقول الغلام سيدى وسيدتى ، وكان إذا خلا فى بيته ، كان ألين الناس، بساما ضحاكا. وما ناداه أحد من أصحابه إلا قال: لبيك[1]

وهكذا تتوالى قواعد للسلوك، وتوضع لحسن الجوار قواعد فيها من الألفة والمرحمة ، حتى حسب البعض أن رسول الله يوشك أن يورث الجار ، دون الأهل والأقارب .

قال رسول الله :

.. والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن .

---

١ ـ المواهب اللدنية ، للعلامة القسطلانى ، ج ٤ ، ص ٢٦٣

مثل من يارسول الله؟ قال :

ــ الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال أيضا : خير الأصحاب عند الله ، خيرهم لصاحبه.وخير الجيران عند الله، خيرهم لجاره .

وكان رسول الله محمد فى الناس : الحلم والأناة. وكان إذا نظر فى المرآة يقول اللهم كما حسنت خلق (صورتى) فحسن خلقى ، وقال الله تعالى فى سورة (ن ٤) لنبيه «وإنك لعلى خلق عظيم »

وعندما إشتد الكرب بالمسلمين فى موقعة احد ، وشج وجه رسول الله ،صاح به احد اصحابه ، ان يدعو على قريش ، فرد عليه السلام بقوله : إنى لم ابعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة .. واستطرد اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لا يعلمون.

ولعل من أجمل ما روى عنه عليه السلام ، ما روته عائشة من أن صفيـــة أهدت النبي وهو عندها إناء من طعام، كانت تجيد صنعه، فغارت عائشة ،وأخذت القصعة من بين يديه، وضربت بها فكسرتها ، فقام النبي عليه السلام يلتقط اللحم والطعام ، وهـــو يقول : «غارت أمكم عائشة » ... لم يغضب ، ولم يحنق على ما صنعته، ولم يتأثر ، وكل ما فعله أنه أخذ إناء سليما من بيت عائشة، ورده إلى صفية

وهكذا تتوالى المثل ، على هذه القواعد الجديدة ، فى السلوك ينقلها الصحابة عن صاحب الرسالة ، وتشيع فى الناس ، وتأخذ طريقها إلى تهذيب النفوس وإعدادها لحمل أمانة التقدم بالحياة .

وكان طبيعياً أن تنتصر هذه الفضائل ، بعد أن مكنتها الهجرة إلى يثرب ،من حرية الحركة، وازدادت ثقتها بيومها وغدها ،وتمكن من نفوس القوم الإيمان، بأن لهم هدفا كبيراً وغاية جليلة ، إن الكتاب سوف يبلغ أجله ، فى ميقات معلوم..وقد حل هذا الميقات .

وفى رأى المسلمين أن جهاد سيدنا محمد عليه السلام لنشر دعوته ؛ هو جهاد بشرى ، يستطيع كل انسان مؤمن أن يسلك طريقه . فليس فيه خوارق لقاموس

الطبيعة ، ولكنها طاقات نفسية هائلة ، صادفها الألم والأمل ، والنصر ، والهزيمة
وكانت معجزة النبي الكبرى القرآن الكريم ، ومعجزته الثانية أنه إرتفع بقدرة
الإنسان على العمل المثمر إل هذا الأوج الرفيع ، بحيث يتبعه منذ اتم رسالة
آلاف الملايين من البشر ، يزدادون إلى ما لا يعلم احصاؤهم إلا الله تعالى ... كل
وهو النبي الإنسان..وبما يوضح جانب الإنسان فيه أن رجلا أحس بوجل
عند لقائه ، فقال له عليه السلام :

«رويدك ياهذا. إنما أنا بشر . أنا ابن امرأة اعرابية ، كانت تأكل القديد»

ونحن هنا لا نقدم تاريخا لسيدنا محمد عليه السلام ، ولكننا نقول، أنه دعانا
إلى أن نسير فى طريقه ، ونحن نصل . هذا هو لب شهادة لا إله إلا الله ، وأن
محمدارسول الله ..

ليست دعوة باللسان،ولكنها دعوة للإيمان والعمل..بما سنفصله فى القواعد
الخمس المستفادة من مبادىء الاسلام الكبرى .

٢ واقام الصلاة

عندما يقف المسلمون تلبية لنداء المؤذن ، تسمع من يذكرهم ، بان تسوية الصفوف واجبة ، ودرج المصلون على استقامة صفوفهم فى مظهر بديع ، يجمع بين الخشوع والنشاط . وقد قص علينا زائر فاضل (١) لبلاد الملايو ، أنه رأى من عناية المسلمين هناك بنظام الصفوف ، أنهم يمدون فى مكان السجود أمام كل صف للمصلين أقمشة بيضاء منشاة آية فى النظافة ، تغير بأخرى عند أقامة صلاة جديدة

فاذا كبر الإمام ومن ورائه المصلون ، أحس الجميع أنهم بين يدى الله تعالى ، وأن اتصالهم به قد تم ، واليه يصعد قرآنهم ودعاؤهم ، حتى إذا انقضت الصلاة بتسليم الختام ، تلفت كل مصل يمينا إلى جاره ، وصافحه ، ثم صافح جاره شمالا وربما لم يسبق بين المتصافحين تعارف او لقاء ، ولكن المسلم يحس بأن أداء الصلاة جماعة ، قد أوجد رابطة بين كل منهم . وقوى إخاء ، هو اخاء المسلمين بعضهم لبعض . . تعقد آصرته ، وهم وقوف بين يدى الله تعالى ، كأنهم بنيان مرصوص .

ومظهر صلاة الجماعة ، لمن لا عهد له بالمسلمين وحياتهم ، مظهر أخاذ . فإنك ترى الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، والأبيض والاسود والأصفر ، . . . ترى العالم الكبير ، ومن هو أقل علما ، الجميع تتجه وجوههم إلى قبلة واحدة ، وتردد ألسنتهم كلاما واحدا ، وتملأ قلوبهم مشاعر صادقة تعبر عنها الآية الكريمة « قل إن صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى لله رب العالمين »

وهكذا نجد الصلاة ، أولى العبادات ، لأن لها هذين الجانبين : جانب صلة الانسان بخالقه ، ثم جانب صلته بأخيه الانسان.

ومن سلام الناس ، وتواصلهم ، وتراحمهم ، سوف نقدم الحديث عن صلاة الجماعة.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« صلاة الجماعه أفضل من صلاة الفرد (أو الفذ) بسبع وعشرين درجة » . وقال :

« ١ » الدكتور محمد نجيب حشاد مدير جامعة القاهرة ، عندما كان وزيرا للزراعة

« صلاة الرجل فى جماعة ، تضاعف على صلاته فى بيته ، وفى سوقه ، خمسا وعشرين ضعفا . وذلك إذا توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه إلا صلاة . ولم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ، ما دام فى مصلاه ، مالم يحدث (أى يبطل وضوءه) » .

وصلاة الجمعة ، هى اللقاء الأسبوعى الواجب ، لجماعات المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . . قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

وصلاة العيدين ، هى لقاء مرتين كل عام ، عقب انقضاء شهر رمضان ، فى صلاة الصبح ، وهو عيد الفطر ، وصباح اليوم العاشر من شهر ذى الحجة بعد انقضاء يوم عرفات لحجاج بيت الله الحرام . . وهما ركعتان فى كل عيد بلا أذان أو إقامة . . وبعد التكبيرة الأولى يقول المصلون :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمُك ، وتعالى جدُّك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » ثم يكبر المصلى وراء الإمام سبع تكبيرات ، وفى الركعة الثانية ست تكبيرات . .

وإذا أضفنا إلى هذا الدعاء وهذا التكبير ، دعاء التشريق ، الذى يقال بصفة جماعية بعد التسليم ، فإن بهاء هذا الإجتماع واشراقة الروح فيه ، تعد عيداً حقيقياً للنفوس . . وتأمل معى صيغة هذا الدعاء ، الذى يشترك فيه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها .

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله

الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد

الله أكبر كبيرا . والحمد لله كثيرا . وسبحان الله بكرة وأصيلا . لا إله إلا الله وحده .. صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده. وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله وحـــده . .

ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون .

وبعد ذلك يدعو المصلون لرسول الله على النحو الآتى :

اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى أصحاب سيدنا محمد ، وعلى أنصار سيدنا محمد وعلى أزواج سيدنا محمد ، وعلى ذرية سيدنا محمد ، وسلم تسليما كثيرا » .

وإذا كان المسلمون قد تعودوا أن يحضروا صلاة العيدين فى أبهى ثيابهم ، فان كل صلاة جماعة ، تحتاج حسن الثياب ، وجمال المظهر ، إلى جانب جمال النفس .. وليس معنى هذا ، أن يتأنق المسلم فى نفيس الثياب ، فان الجمال لا يكون فى الشىء الغالى ، ولكن فى الشىء البسيط الجميل .. وإذا كانت تعليمات الإسلام تقضى بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، فان هذه الزينة هى الثوب النظيف .

إننا كثيرا ما نرى بعض المسلمين ينهمكون فى عملهم ؛ حتى يحل موعد صلاة الجماعة تماما ، ثم يهرعون بملابس العمل ، ويحشرون أنفسهم فى الصفوف ، وقد تكون على الملابس بقايا العمل من شحم ؛ أو دهون فتؤذى المصلين عن يمين وعن يسار .. وهذا غير جائز .

كما أن التزاحم الشديد فى صلاة الجماعة ، يفسد الصفوف ؛ ولا يترك مكانا للسجود . فلا تكون الصلاة مع شدة الزحام مطمئنة .. وينشأ هذا الزحام عادة ، من أن بعضنا لا يعطى الوقت الكافى للصلاة ، ويهرع عند حلول موعدها إلى أقرب مسجد ، فتكون المساجد فى الأماكن المزدحمة ، مكدسة ، فى حين يوجد غيرها فى بعض الأطراف ، لا تكتمل فيه صفوف المصلين .

ونود أن نقف قليلا عند كلمة « الاطمئنان النفسى » الذى تبثه الصلاة فى نفوس المسلمين ، والذى نمهد له عادة بالوضوء ، والتماس نظافة الأطراف ، والثياب . سواء كان ذلك فى الصلاة المفردة ، أو صلاة الجماعة ..

يقول الله تعالى :

(إن الإنسانَ خُلقَ هلوعاً . إذا مسَّهُ الشر جزوعاً وإذا مسهُ الخيرُ منوعاً .. إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمونَ) المعارج

ومعنى العبادة فى الصلاة واضح ، فهى فى تفسيرها اللغوى الدعاء . وهى محاولة ؛ خمس مرات كل يوم ، لكى يتصل الإنسان بخالقه ، منيبا له مطيعا ، خاشعا متبتلا ، متذكرا قوة الله التى يتضاءل إلى جانبها كل سلطان ، مدركا أن الحياة ما هى إلا أنفاس تتردد ، وهى وديعة ما يلبث بارئها أن يستردها إلى يوم معلوم. وتذكر هذه المعانى وأمثالها ، تدفع الإنسان دائما إلى أن يكون أمينا مع ربه ، أمينا مع نفسه ؛ أمينا مع الناس ؛ فيكف عن الغير كل أذى يقدر عليه ، ويضيف للجماعة كل خير يستطيع أن يبذله .

عندما أوصى لقمان أبنه قال له :

(يا بُنيَّ : أقم الصلاةَ ، وأمُر بالمعروفِ ، وانهَ عن المنكرِ ، واصبِر على ما أصابَكَ ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تُصعِّر خدَّكَ للناسِ ، ولا تمشِ فى الأرض مرحاً ، إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مختال فخُور . واقصِد فى مشيكَ ، واغضُض من صوتِكَ ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير) .

وهكذا نجد إقامة الصلاة هى أول الطريق، ودليله ، إلى إيجاد الإنسان المتحضر الذى يعرف كيف يتعامل مع الناس ، فى تهذيب نفس ، وفى تواضع ، وبغير خيلاء

وليس كالاسلام ، وليس كالصلاة وبقية الفرائض ، ما يخلق الإنسان الفاضل والجماعة التى يسودها التكافل ، ولا تمزقها الأحقاد ، ولا يستعلى فيها إنسان بالسلطان او الثراء أو قوة البدن أو مركز الأسرة .. فقد وقف المسلمون جميعا سويا بين يدى الواحد القهار ، فكيف إذا غادروا هذا الموقف ، صعد فريق ، وهبط فريق ، وعدل ناس ، واضطهد ناس .. وإذن ففيم الوقوف ، وفيم النداء : الله أكبر .. ؟!

ومن هنا كان أهم شرائط الصلاة ، وأوجب الواجبات لصحتها ، أن يحس الإنسان بقلبه ، ما ينطق به لسانه ، فلا تلامس جبهته الأرض خضوعا لله ، ثم ينهض من صلاته ليخالف أمر الله ، فى ظلم ناس ، أو انتهاب أموال بغير حق ، أو اعتداء على حق فرد أو جماعة . . .

وهل أدل على المساواة ، وما تؤدى إليه صلاة الجماعة ، من قوله تعالى : « ما خلقكم ، ولا بعثكم إلا كنفس واحدة »

يقول الإمام مصطفى المراغى فى تفسيره لأول آيات سورة البقرة : « الصلاة فى الإسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية (لله) وفاتحة الكتاب ، إذا روعى معناها أثناء التلاوة ، وهى من أكبر العون على إستحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها ، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص ، المبرء من أية شائبة للشرك . وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها — وهو الإخلاص لله سبحانه ، واستشعار سلطانه وقهره - كانت جسما لا روح فيه ، ولم تؤد الغرض منها ، وهو التهذيب ، والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتخلص من الهلع والجزع عند النوائب ، والله سبحانه يقول : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »

إن سورة التوبة أو براءة ، وهى آخر ما نزل من القرآن ، تتحدث عن المساجد ، وعن الصلاة ، حديثا فيه الكثير من المعانى العميقة . . :

(إنما يَعمرُ مَساجدَ اللهِ ، من آمنَ باللهِ واليوم الآخر ، وأقامَ الصلاةَ ، وآتى الزكاةَ ، ولم يَخشَ إلا اللهَ ، فعسى أولئك أن يكونوا من المُهتدينَ) .

هنا نجد الذين يعمرون المساجد ، هم المؤمنون بالله المؤدون لفرائضه ، الذين لا يخشون إلا الله . .

الذين لا يخشون إلا الله ، هم أهل المساجد . . وبهذا جعل القرآن للمسجد رسالة إمدادنا بالطاقة النفسية ، التى تتكون من إجتماع المسلم بالمسلم . . .

ولقد كان أول مساجد الإسلام فى المدينة ، هو مركز الحكم ، ومركز الشورى ،

وفيه ندوة المسلمين ومكان لقائهم وتعليمهم . واستمر الأمر كذلك ، حتى نسى بعض المسلمين ، فى بعض الأمصار ، الحكمة من إيجاد المسجد ، ومن التقاء الناس فيه . بل وضعت بعض الحكومات قواعد تحد من قيمة هذه اللقاءات اليومية بين بعض المسلمين وبعض . . فى أبان الحكم العثمانى ، كان أهم ما يدور فى المساجد قراءة البخارى العديد من المرات ، حتى تنتصر الجيوش : . ولكن هذه الحال ما لبثت أن تبدلت قليلا .. قليلا .. وأصبح هناك رأى إسلامى عام ؛ فى أن تعود المساجد إلى طبيعتها الأصيلة ؛ دار ندوة علنية للمسلمين ، وأماكن تعليم ، فى شتى فروع المعرفة ، وبهذا يخف إليها روادها نشطين ، ممتلئين أملا . وتطلعا ؛ ورغبة فى العمل من أجل دينهم ودنياهم ، فلا ينطبق عليهم ما ورد أيضا فى سورة التوبة : «ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى . . . »

ان الصلاة ؛ ومساجد الإسلام ، هى بيوت الأيمان فى عالم أصبح الإيمان فيه شيئا لازما لنجاة البشرية كلها من أفدح الأخطار ومن سورة التوبة تسمع مرة أخرى :

« والمؤمنينَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض . يأمرونَ بالمعروفِ ، وينهونَ عن المنكرِ ، ويُقيمونَ الصلاةَ ، ويؤتون الزكاةَ ، ويُطيعونَ الله ورسولهُ ، أولئكَ سيرحمهم اللهُ ، إن اللهَ عزيزٌ حكيم »

من آداب الصلاة وقواعدها

* عن أبي هريرة ، قال رسول الله عليه السلام : « يأتي أحدكم الشيطان، وهو في صلاته ، فيلبس عليه ، حتى لا يدري كم صلى ! فاذا وجد ذلك فليسجد سجدتين وهو جالس » (المسند ٧٦٨٠)

* قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « صلاة مع الإمام أفضل من خمسة وعشرين صلاة يصليها وحده » (المسند ٧٦٨١)

* قال رسول الله عليه السلام : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فان منهم الضعيف ، والشيخ الكبير ، وذا الحاجة » (المسند ٧٦٥٤)

* عن رسول الله عليه السلام : « إذا قال الإمام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، فقولوا : آمين ، فإن الملائكة تقول : آمين . وإن الإمام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » (المسند ٧٦٤٧)

* قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إذا اقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، ولكن أئتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » (المسند ٧٦٤٩)

* عن سيدنا محمد قوله : « من أدرك ركعة من الصلاة ، فقد أدرك الصلاة » (المسند ٧٦٥٢)

* عن أبي هريرة أن رسول الله عليه السلام قال : « صلاة في مسجدي هذا خير من الف صلاة في غيره من المساجد ، إلا المسجد الحرام » (يقصد مسجد المدينة المنورة) (المسند ٧٧١٩)

وعنه أيضا : « لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى » (المسند ٧٧٢٢)

• عن رسول الله عليه السلام : « إذا قلت لصاحبك والامام يخطب :أنصت فقد لغوت » المسند ۷۷۵۰

• عن ابن عباس : من أدرك من العصر ركعة قبل أن تغرب الشمس فقد أدركها . وعن رسول الله : «من أدرك من الفجر ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدركها» المسند ۷۷۸٥

• عن رسول الله عليه السلام : « إن كل خطوة يخطوها إلى الصلاة يكتب له بها حسنة ، ويمحى عنه بها سيئة » المسند ۷۷۸۸

• وصف رسول الله عليه السلام الامام والمؤذن قال : « الإمام ضامن والمؤذن أمين ، اللهم ارشد الأئمة واغفر للمؤذنين » المسند ۸۷۰٥

• عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى صلاة جهر فيها بالقراءة ثم أقبل على الناس بعد ماسلم فقال: «هل قرأ منكم أحد معي آنفا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : إني أقول : مالي أنازع القرآن ؟! فانتهى الناس عن القراءة فيما يجهر به من القراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم» المسند ۷۸۰٦

• عن المغيرة بن شعبة : ان الفجر أدرك المسلمين في غزوة تبوك ، فقدموا عبد الرحمن بن عوف ، فصلى بهم حين كان وقت الصلاة ، وكان رسول الله قد تأخر قليلا وهو يتوضأ ، فلما أدرك المسلمين كان عبد الرحمن قد ركع ركعة من صلاة الفجر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصف مع المسلمين (أي وقف في الصف) . فصلى وراء عبد الرحمن بن عوف الركعة الثانية ، ثم سلم عبد الرحمن فقام النبي في صلاته ، ففزع المسلمون ، فأكثروا التسبيح ، لأنهم سبقوا النبي عليه السلام بالصلاة ، فلما سلم رسول الله قال لهم : قد أصبتم . أو قد أحسنتم».
(ورد في البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابي داود)

القبلة :

• في سنن أبي داود (٤٧٧) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ثلاثة عشر شهرا فأنزل الله هذه الآية : « قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها » البقرة ١٤٤ . فوجهه الله عز وجل إلى الكعبة

الوضوء :

• في سنن أبي داود : أتانا على رضى الله عنه ، وقد صلى ، فدعا بماء طاهر . فقلنا : مايصنع بالطهور ، وقد صلى . ما يريد إلا ليعلمنا . فأتى بإناء فيه ماء ، وطشت فارغ من الإناء على يمينه ، فغسل يديه ثلاثا ، ثم تمضمض ، واستنثر ثلاثا ، ثم غسل وجهه ثلاثا ، وغسل يده اليمنى ثلاثا (إلى المرفق) وغسل يده الشمال ثلاثا ، ثم جعل يده في الاناء فمسح برأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثا ، ورجله الشمال ثلاثا ، ثم قال :

— من سره أن يعلم وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو هذا .

(السنن ٩٨)

• عن أنس : رأيت رسول الله يتوضأ وعليه عمامة ، فأدخل يديه من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة . (السنن ١٣٤)

• وورد في صحيح مسلم والترمذي والنسائي أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح على الخفين ، وعلى ناصيته ، وعلى عمامته .

• وروى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركبة ، ومعي أداوة (اناء ماء) فخرج لحاجته ، ثم أقبل فتلقيته بالاداوة ، فأفرغت عليه . فغسل كفيه ووجهه ، ثم أراد أن يخرج ذراعيه . وعليه جبة من صوف من جباب الروم ، ضيقة الكمين ، فضاقت ، فأدرعهما إدراعا (أخرج ذراعيه) ثم أهويت إلى الخفين لأنزعهما . فقال لي : دع الخفين فاني أدخلت القدمين في الخفين ، وهما طاهرتان فمسح عليهما

• عن قتادة : أن رجلا جاء إلى رسول الله وقد توضأ ، وترك على قدمه مثل موضع الظفر . فقال له رسول الله عليه السلام « ارجع فأحسن وضوءك »

(السنن ١٦٥)

• وفي تفسير الطبري : كان رسول الله عليه السلام يتوضأ لكل صلاة ، فلما الفتح ، صلى الصلوات بوضوء واحد ، ومسح على خفيه فقال عمر: إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله . قال : عمدا فعلته يا عمر .

وكانت هذه الصلوات هى الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

ولكن رسول الله قال : من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات .

● وكانت عائشة رضى الله عنها ، تقول لأخيها عبد الرحمن :

أسبغ الوضوء ، فانى سمعت رسول الله يقول : ويل للاعقاب من النار (التى لايصلها ماء الوضوء)

وهذه إشارة إلى اسباغ الوضوء ، أى احسان غسل الأطراف بالماء ، حتى توفر الماء .

● وقد نزلت آية « التيمم » عند ما لم يجد رسول الله ماء فى بعض أسفاره .

ويقول بعض المفسرين : أن يضرب المتيمم بيديه على وجه الأرض الطاهر أو ما قام مقامه ، فيمسح بما علق من الغبار وجهه . فاذا لم يعلق باليدين شىء ، فان ذلك يجزئه . إذ المراد بالصعيد الطيب المباشرة لاأخذ التراب منه . ويكفى فى هذه الحال مسح الوجه والكفين .

وقال عكرمه : التيمم ضربتان ؛ ضربة للوجه وضربة للكفين .

ولكن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن التيمم هو مسح الوجه واليدين بثياب طاهرة نظيفة . أى بما يذهب غبار الطريق عن الوجه ، لا مايزيده ، اعتمادا على أن التراب والحجر والرمل هو بعض الأرض ، وأن الصعيدماهو فوقها استئناسا بالآية (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لهم لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا) (الكهف ٧-٨)

والصعيد هو الأرض العامرة بالنبات والحيوان . فاذا زالت الزينة أصبح الصعيد خربا .

● نص الأذان كما علمه رسول الله لأصحابه :

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر

أشهد ألا إله إلا الله . أشهد ألا إله إلا الله .

أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله .

حى على الصلاة . حى على الصلاة .

حى على الفلاح . حى على الفلاح »

فان كانت صلاة الصبح . قال المؤذن : « الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله »

الإقامة :

• وفى إمامة الصلاة يقول : « قد قامت الصلاة . قد قامت الصلاة . الله اكبر الله اكبر . لا إله إلا الله »

• وروى عن أنس : أمر بلال (مؤذن الرسول) أن يشفع الأذان ، ويوتر الاقامة .

ومعنى هذا أفراد ألفاظ الاقامة إلا قوله : قد قامت الصلاة ، فإنها تكرر مرتين .

• عند ما سمع رسول الله بلالا يقيم الصلاة . قال عليه السلام : « أقامها الله وأدامها » .

• وعن جابر : من قال حين يسمع النداء : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته » إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة .

لبس الحذاء فى الصلاة

• فى سنن أبى داود وابن ماجة : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى حافيا ومنتعلا »

● وعن أبي سعيد الخدري : بينما النبي عليه السلام يصلي بأصحابه ، إذ خلع نعليه ، فوضعهما عن يساره . فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم ، فلما قضى رسول الله صلاته قال : ما حملكم على ألقائكم نعالكم . قالوا : رأيناك ألقيت نعليك ، فألقينا نعالنا . فقال رسول الله : إن جبريل أتاني ، فأخبرني أن فيهما قذراً . . .

الأمامة

● عن أبي مسعود البدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله ، وأقدمهم قراءة ، فان كانوا في القراءة سواء ، فليؤمهم أقدمهم هجرة ، فان كانوا في الهجرة سواء ، فليؤمهم اكبرهم سنا . ولا يؤم الرجل في بيته ، ولا في سلطانه . ولا يجلس على تكرمته (فراشه) إلا باذنه

وفي رواية : « فان كانوا في القراءة سواء . فأعلمهم بالسنة »

● وعن رسول الله : « من زار قوما فلا يؤمهم ، وليؤمهم رجل منهم »

ملحوظة : إذا كان المسجد مفروشا ، فالصلاة طبعا بغير حذاء

تسوية الصفوف . والمرور امام المصلي

● حرص رسول الله على تسوية الصفوف ؛ وروى عنه أنس بن مالك : (سووا صفوفكم ، فان تسوية الصف من تمام الصلاة) .

● عن أبي هريرة عن رسول الله (إذا صلى أحدكم فليجعل تلقاء وجهه شيئا . فان لم يجد فلينصب عصا . فان لم يكن معه عصا فليخطط خطا . ثم لا يضره أمامه) (سنن ١ ٢٠ داود — ٦٥٩)

أداء الصلاه

● وفي سنن أبي داود : كان رسول الله إذا قام إلى الصلاة ، يرفع يديه ،حتى يحاذي بهما منكبيه . ثم كبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلا . ثم يقرأ . ثم يكبر ،فيرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه .ثم يركع ، ويضع راحتيه على ركبتيه . ثم

يعتدل ، فلا يصب رأسه ، ولا يقنع (لا يخفضه جدا ولا يرفعه). ثم يرفع رأسه فيقول: سمع الله لمن حمده. ثم يرفع يديه ، حتى يحاذى منكبيه معتدلا . ثم يقول : الله أكبر ، ثم يهوى الى الأرض ، فيجافى يديه عن جنبيه ، ثم يرفع رأسه ، ويثنى رجله اليسرى ، فيقعد عليها ، ويفتح (بين) أصابع رجليه إذا سجد ، ثم يسجد. ثم يقول : الله أكبر . ويرفع ، ويثنى رجله اليسرى ، فيقعد عليها حتى يرجع كل عظم إلى موضعه . ثم يصنع فى الأخرى مثل ذلك . ثم إذا قام من الركعتين كبر ورفع يديه ، حتى يحاذى بهما منكبيه ، كما كبر عند افتتاح الصلاة ثم يصنع ذلك فى بقية صلاته ، حتى إذا كانت السجدة التى فيها التسليم ، أخر رجله اليسرى ، وقعد متوركا على شقه الأيسر

ووردت هذه الصيغة فى البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه

● قال رجل وراء رسول الله أثناء الصلاة : ربنا ولك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه . فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من المتكلم آنفا . قال الرجل : أنا يارسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا ؟

● وعن ابن عباس : كان النبى عليه السلام يقول بين السجدتين : «اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، وعافنى ، واهدنى ، وارزقنى .

● كان رسول الله عليه السلام إذا استفتح الصلاة . قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك»

● فى كل حركة من حركات الصلاة يجب التكبير . يقول أبو هريرة : «والذى نفسى بيده ، إنى لأقربكم شبها بصلاة رسول الله عليه السلام» ، «أن كانت هذه صلاته حتى فارق الحياة .

● عن حذيفة : كان رسول الله يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده : سبحان ربى الأعلى

● عن عائشة : فقدت رسول الله عليه السلام ذات ليلة ، فلمست المسجد . فاذا هو ساجد ، وهو يقول : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من

عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك.

مسلم وابى داود وابن ماجه

• وعن أبى هريرة أن رسول الله عليه السلام قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء .

ولا دعاء فى الركوع غير : سبحان ربى العظيم .. وأقلها ثلاث مرات .. فاذا قام المصلى قال : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماوات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد . أبو مسلم وابن ماجه وأبى داود

• كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يجهر بتلاوة القرآن وقت صلاته وكان المشركون يؤذونه ؛ فنزلت الآية الكريمة « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » .

وكان عليه السلام يجهر فى ركعتى الصبح ، ويسر فى أربع ركعات الظهر والعصر ويجهر فى الركعتين الأوليين من صلاة المغرب ويسر فى الثالثة ، أما صلاة العشاء فكان يجهر فى الركعتين الأوليين ويسر فى الركعتين الأخيرتين .

ويجهر الامام فى ركعتى الجمعة ، وصلاة العيدين ، وفى صلاة التراويح ووتر الجماعة .

وفى القرآن الكريم : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » وفى الحديث : الامام ضامن لكم يرفع عنكم سهوكم وخطأكم .

• وتوجد إلى جانب الفرائض الخمس فى الصلاة سنن هى :

١ ــ ركعتان قبل صلاة الصبح ، وقد نهى رسول الله عن الصلاة بعدها حتى تشرق الشمس .

٢ ــ ركعتان قبل صلاة الظهر ، وركعتان بعده

٣ ــ ركعتان قبل صلاة العصر ، وقد نهى رسول الله عن الصلاة بعدها إلى أن تغرب .

٤ ــ ركعتان بعد صلاة المغرب .

٥ ــ ركعتان قبل صلاة العشاء ، وركعتان بعدها ، وركعة وتر

ومن نوافل الصلاة .

١ ــ تحية المسجد عند الدخول ، وهى ركعتان

٢ ــ صلاة العيد وهى ركعتان وتجب فيها الجماعة

٣ ــ صلاة التراويح فى رمضان ، سنها الخلفاء بعد رسول الله وأقلها عشر ركعات . كل ركعتين بتسليمة وركعة وتر ، وأكثرها ثلاثة وعشرون ركعة كل ركعتين بتسليمة وركعة وتر .

٤ ــ صلاة الخوف والاستسقاء ، وهى ركعتان لكل ويجب فيها الجماعة.

• صلاة الجنازة أربع ركعات بالوضوء وأربع تكبيرات ودعاء للميت قبل التسليم ، وصلاة على رسول الله بعد التكبيرة التى تلى الفاتحة ، وهى نص الصلاة على النبى التى تقرؤها فى التشهد وتؤدى جماعة وأفراد.

• وروى البخارى عن أم سلمة قالت : كان رسول الله عليه السلام ، إذا سلم (بعد الصلاة) مكث قليلا ، وكانوا يرون أن ذلك كيما ينفذ النساء قبل الرجال .

٣ وإيتاء الزكاة

الزكاة ثالث أركان الدين الإسلامى . .

وقد فصلنا فى كتاب آخر (١) الظروف الإقتصادية لشبه الجزيرة العربية ، وللمجتمع الحجاز بصفة خاصة ، وللمجتمع مكة بصفة أخص . ونكتفى هنا بالحديث عن الزكاة كعلاج من لدن رب السماوات والأرض ، لحالة الخلل الإقتصادى عندما تسود الجماعة الإنسانية .

ظهرت الدعوة الإسلامية ، فى بيئة للمال فيها أعظم قدر من القيمة . إنها تعادل العصبية القبلية فى بناء كيان الجماعة . . بيئة فيها الغنى الفادح ، والحرمان المدقع . . . بيئة يقتل فيها الفقراء بناتهم خشية ألا يجدن ما يعشن منه إلا بيع الجسد !

وقد ورد ذكر المال ، والغنى والفقر ، فى مئات من آيات القرآن الكريم وقد دل ورودها بهذه الكثرة ، على أن الإسلام أعطى إهتماما بالغا لتنظيم المال جمعا وإنفاقا .

وما كان إهتمام الدعوة الجديدة بالمال ، إلا لأن الأثرياء ، وقفوا فى طريقها ، ورصدوا أموالهم للصد عن سبيل الله . . . بل لقد كانت هذه سنة الخلق فى القديم والحديث . . . أصحاب الثراء يخشون على ما فى أيديهم من كل دعوة تسعى إلى تحرير الإنسان ورقيه . . . يقول الله تعالى :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير ، إلا قال مترفوها ، إنا بما أرسلتم به كافرون » (سبأ ٣٤)

ويقول تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » (الأنفال ٣٦)

وقد لاحظ القرآن الكريم أن المجتمع الذى ظهرت فيه الرسالة

---

(١) نور الله للمؤلف

المحمدية ، مقاييس وقيما عارضها ، وكان المال والثراء من أهمهما جميعاً :

« زُيِّنَ للناسِ حبُ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ ، والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ ، والخيلِ المسوَّمَةِ ، والأنعامِ والحرثِ . ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا . واللهُ عندَهُ حسنُ المآب » آل عمران ١٤

لقد جعل الإسلام مقاييس جديدة للتفاضل بين الناس ، ليس من بينها المال الوفير . . . يخاطب القرآن البشر بقوله :

« مَن كان يريدُ العزةَ ، فللهِ العزةُ جميعاً ، إليه يصعدُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يَرفعهُ » فاطر ١٠

ووصف القرآن مجتمع المال ، والعقد التي يسببها لعباده في أكثر من موضع قال :

(ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لمزةٍ ، الذى جَمعَ مالاً وعدَّدهُ ، يحسبُ أن مالهُ أخلدَهُ) الهمزة ١،٢،٣ وقال : (وَما أموَالكم وَلا أولادكم بالتى تقربكمُ زلفى ، إلا مَن آمنَ وَعملَ صالحاً) سبأ ٣٧

وقال : « وَتحبُّونَ المالَ حُباً جما » الفجر ٢٠

وقال : « إنما أموَالكم وَأولادُكم فِتنةٌ ، واللهُ عندَهُ أجرٌ عظيمٌ » التغابن ١٥ .

ولكنه مع ذلك ، لم يكره أن يكون فى المجتمع أغنياء ، وأصحاب مال ، غير أنه أوصى بالقصد والاعتدال ، وألا يلهى المال الناس عن الإيمان بالله والجهاد فى سبيله .

« المالُ وَالبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا ، وَالباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملا » الكهف ٤٦

« وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ولا تنسَ نصيبكَ منَ الدُّنيا » القصص ٧٧ .

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » - الفرقان ٦٧ .

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » الإسراء ٢٩

وكره الإسلام اكتناز المال ومنعه عن التداول ، والإنفاق .

وندد القرآن بالبخلاء وخاصمهم خصاماً شديداً . . . فقال .

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء » محمد ٣٨

« وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى » الليل ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨

« الذين يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » الحديد ٢٤

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما أتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » النساء ٣٧

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والارض ، والله بما تعملون خبير » آل عمران ٨٠

وليس كل الإنفاق مقبولا عند الله . . . فهناك الإنفاق تظاهراً وتملقا ، وقد كرهه الإسلام ، كما كره الشح :

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » النساء ٣٨

وفى كتاب الخراج لأبى يوسف (١) أن عمر بن الخطاب قال لبعض الصحابة ، الذين ولاهم أمورا فى البلاد المفتوحة ، إنى أنزلت نفسى وإياكم من هذا المال بمنزلة والى اليتيم ، فإن الله تبارك وتعالى قال :

« وَمن كانَ غنياً فليستعفف ، وَمن كانَ فقيراً فليأكل بالمعروف » (النساء ٦) .

* * *

وحارب الإسلام الربا حربا لا هوادة فيها ، مما دل على أن أثرياء العرب واليهود كانوا غارقين إلى أذقانهم فيه ، وكانوا يكبلون مجتمع المحتاجين والـ... ام بديون الربا . وفى سورة البقرة وحدها أربع آيات تتضمن هذا المعنى منها :

(يا أيُّها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ ، وَذَرُوا ما بقى منَ الرّبا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسولِهِ ، وإن تبتم فلكم رؤوسُ أموالِكم ، لا تظلِمونَ وَلا تظلَمونَ » البقرة ٢٧٨، ٢٧٩

وفى سورة النساء ١٦١ : « وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناسِ بالباطِل ، وَاعتدنا للكافِرينَ منهُم عذاباً أليما » .

وقد حض الإسلام على الإنفاق تصدقا ، وأوجب الزكاة ، ليحارب اكتناز المال :

« وَما آتيتم من رباً ليربُوا فى أموالِ الناسِ فلا يربُوا عِندَ اللهِ وَما آتيتُم مِن زكاةٍ تريدُونَ وَجهَ اللهِ فأولئكَ هم المضعِفونَ » الروم ٣٩ ، وفى سورة البقرة ٢٧٦ « يمحقُ اللهُ الرّبا ، ويُربِي الصَّدقاتِ واللهُ لا يحب كلَّ كفارٍ أثيم » .

بل جعل الإسلام للفقير والمحتاج حقا أوجبه إيجابا :

« وَالذين فى أموالِهم حقٌ معلومٌ للسائلِ والمحرُوم » (المعارج ٢٤، ٢٥) .

---

(١) « كتاب الخراج » ، لأبى يوسف ، طبعة بولاق ؛ ص ٢٠

وجعل الإسلام لبذل المال فى وجوه الخير ، وعلى من هم أحق به ؛ وأحوج له ، آدابا عالية ، وقواعد من الخلق مكينة ، مثل قوله :

« يا أيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » البقرة ٢٦٤ وقوله : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون » آل عمران ٩٢، وقوله : « قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى» البقرة ٢٦٣، وقوله: « إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى، وإن تخفوها وتؤتوها للفقراء فهو خيرٌ لكم » البقرة ٢٧١ ، وقوله : « وأمّا السائل فلا تنهر » الضحى ١٠

وجعلت الزكاة أصلا من أصول الإسلام ، ووجب أداؤها على رأس المال ، بمعدل ٢,٥ فى المائة ، وبذا تستهلك الأصول الثابتة كلها فى مدى أربعين عاما ، وهى الحياة العاملة للفرد فى الظروف العادية، أى ما بين سن العشرين والستين[1].

ولما قدم المال على البنين فى ذكر مقومات الفرد ، كذلك جعلت الزكاة بعد الصلاة مباشرة : مثل قوله :

« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » (الحج ٤٢) . . . وقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللهو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » (المؤمنون ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) ... وقوله : « الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » لقمان ٤ ، وقوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) البقرة ٤٣

---

(١) الزكاة كفرض على الثروة الحيوانية من بقر وجاموس وجمال وأغنام وماعز ، وكذلك على الذهب والفضة وما شابهها من معدن نفيس ؛ وتؤخذ أيضاً على سلع التجارة فى كل ما يتاجر فيه ، وعلى المعادن فى مناجمها لمن يملكون المناجم ومنابع البترول ، كما تؤخذ على الزروع والثمار .

وزكاة الزرع أن يخرج العشر إذا كانت سقاية الزرع بماء المطر، ونصف

وهكذا نجد الدعوة المحمدية تناولت المال جمعاً وإنفاقاً ، بعناية كبرى ، لكى تجعله حقاً للجماعة ، لا للفرد ، ولكى يذوب ما بين الطبقات من فوارق ، يرجع معظمها إلى فارق الفقر والغنى ، وبهذا تتكافل الجماعة ، وتتساند ، ويسود بينها التراحم ، ولا يستعلى قوم على قوم ، ولا يظل ناس على الطوى جائعين ، وغيرهم يكنز ويجمع ويحجب المال عن التداول والمنفعة . . .

حقيقة هناك المجتهد ، الذى يكد ويكدح لكى يربح ، وهناك الخامل الجامد الذى لا يسعى . وقد حبب الإسلام إلى الناس العمل ، وحضهم على أن يستمتعوا بالحلال الطيب من كسبهم ، ولكنه أوجب عليهم زكاة هذا المال . وأوجب عليهم أن يقدموا من كسبهم لغير القادرين على العمل . . . وبهذا أيقظ الدين الجديد الضمير الإجتماعى ، بل خلقه خلقاً ... فما عرفت الأديان السابقه مثل هذه القواعد المفصلة فى تنظيم الحياة المادية للأفراد والجماعة ربحاً وإنفاقا ...

ترى كيف استقبلت البيئة المكية هذه الدعوة الجريئة على تحطيم قواعد الأثرة والطغيان المادى ، واستغلال الإنسان رقا ، أو حرمانا ؟ ...

إن الأمر لا يحتاج إلى طويل شرح وبيان .. فقد استقبلت هذا كله بالإباء ، والرفض ، والحرب المريرة باللسان ، ثم بالسيف والسنان .

لقد عرضت قريش على سيدنا محمد أن يكون حاكماً ، أو ملكا ، أو أن يجمعوا له من المال ما يريد ، ولكنه رفض هذا كله ، رفضاً تاما . . فما أراد لنفسه شيئاً ، ولكنه أراد أن يبنى للإنسان قواعد فى الحياة جديدة ، ويحمى الناس من شر أنفسهم ، وأن يقيهم من عواقب الشح ... فللمال فى الإسلام وظيفة إجتماعية ، لا يمكن إغفالها .

= العشر إذا كانت الزروع تسقى من ماء أرضى بآلة وزكاة المناجم خمس ما يستخرج منها .

فإذا كان (الخراج) يؤدى للحكومة عن الأرض المزروعة مثلا ، فلا تجب الزكاة عليها (كما هو مذهب أبى حنيفة) .

وآية البر ، جمعت ذلك فى تنسيق كامل ، ودلالة واضحة :

« ليسَ البرَّ أن تولّوا وُجوهَكم قِبلَ المشرقِ والمغربِ ، وَلكن البرَّ مَن آمن باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين ، وآتى المالَ عَلى حبِّهِ ذوى القربىَ وَاليتامىَ والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرقابِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتىَ الزكاةَ ، والموفُونَ بعهدهم إذا عاهَدوا وَالصّابرينَ فى البأساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ ، أولئكَ الذين صدَقوا وَأولئكَ هُم المتقونَ » البقرة ١٧٧

والبر هنا هو جملة الأعمال ، التى تقرب الإنسان من الله ، حتى يستحق رضاه ، والبر ضد الإثم بأنواعه ...

ففى سورة المائدة ٢ : « وَتعاونوا عَلى البرِّ وَالتقوَى وَلا تعاوَنوا على الإثم وَالعدوَان » وفى سورة المجادلة ٩ : « يَا أيها الذينَ آمنُوا إذا تناجيتم فلا تتناجَوا بالإثمِ والعدوانِ وَمعصيةِ الرّسولِ ، وَتناجَوا بالبرِّ وَالتقوَى »

وقد وصف الله نفسه بأنه : « ... هو البرُّ الرّحيمُ » (الطور ٢٨) وفى وصف سيدنا عيسى ، جاء فى سورة مريم : « وَبَراً بوالدتى وَلم يَجعلنى جَباراً شَقياً » . (٣٢) ووصفت سورة المطففين ، الذين يفوزون برضى الله بقولها : « كلا إنَّ كتابَ الأبرارِ لفى عِليّين » (١٨) .

ونرى آية البر احتفلت احتفالا كبيراً بطريقة التصرف فى المال — المال الذى يحبه الناس — فجعلت الحديث عنه ، بعد الإيمان بالمقدسات العليا : الله سبحانه وتعالى ، والأنبياء ، والكتب المنزلة ...

والمال الذى تنفقه ، تطوعا وصدقة ، هو غير مال الزكاة ... فلهذا مكانه ، ولذاك مكانه ... والمال الذى تنفقه على الأهل ، والمحتاجين ، والذى تنفقه

لتحرير الرقيق ، هو غير الفريضة التى تؤديها سنويا .. فالصدقة من أرباحك ، أو مدخراتك ، والزكاة من رأس مالك العامل ...

لا تكن شحيحا :

« وأحضرت الأنفسُ الشُّحَّ » (النساء ١٢٨) . . . ووصف القرآن المفلحين ، فى سورتى الحشر (٩) والتغابن (١٦) بأنهم الذين يتجنبون الشح : « ومن يُوقَ شُحَّ نفسهِ فأولئك هم المفلحون » .

وهكذا نجد دعوة الإسلام ، أهوت بمعاول ضخمة ، وهائلة ، على أصنام أشد عتوا ، من هبل ، ومناة ... ومن اللات ، والعزى ... إنها أصنام المال .

وما أن ارتفع صوت الدعوة الجديدة ، يطرق الأسماع بهذا النداء ، حتى فزع الأغنياء ، وحتى اهتزت قواعد الطبقية ، ووجدت سبباً أصيلا ، يدعوها إلى القتال ، عما فى أيديها من إمتيازات .

إن مجتمع مكة — كان — مجتمع تجار كبار ، لهم مصالح ، تمتد فى شرق آسيا ، وشمال أفريقية ،حتى الحبشة ، وتطوف بحوض البحر المتوسط كله . . . وأرباحهم من هذه التجارات كبيرة . وضخمة . جعلت لهم مكاناً مرموقاً ، ولفتت إليهم أنظار الأكاسرة ، والأباطرة . فى الدول الكبرى ، وثارت الحروب ، من أجل حراسة القوافل وتقاضى إتاواتها ... وأصبح المال شيئاً هاماً ، وكبيراً ... وهذا المال ليس بعض نعاج ، أو جمال ، أو نخلات فى بطن صحراء ، ولكنه ذهب يكسر بالفؤوس ، كما تحدثوا عن مقاديره مبالغين ، أو مدققين...

وكان هذا المال ، يصلح لبناء القصور ، واستجلاب أدوات الترف ، وشراء مئات الجوارى والعبيد ، من أطراف الأرض .

وجعل مثل الحيــــاة الأعلى ، أى الناس أكثر مالا . . . الذى جمع مالا وعدده . . . الذى جمع مالا لبدا . . . وما أكثر ما تفاخروا بقولهم : « أنا أكثر منك مالا » .

وعندما خاصمت قريش النبى ، إلى عمه ، قالت : إنه سفه أحلامنا : . . .

ولقد فعل عليه الصلاة والسلام . وهل تسفيه الأحلام ، إلا هدم هذه الأسس ، التى أقام الناس عليها حياة الزيف ، والبطلان ... تابع رسول الله تسفيه هذه الأحلام ، وإنه لمأمور بذلك ، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، لم يفتر عنه الوحى فى تأكيد هذا المعنى ، وتثبيته ، وتشديد النكير على عباد المال ...

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة » التغابن ١٥ .. « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم » المنافقون ٩ . « ولن تغنى عنهم أموالهم » آل عمران ١١٦ « ربنا إطمس على أموالهم » يونس ٨٨ « لم يزده ماله وولده إلا خسارا » نوح ٢١ . « وما يغنى عنه ماله » الليل ١١ « يحسب أن ماله أخلده » (الهمزة ٣) .

وليس تشديد النكير على المال ، دعوة إلى الزهد ، والخروج من الدنيا ، وإنما للمال — كما ذكرنا أكثر من مرة — وظائف هامة ، فى خدمة المجتمع ، أولها وأهمها — بعد إعانة المحتاج — الجهاد فى سبيل الله ، وكلمة الحق ، ومنع الظلم عن العباد ، وتأييد كرامة الإنسان ، وحقه فى الحياة ... الإنسان الذى جعله الله خليفة له فى الأرض ، لا عبداً لأحد ، ولا رقيقاً لغيره .

... « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » (التوبة ٢٠)

... « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » (البقرة ٢٦١)

... « ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السماوات والأرض » (الحديد ١٠)

... « وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (البقرة ١٩٥)

... « ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (التوبة ١٢١)

. . . « فضل اللهُ المجاهدين بأموالِهم وأنفسِهم على القاعدينَ درجة »
(النساء ٩٥)

. . . « إنّ الذينَ آمنوُا وَهاَجروا وَجاَهدُوا بِأموالهم وَأنفسهم في سبيلِ الله . . . » (الأنفال ٧٢)

وهكذا تتوالى الآيات ، ونراها تقدم الجهاد بالمال ، على الجهاد بالنفس، لكى تقتلع حب الاكتناز من جذوره ، وأعماقه . وتجعل مثوبته عند الله عظيمة . . .

* * *

وقف أثرياء قريش بالمرصاد للدعوة ، التى لا ترى فى الثراء ، أمراً يستحق المحافظة عليه .

وإذا كانت القصص تروى عن العرب وكرمهم ، وعما كان يحدث فى الجاهلية ، من جود نسب لبعض الأسماء ، فهذا أمر يختلف إختلافاً كبيراً عما جاء به الإسلام . . .

إن الجود ليس صفة تشمل الناس جميعاً ، ولكن إذا تميز به أفراد ، فإن سيرهم تجرى على ألسنة الشعراء . . . كما أن الجود نوع من التبرع فى المناسبات ، أما ما دعا إليه الاسلام ، من إخراج الصدقات من الأرباح ، والزكاة من رأس المال ، فهو تنظيم الانفاق ، وخفض رؤوس الأموال ، حتى تتداول الثروة بين الجماعة .

ولقد بلغ من تصميم الاسلام ، على التداخل فى أمر المال ، ووضع قواعد لمصارفه ؛ أن العرب من حول المدينة المنورة ، انتقضوا أول ما انتقضوا ؛ فى أواخر حياة الرسول ؛ وأول عهد أبى بكر بالخلافة . وكانت حجتهم الزكاة . . . وكان يمكن أن يظل ارتباطهم بالحكم الجديد . لو أن الصديق . نزل لهم عن شرط الزكاة . ولكنه قال كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه »

لقد كان الصديق أبو بكر ثانى رجل بعد رسول الله ، يعلم لب الدعوة

الاسلامية ، وجوهر كيانها ، وأن المبادىء التى جاءت بهـا ، لا تقبل مساومة ولا تجزئة ... والزكاة من أهم هذه القواعد ، وفى سبيل إقرارها ، فلتثر الحروب ، وتدور المعارك .

* * *

وإذن يمكن أن نقول مطمئنين ، إن الدعوة الاسلامية ، وجدت عناداً ، ليس كمثله عناد من أصحاب المال ، لأنهم أرادوا لأنفسهم حرية جمعه ، وحرية اكتنازه ، أو إنفاقه على هواهم .. فى حين أراد الاسلام للمال وظيفة أخرى ، هى التداول ، وخدمة الجماعة ، وتغذية بيت المال بما ينفق على مصالح الناس كافة .

المال حر لأصحابه . . كانت هذه دنيا قريش . . أم المال موجه للخدمة العامة .. كان هذا هو هدى الاسلام .

وعلى ضوء التفسير الاقتصادى . لجوانب من تعاليم الاسلام . يمكن أن نفهم بعض البواعث . للصراع الرهيب . الذى استمر بين سيدنا محمد ومخالفيه أكثر من عشرين عاماً . واحتاج إقرار هذه القواعد الجديدة . إلى حروب الردة بعد وفاة رسول الله . وهى أيضاً حروب رهيبة . توفرت لها عزيمة رجلين . من أعظم رجال التاريخ كله . وهما أبو بكر الصديق . وخالد بن الوليد . وجماعة المؤمنين الصادقين . من الصحابة . . المهاجرين والأنصار .

٤ وصوم رمضان

الصوم هو الإمساك عن الشيء ، والامتناع عن عمله . تقول : صامت الريح إذا ركدت . وتقول أرض صوام . لا ماء بها . ومن معانى الصوم الصمت .

والصوم عبادة قديمة (١) ، وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر للصوم عن الكلام ومن ذلك أن الله تعالى أوحى إلى مريم البتول بعد ولادة المسيح عليه السلام :

« فإما تَرَيِنَّ مِنَ البشر أحداً ، فقولى إنى نذرتُ للرحمنِ صوماً ، فلن أكلمَ اليومَ إنسياً » ... قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف : إنهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت ، لأنه نسخ فى أمته . وفى سورة آل عمران (٤١) : « قال رب اجعل لى آية . قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا .. » وروى الطبرى عن مصادره كلها أن هذا الصيام عن الكلام ، كان عقابا لزكريا لأن الملائكة بشرته بميلاد يحيى . فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه . فأخذ عليه بلسانه .

وفى الاصطلاح الاسلامى ، صوم شهر رمضان ، بشروط وقواعد معينة ، هو الركن الرابع من أركان الإسلام .

وقد فصلت سورة البقرة عبادة الصيام (١٨٣ — ١٨٤ — ١٨٥) . إذ جاء فيها :

« يا أيها الذين آمنوا ، كتبَ عليكمُ الصيامُ كما كتبَ على الذينَ مِنْ قبلِكم لعلَّكم تتقونَ ، أيَّاماً معدوداتٍ ، فمنْ كانَ مِنكم مريضاً أو على سفرٍ فعدَّةٌ مِن أيَّامٍ أُخرْ ، وعلى الذينَ يطيقونَهُ ، فديةٌ ، طعامُ

---

(١) الصوم الكبير عند المسيحيين الارثوذكس ٥٥ يوما قبل عيد القيامة . وصوم الميلاد ، أو الصوم الصغير ، عند المسيحيين ٤٠ يوماً قبل عيد الميلاد ، يبدأ عند الغربيين فى ١٦ من نوفمبر ، وعند الشرقيين فى ٢٦ منه « الموسوعة الميسرة »

مسكين . فمن تطوع خيراً ، فهو خير له ، وأن تصوموا ، خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر . ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون »

وقد ذكر القرآن الكريم تفاصيل وافية عن الصيام اكثر مما ذكر عن العبادات الأخرى ، مثل الصلاة ، التى أخذت تفاصيل أدائها عن سنن رسول الله .

وروى عن بعض الصحابة — منهم قتادة ومعاذ بن جبل — أن رسول الله قدم المدينة فصام يوم عاشوراء ، وثلاثة أيام من كل شهر ، ثم أنزل الله عز وجل فرض شهر رمضان ، كما ورد فى سورة البقرة .

وقد وردت أقوال كثيرة فى تفسير حد المرض الذى يبيح الأفطار ، وعن الشافعى أنه لا يفطر المسلم حتى يجهده الجهد غير المحتمل والرأى أن الصوم واجب على كل مسلم ومسلمة بالغ ، عاقل ، سليم ، معافى من المرض الذى يستطيع معه الصوم ، ويشترط فى الأنثى أن تكون خالية من الحيض أو النفاس ، وألا تكون حاملا ، ويؤذى حملها الصيام ، والمرضع التى يؤذى رضيعها الصيام

وإطعام من لا طعام له فى الفدية . هو ما كان المفطر يتناوله خلال يومه الذى أفطره . مع قضاء أيام الافطار ، لمن لهم أعذار ، المرض المانع أو العذر المانع ، عند ما يتمكنون من الصيام ، وكذلك الحال فى السفر ، حتى يقيم المسافر فيقضى ما عليه .

ومن زاد فى إطعام اكثر من مسكين ، فهو خير ، والصيام خير من الفدية .

وقد أجمل ابن جرير الطبرى القول فى الافطار بسبب المرض ، فذكر أن

الصواب من القول فى ذلك أن «المرض» الذى أذن الله تعالى ذكره ، بالإفطار معه فى شهر رمضان ، من كان الصوم جاهده جهداً غير محتمل ، فكل من كان كذلك فله الافطار وقضاء عدة من أيام أخر . وذلك أنه إذا بلغ ذلك الأمر . فان لم يكن مأذوناً له فى الافطار ، فقد كلف عسراً ، ومنع يسراً ، وذلك غير الذى أخبر الله أنه أراده بخلقه بقوله : يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، وأما من كان الصوم غير جاهده ، فهو بمعنى الصحيح ، الذى يطيق الصوم ، فعليه أداء فرضه . (١)

أما السفر المبيح للافطار . فقد وردت فيه أقوال كثيرة :

قال ابن عمر : أرأيت لو تصدقت على رجل بصدقة فردها عليك ، ألم تغضب؟ فانها صدقة من الله تصدق بها عليك

ويبدو أن ابن عمر كان متشدداً فى هذا الأمر ، فقد جاء فى مسند احمد عنه وعن جابر : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الاثم مثل جبال عرفة .

وروى ابن هريرة أنه كان على سفر مع أبيه الصحابى الجليل فى رمضان ، قال : كنت أصوم ، ويفطر . فقال لى أبى : أما انك إذا أقمت قضيت . (أى أعدت الصيام)

ومثل هذا روى عن عمر بن الخطاب : عند ما قدم عليه قوم وقد صاموا رمضان فى سفر . فقال لهم : والله لكأنكم كنتم تصومون ، فقالوا : والله يا أمير المؤمنين لقد صمنا ! فقال : فأطقتموه ! (أى قدرتم عليه) قالوا : نعم . قال عمر : فاقضوه . فاقضوه

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أميراً على المدينة ، فذكر فى مجلسه أن عبد الله بن عمر كان لا يصوم فى السفر . أما عائشة أم المؤمنين فكانت تصوم وتجادل القوم فقال لهم الأمير : اللهم عفواً . . إذا كان يسراً فصوموا ، وإذا كان عسراً فافطروا .

---

(١) تفسير الطبرى ج ٣ ص ٤٥٩

الروحية أو حياته الخلقية ، وهو ضبط النفس ، وشحذ عزيمتها ، وقدرتها على الفكاك من أسر العادات ، وتطويع الجسد لدواعى العقل والروح .. والصيام الاسلامى ، هو أجدى ضروب الصيام فى تحقيق هذا المقصد ، لأنه يجدد القدرة على ذلك كل يوم مدى شهر من شهور السنة ، ولا يكون قصاراه نقلة واحدة من عادة شهور إلى عادة شهور ..

ويشير العقاد إلى موضوع الصحة البدنية فى الصيام ، بعد أن تحدث عن الصحه الروحية فيقول : ويقول بعض المتعللين بقواعد الصحة إن الصيام على هذا النحو ، يخل بوظائف الهضم ، وما يتصل بها من الوظائف الجسدية . وهو قول لا يؤيده الواقع المشاهد فى إختلاف أحوال البنيـة الحية فى تدبير طعامها وشرابها ، على إختلاف المنبت والاقاليم وعادات المعيشة . وما رأينا الناس قد احتاجوا قط إلى تربية إجتماعية قوية ، أو تربية فردية عالية ، إلا كان قوامها ترويض الجسد على طعام غير طعامه المألوف ، وتعريضه لطوارىء من تقلبات الجو ، وتقلبات المعيشة غير التى تعرض لها ، ونشأ عليها .. كذلك تربى الجيوش ، وكذلك يربى الملوك والأفراد !

وتلحق بفكرة الفرائض الدينية ، فـكرة العيدين فى الإسلام ، وهما : عيد الفطر ، وعيد الأضحى . فعيد الفطر تحية للواجب ، وعيد الأضحى تحية للفداء . وليس للنفس الانسانية غاية من الأدب بعد رياضتها على الواجب ، ورياضتها على الفداء (١)

* * *

ونحن نرى أبناء المسلمين ، وبناتهم — وهم فى عمرهم الباكر — يتعلقون بالصيام قبل أن يكون مفروضا ، ويحاولونه جاهدين ، لما يحسونه من أنه مقياس للاحتمال ، وميزان للصلابة .. حتى إذا شبوا ، كان الصيام عادة وعبادة ، تلحق بالفرد كل منقصة إذا هو أهملها ، ويعيبه عليها الناس جميعا . فى حين أنهم لا يوجهون نفس الملام لمهمل الصلاة أو الزكاة .. ذلك أن الصيام فى التقدير العام

---

(١) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ١٥٢

مقياس لقوة الخلق ، ومقياس لعمق الايمان . وجميل من جمهرة المسلمين هذا الاحساس ، على أن ينسحب على العبادات جميعاً ، ولا يقف عند الصوم وحده .

وكثيراً ما نهى المتحدثون ، وخطباء المساجد ، عن حدة الطبع ، فى فترة الصيام ، والاسراع إلى الغضب ، أو إهمال الواجب ، والتكاسل فى العمل .. وتسمع من هؤلاء قولهم: اللهم إنى صائم .

ترى كيف تتفق هذه العبادة ، مع الاخلال بقاعدة أصيلة من قواعد السلوك الاسلامى ، وهى الصبر ، والاستقامة فى القول والعمل .. وهل تؤدى فريضة من الفرائض ، إلى التجاوز عن قواعد أخرى ، هى بمثابة أم الفرائض ، والتى ماشرعت أصلا إلا لتكون سنداً لبناء مجتمع سليم متصل بالله .. ان العبادات جميعا — والصيام فى مقدمتها — لا تغنى عن السلوك القويم .

ان من أركان الصيام الواجبة الأداء ، أن يبيت المسلم نيته على أداء هذه الفريضة ، قبل الفجر ، وقد ورد عن رسول الله : « من لم يبيت النية قبل الفجر، فلا صيام له » فيقول مثلا : نويت صيام غد من شهر رمضان إيماناً وإحتساباً لوجه الله الكريم .

فإذا كانت النية بالقلب واللسان مما نص عليه، فهى تمهيد وتنبيه إلى أن يلتزم الانسان فى عامة يومه قواعد معينة إلى جانب الامساك عن الأمور الثلاثة المنصوص عليها ، وهى الغضب ، والعيب ، والاهمال ، والاسراف فى القول ، والامتناع عن التضييع بكافة أنواعه ،

وكان من عادة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أن يفطر على قليل من التمر والماء ، ثم يؤدى صلاة المغرب ، ثم يفطر على طعام معتدل . وتأخير السحور كذلك مستحب ، حتى لا تزيد ساعات الصيام عن القدر المقرر لها . وذلك لأن للعبادات قواعدها وشروطها ، والاعتدال فى كل شىء هو روح الإسلام ، وسره الخالد .

إننا سمعنا عن صائم الدهر ، الذى يظل ما بقى له من أيام الحياة صائما إمعانا فى التعبد ، والقربى إلى الله . ولم نجد أحدا انكر هذا الأسلوب فى العبادة ،

ما لم يكن سببا فى تعطيل القيام بالواجبات المعيشية العادية ، وقد نعى أمير المؤمنين عمر على عابد انقطع إلى المسجد ، وكان أخوه يعمل ويعوله . فإن الذى استحق الجنة هو الأخ العامل ، قبل الأخ العابد .. فلا رهبانية فى الإسلام ، ولكن توازن سليم أمين ، بين مطالب الدنيا ، ومطالب الآخرة .. بين حق الله ، وحق الحياة ..

ونحن نعرف كثيرين من المسلمين ، يتابعون صيامهم يوما أو يومين معلومين من كل أسبوع : ووالله لو لم يكن هذا من أمر الدين ، ولا ورد به نص ثابت — وهو ما ترجحه — فإنه جميل فى أمر الدنيا .. لأنه تذكير دائم للانسان بما يجب أن يروض جوارحه عليه من قيد يعقبه تحلل من هذا القيد . إنها رياضة نفسية ، بالغة القيمة ، فى عالم تدوى فيه نواقيس المادية الجامحة ، ولا يكتم رنينها ، إلا مثل هذه العبادات .

ان كل عبادة مما بنى عليه خاتم الأديان ، تذكرنا بقوله تعالى فى سورة القصص: « وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا ، وَأحسنْ كما أحسن اللهُ إليك »

ومن أحاديث رسول الله فى الصوم ـ كما ورد فى مسند أحمد (٨٠٤٥) ـ عن أبى هريرة : الصوم جنة . فاذا كان أحدكم يوما صائما ، فلا يرفث ، ولا يجهل ، فإن امرؤ شتمه أو قاتله ، فليقل : إنى صائم .

وفى هذا الحديث ، حث على ألا يجهل الناس ، أى ألا يتخلقوا بخلق الجاهلية من الحمية والرغبة فى القتال بحجة أن الصيام يثير أعصابهم .

وما أكثر ما حض رسول الله على حسن الخلق فى كل ظرف ، وفى كل وقت ، سئل عليه السلام عن أكثر ما يلج الناس به الجنة فقال : حسن الخلق .

وأنه يقول عليه صلوات الله وسلامه : لا يشكر الله من لا يشكر الناس .

وما دام الصوم لله تعالى ، فلا معنى لأن يتظاهر به الناس ، وليس أجمل من أن يظل ما بين الانسان وربه فى الخفاء ، كلما أمكن الخفاء . إن رسول الله يقول لنا:

من صام يوما فى سبيل الله زحزح وجهه عن النار بذلك سبعين خريفـــا ». (المسند ٧٩٧٧)

***

وشهر رمضان محدد فى الحديث الشريف : (إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فافطروا ، فان غم عليـكم فصوموا ثلاثين يوما).

وإنا نجد فى هذه الايام شعوب المسلمين ، تختلف فى بدء الصيام ، وبالتالى تختلف فى ختامه ، وفى أيام عيدها . مع أن العلم الحديث قدم لنـــا من وسائل الرؤية الواضحة ، ما يمكن من رؤية الهلال. وما كان أيسر أن نتفق على واحد من هذه المراصد ، أو اثنين ، أو ثلاثة فى أماكن متباعدة من أرض المسلمين ، وأيها رأى الهلال ، أغنت رؤيته عن رؤية الباقين ، ونودى فى أمة محمد عليه السلام ، بان رمضان أقبل . وأن الصيام وجب ، وبهذا يتحقق نوع من الاجماع جـدير بتحقيق معنى من معانى الوحدة ، والإلتقاء فى طاعة الله ، بعباداتنا وكوننا أسرة كبرى من المؤمنين القانتين العابدين ..

ولـكن هذه الجفوات العارضة ، ستزول حتما ، وسيفىء الجميع إلى كلمة سواء، فى شأن دينهم وعباداتهم ، ومعاملاتهم .

وقد روى عن أبى هريرة قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتعجل شهر رمضان يصوم يوما أو يومين ، إلا رجلا كان يصوم صياما ، فيأتى ذلك على صيامه) مسند أحمد ٧٧٦٦

٥ وحج البيت

إذا كانت الصلاة موعدا للوقوف بين يدى الله سبحانه وتعالى خمس مرات فى اليوم ، أو تزيد . . .

فان الحج موعد العمر كله فى رحاب الرحمن ورضوانه . . وقد يتكرر هذا الموعد حسب ظرف الانسان وطاقته .

وإذا تأملنا فى تفاصيل الحج ، وفرضه كعبادة إسلامية ، نجده يرمز إلى استمرار ، الحياة ، ويشير إلى أن التوحيد قديم ، وأن الفضيلة لها أصولها فى الضمير البشرى ، منذ كافح ابراهيم الخليل كفاحه المشهور ، وسط العقائد الوثنية الراسخة .

الوصول إلى أماكن الحج ، يذكرنا على الفور بهذا الابتداء الرائع منذ قامت الكعبة المشرفة ، فى بساطتها ، واستقامة تكوينها والفكرة التى أوحى بها الله لخليله إبراهيم ، ولابنه إسماعيل .

ومن عصر ابراهيم عليه السلام ، توالت أحداث ، ونزلت كلمة الله على أنبياء ومرسلين ، وردت انباء بعضهم ، ولم ترد أنباء البعض الآخر . وتابعت البشرية جهادها ، ليستقر الضمير الانسانى على قواعد راسخة ، من حب الخير ، وكره الشر ، والاتجاه إلى خالق الكون ، الواحد الاحد ، وجعل السلوك الانسانى ، قائما على العدل ، والرحمة ، والامتناع عن العدوان على النفس والمال . واشاعة الامن بين الجماعة حتى تنمو ، وتعمر ، وتكشف من أسرار الكون ، مايكشف عن عظمة الخالق ، وما أبدع فى ملكوته . . . وفى هذا فليتنافس المتنافسون .

حتى إذا أذن الله ، بأن تتم كلماته لعباده ، بعبث بخاتم الرسل ، سيدنا محمد عليه أفضل صلاة وتسليم ، ليجدد عهد ابراهيم واسماعيل ، فى نفس البقعة التى اختارها الله قديما لإقامة بيت التوحيد ، وليضيف إلى رسالات جميع المرسلين من كلمات ربه ، ما يكفى البشرية فى مقبل أيامها ، لتهتدى فى سيرها ، وتستقيم على

طريقها ، وتأمن العثار ، الذى صادف أيامها الغابرة ، والبوار الذى دمر حضارات وأفنى أمما وشعوبا . . .

فإذا أنت وصلت إلى مكة المكرمة ، وصعدت ونزلت ، وسرت ووقفت ، فأينما وليت وجهك فستجد هذا التاريخ حاضر أمامك .. تاريخ خمسة وعشرين قرنا أو تزيد ، مسطور على هذه الصخرة ، وهذا الطريق ، وفى هذا الغار ، وهذا الجبل ، وفوق رمال هذه الصحارى . .

وما من كلمة صاحبت الرسالة المحمدية ، إلا وجدت ما يؤيدها ويفسرها فى معالم الطبيعة حولك . . إن ثلاثة وستين سنة عاشها سيدنا محمد بن عبد الله ، مخطوطة أمامك بمعالم الطبيعة كلها من تبوك فى أقصى الشمال إلى الطائف فى أقصى الجنوب ، إن أنت رغبت فى مزيد من السفر والدراسة . فإذا أنت وقفت بين المدينة المنورة ومكة المكرمة فهذه سنوات الحياة ، إلا قليلا ، قضاها صاحب الرسالة ، مجاهدا من أجل حياة أفضل ، وفكر أقوم ، وراحة نفس وهداية ضمير . . .

وما من مرسل أو نبى ، حفظ التاريخ اسمه ، ونزلت به كتب السماء ، تجد دقائق حياته باقية ثابتة كما تجدها فى هذه البقاع مقترنة بخاتم المرسلين . .

هل تذكر آدم ، الذين يتحدثون عن أثر لقدمه فى سيلان ، وفى عشرة أماكن أخرى !

هل تذكر نوحا ، وفلكه المشهور ، يتحدثون عنه فى جبل أرارات وفى جبل آخر يبعد هذا الجبل مئات وآلاف من الأميال ؟

حتى موسى ، اختلفوا فى الجبل الذى ورد نص على أنه فى طور سيناء ، فقد وردت تفسيرات عن أكثر من جبل فى شبه الجزيرة وقف عليه نبى الاسرائيليين مع ألواحه المشهورة .

وعيسى عليه السلام ، لم يسلم تاريخه من اختلاف ، فان عشرين سنة أو تزيد أى ثلثى الاعوام التى عاشها ، مسكوت عن تفاصيل حياته أثناءها ، وقد ذهب به المؤرخون و الباحثون إلى أكثر من مكان .. حتى الهند ، وصلوا به اليها .

كل هذا تسمعه ، وربما ترى بعض معالمه . .

ولكن نبيا مرسلا وحيدا فى تاريخ هذه البشرية ، هو سيدنا محمد ، لم تخف دقيقة ، ولا جليلة من أيام حياته إلا تراها مسطورة ، وترى عليها الدليل بعد الدليل . وليس كالحج ، يبسط أمام حواسك ، هذه المعالم وهذه المعانى جميعا .

إنك مطالب - كمسلم - بان تؤمن بما نص عليه القرآن من كتب السماء ورسل الله تعالى جميعا ، فان ديننا لا يفرق بين أحد من رسله . ولا تستطيع أن تجد ما يثبت ايمانك بمن هداك إلى هذا الفيض من السماحة ، وسعة الأفق ، والادراك لما سبق الاسلام ، وما جاء به الاسلام ، مثل الحج ، ومناسكه ، ودعائمه ،ورحلاته واجتماعك مع المسلمين القادمين من كل فج عميق .

ولقد قدمنا فى هذا الكتاب ، نماذج من تمسك دعوة الاسلام بابراهيم خليل الرحمن ، وبما جاء به ، ولأمر ما لم يسلم بعض مبشرى اليهودية والمسيحية برحلة إبراهيم إلى الحجاز ، ولا بما حدث لإسماعيل فى هذا الوادى الجدب ، الذى لا ماء فيه ولا زرع . . وذلك لكى لا يكون لداعية التوحيد الأكبر فرع من نسله أقام فى هذه البقعة ، وأن تنحصر دعوة التوحيد فى نسله من اسحق ولد سارة .. وهم أنبياء بنى إسرائيل . ولكن ماشأن هذا البناء البسيط فى سموه ، العميق فى تعبيره وهو الكعبة المشرفة . . وما شأن الحجر الأسود ، ومن الذى وضعه فى مكانه وكيف تجمعت حوله قريش ، وحجت اليه قبائل العرب ، ليكون طوافها به منسكا ، وليكون جواره مثابة للناس وأمنا .

ومن مفارقات التاريخ أنهم يحصون عجائب الدنيا ، وأنها سبع عجائب ، بعضها ذهب ، وبعضها ما يزال قائما . . وكان أولى بالذكر ، وأجدر أن يكون فى مقدمة العجائب بناء الكعبة ، لا بما فيه من فن المعمار ، ولا متانة فن التشييد ، ولكن بما يمثله من معنى ، ابقى على الزمن من الزمن نفسه ، وحسبه أن تتجه اليه قلوب ووجوه مئات الملايين من البشر ، خمس مرات فى اليوم ، تستمد من تمثله فى خاطرها ، نقاء الضمير ، وعظمة الإله الواحد الأحد .

أن بعض عوادى الزمن جارت على البناء من سيل أو حريق أو غيره ، فكان حفظته وجيرته يسارعون إلى إقامته ، بنفس أبعاده ، وفى نفس مكانه ،

ومن ذلك ماحدث فى شباب رسول الله عليه السلام ، عندما اختير ليفتى فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، والبناء يجدد . . فكانت فتواه ، معبرة عن لقب (الأمين) الذى عرف به عليه السلام بين قومه .

أجل . . أجل صدق الله وتباركت آياته ، وهو القائل . (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين)

* * *

واستجابة لرأى بعض الأصدقاء ، فانا نخصص الصفحات التالية ، لشرح مناسك الحج ، واخترنا من عشرات المراجع التى فصلت هذا الموضوع ، رسالة حديثه أعدتها وزارة الأوقاف بحكومة الكويت ملحقا لمجلة الوعى الإسلامى ، لتوزع على المسلمين فى موسم الحج الذى يصدر بعد موعده بقليل كتابنا هذا (١٣٨٦هـ ١٩٦٦م) ، فقد اتسمت الرسالة ؛ بالوضوح والشمول ، جزى الله الذين أعدوها عن المسلمين خير الجزاء (١) .

* * *

قال تعالى: (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات)

الحج هو قصد البيت الحرام للطواف والسعى والوقوف بعرفة وأداء سائر المناسك. وهو فرض يؤدى فى العمر مرة على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع ذكرا كان أنثى .

ودليل فرضيته قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وقول النبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا) .

---

(١) من الكتب التى عرضت لشئون الحج ؛ فى صدق وافاضة كتاب فى منزل الوحى لمحمد حسنين هيكل ، والحج لأحمد حسين

ويجب على كل قادر على الحج أن يسارع اليه ولا يؤجله لعام آخر (١) فربما كان أجله قصيرا فيلقى الله وهو عاص له آثم بتركه ركنا من أركان الاسلام، وفريضة من فرائضه.

روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (تعجلوا الى الحج فان أحدكم لا يدرى ما يعرض له).

أما العمرة فهى كذلك فرض عند الشافعية والحنابلة كالحج وسنة مؤكدة عند غيرهما.

واستدل الشافعى وابن حنبل على فرضية العمرة بقوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) وبحديث للسيدة عائشة رضى الله عنها فقد سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: هل على النساء من جهاد يارسول الله فقال: (عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة).

ولم يفرض الحج على المسلم إلا مرة واحدة فى العمر لقوله صلى الله عليه وسلم (الحج مرة فما زاد فهو تطوع) إلا أنه يسن الأكثار منه ومن العمرة تطوعا لقول أبى هريرة رضى الله عنه: قال النبى صلى الله عليه وسلم (العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).

ومنكر فريضته كافر لانكاره أمرا معلوما من الدين بالضرورة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذهب فى السنة السادسة للحج وإنما للعمرة.

وفرض فى السنة التاسعة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم .. وقيل فرض فى السنة السادسة من الهجرة والأول أصح ..

وشروط الحج: الاسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والاستطاعة، والعلم بوجوبه لمن كان بعيدا عن بلاد المسلمين. ووجود محرم مع المرأة أو نسوة ثقات

---

(١) ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد الى أن الحج واجب على الفور عند الاستطاعة وقال معظم الشافعية بوجوبه على التراخى بشرط عدم احتمال فوته بكبر سن أو مرض يفضى الى الموت غالبا، وأن يعزم على الفعل فيما بعد وإلا كان آثما.

فلا يجب على كافر ولا على صبي ، ولكن لو فعله الصبي صح منه مع عدم سقوط الفرض عنه .

ولا على مجنون مع عدم صحته منه لو فعله .

ولا على من فيه رق ، ولكن يصح منه ويثاب عليه .

كما لا يجب على غير المستطيـــع . ولكن لو كلف نفسه أو تبرع له أحد بنفقات حجه سقط عنه الفرض .

والاستطاعة أمر نسبي يختلف باختلاف الأفراد وظروف معيشتهم ، يلزم لأمثالهم فى الحج وصحتهم وقوة احتمالهم . وأمنهم على أنفسهم (١) .. إلى غير ذلك مما يوفر للشخص الاطمئنان على نفسه ، وعلى من يتركهم من أسرته، وما وراءه من مصالحه ، والضابط لهذا ألا يترتب على أداء الحج ضرر ومشقة فادحة له ولمن يعولهم :

وأركان الحج الأربعة (٢) : الاحرام ، والوقوف بعرفة، وطواف الافاضة والسعى بين الصفا والمروه .

وعلى هذه الاركان تتوقف صحة الحج فمن ترك ركنا منها لا يصح حجه .

* * *

للإحرام ميقات زماني ، وميقات مكاني .

---

(١) ولهذا اشترطوا فى وجوب الحج على المرأة أن تكون آمنة من الفتنة سواء بوجود زوج أو محرم أو نسوة ثقات معها على أنه يصح منها لو خرجت دون وجود هؤلاء معها ..

(٢) للحج ركنان فقط عند الاحناف هما : الوقوف بعرفه وأكثر طواف الافاضة . وقال الشافعى أن أركان الحج ستة وهى الأربعة المذكورة وإزالة ثلاث شعرات على الأقل كلا أو بعضا من الرأس وترتيب معظم الاركان بأن يقدم الاحرام على الجميع والوقوف على طواف الافاضة والحلق .. والطواف على السعى ؛ أن لم يكن سعى بعد طواف القدوم .

فميقاته الزمانى : يبدأ من أول يوم من شوال إلى طلوع فجر يوم النحر . فلو أحرم قبل هذا الوقت أعنى قبل شوال أو بعده أعنى بعد طلوع فجر يوم النحر فلا يصح حجا ، ولكن يصح عمرة .

ومبقاته المكانى:

يختلف باختلاف الجهات . فأهل مصر والشام والمغرب وبلاد الأندلس ميقاتهم : الجحفة (رابغ) .

وميقات اهل المدينة ذو الحليفة (أبيار على).

وميقات أهل العراق (ذات عرق) موضع فى الشمال الشرقى من مكة .

وميقات أهل الكويت وأهل نجد (قرن المنازل) وهو قريب من المكان المسمى الآن بالسيل . وميقات أهل اليمن والهند (يلملم) جبل جنوبى مكة ، وهذه المواقيت حددها النبى صلى الله عليه وسلم لأصحاب البلاد التى ذكرنا ولمن مر عليها من غيرهم ممن أراد الحج أو العمرة ، ويحرم على المسلم الذى يريد الحج أن يتجاوز بدون أحرام سواء كان حجه براً أو بحراً أو جواً ، لقوله صلى الله عليه وسلم — لما وقت هذه المواقيت — (هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة) .

ملاحظة هامة : أهل هذه المواقيت إذا توجهوا أولا لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أداء فريضة الحج أصبح أحرامهم من آبار على .

فإذا ركب الحاج دابته أو سيارته أو باخرته أو طائرته ندب أن يسمى بسم الله تعالى ويحمده ثم يكبر ثلاثا ويقول :(سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وأنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم انى اسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ماترضى : اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده . اللهم انت الصاحب فى السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب فى الاهل والمال) .

وعليه أن يصون لسانه وعينيه وجميع جوارحه عن كل ما يغضب الله تبارك وتعالى لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) .

* * *

إذا اقترب الحاج من الميقات كان من المستحب لكل من الرجال والنساء قبل الاحرام أن يغتسل ويتطيب ، ويقص شعرة ويقلم أظافره إذا أمكنه ذلك .

فإذا كان مسافرا بالطائرة ، وكان الغسل والتطيب وخلع الملابس متعذرا فيها اغتسل وتطيب ، ولبس ملابس الاحرام فى بيته أو فى المطار (١) . فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين أن أمكن ونوى الحج ان كان منفردا ، أو هما معا ان كان قارنا ، ويعتبر هذا الأحرام أول ركن من الأركان ، والمهم أن يكون الحاج عند مكان الاحرام متجردا من ثيابه لابسا ملابس الاحرام . وإذا كان قد نوى الاحرام قبل بلوغه الميقات فلا بد أن يكون مستحضرا النية عند بلوغه (٢) ويلبى إذا حاذى الميقات أو دنا منه ، لان النبى صلى الله عليه وسلم أحرم من الميقات ، وقال فى حجة الوداع (خذوا عنى مناسككم) أما أهل مكة ومن فيها من غير اهلها فميقاتهم مكة نفسها فيحرمون للحج من المكان الذى يوجدون فيه . وللعمرة بالخروج إلى ادنى الحل والاحرام من هناك :

وعلى الحاج ان ينوى الدخول فى النسك بقلبه ولكن يسن النطق بالنية بأن يقول مريد الحج (نويت الحج واحرمت به لله تعالى..اللهم يسره لى وتقبله منى) ويقول مريد العمرة « نويت العمرة وأحرمت بها لله تعالى» ويقول مريد القرآن (الجمع بينهما) « نويت الحج والعمرة وأحرمت بهما لله تعالى» .

---

(١) لا بأس بوجود أثر الطيب عليه بعد الاحرام .

(٢) فاذا جاوز الميقات المختص دون نية الاحرام كان عليه أن يرجع اليه ويحرم اذا أمكنه والا نوى حيث هو ، ولزمه دم .

ويسن قرن الإحرام بالتلبية والتلبية فى ذاتها سنة (١) ووقتها عند الجمهور من وقت الإحرام إلى رمى جمرة العقبة يوم النحر، ويستحب تجديده عند تغير الحال كصعود جبل أو انحداره من مرتفع أو ركوب فى سيارة أو نزول منها أو لقاء صحاب، وعقب كل صلاة مادام محرما ويستحب للرجل أن يرفع صوته بها، أما المرأة فتسمع نفسها ومن يليها ويكره لها أن ترفع صوتها أكثر من ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم «جاءنى جبريل فقال مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بها فانها من شعائر الحج» ويصلى ويسلم على النبى عقبها ثم يدعو بعدها بما يشاء.

وصيغة التلبية هى: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك لبيك»

* * *

ويسن للمحرم أن يغتسل قبل دخول مكة، وهذا الغسل للنظافة (٢) فيطلب من الحائض والنفساء، كما يستحب له أن يدخل مكة نهاراً، وأن يكون دخوله أعلاها من بابها المعروف — بباب المعلى (٣) وإذا دخلها بدأ بالمسجد الحرام بعد أن يطمئن على أمتعته، ويتوضأ، فاذا وصل اليه سن له تقديم رجله اليمنى. ويقول «بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، اللهم افتح لى أبواب رحمتك». ويقول عند مايقع بصره على الكعبة «اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا، وزد من شرفه ممن حجه، أو اعتمره تعظيما وتشريفا وتكريما ومهابة وبرا، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام» وله بعد ذلك أن يدعو بما يشاء.

---

١ — وعند المالكية واجبة وعند أبى حنيفة شروط ويلزم على تركها حينئذ دم

٢ — المالكية يقولون بأن هذا الغسل للطواف لا للنظافة فلا تفعله الحائض والنفساء لأنهما ممنوعتان من الطواف

٣ — وإن كان دخول مكة الآن يكون حسب ما يرسمه رجال المرور والسيارات.

ثم يشرع بعد ذلك فى طواف القدوم لأنه أول شيء يعمله الداخل تحيـــة للبيت وهو سنة عند غير المالكية لمن نوى الحج فقط. أما المعتمر فيجزئه طواف العمرة عند القدوم عن طواف السنة . ويطوف سبع دورات يرمل فى الثلاث الأولى منها إن لم يؤذ أحدا ، ويمشى فى الأربعة الباقية ، ويبدأ كل دورة بالحجر الأسود ويختم به جاعلا البيت عن يساره ، والرمل هو الجرى بخطوات ضيقة بحيث يهتز بدنه كله ، ويستحب له أن يجعل وسط الرداء تحت منكبه الأيمن . وطرفيه على عاتقه الأيسر . وإن شك فى عدد الأشواط بنى على اليقين . فاذا شك هل طاف خمسة أشواط أو ستة مثلا جعلها خمسة . ويستلم الحجر الاسود فى كل مرة ويقبله إذ أمكنه ذلك ، وإلا أشار اليه من بعيد ، ويقول عند استلامه ، أو الاشارة اليه : اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا رمل على المرأة بل عليها أن تمشى المشية المعتادة لها أثناء طوافها بالبيت . .

وبعد الطواف يصلى ركعتين يقرأ فى الركعة الأولى سورة (الكافرون) وفى الثانيـة سـورة (الاخلاص) وتجزىء عنهما صلاة أى فرض أو نفل ، ويسن أن تكون فى مقام ابراهيم اذا أمكن .

ويشترط فى صحة الطواف ما يشترط فى صحة الصلاة من الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر والنجاسة وستر العورة لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الطواف صلاة إلا أن الله تعالى أحل فيه الكلام فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير ، ويشترط أن يكون خارج البيت ، فلو طاف فى الحجر لا يصح طوافه وينبغى للطائف أن يحذر ما أمكن إيذاء الطائفين بمزاحمتهم أو دفعهم باليد أو غير ذلك لأن هذا ينقص ثوابه وربما يذهب به كله . . وبعد الانتهاء من الطواف وصلاة ركعتين يسن له أن يأتى الملتزم (باب الكعبة) ويشرب من ماء زمزم الذى قال له عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام الطعم ، وشفاء السقم) ويسن أن ينوى الشارب عند شربه الشفاء ونحوه مما هو خير فى الدين والدنيا ، فان الرسول صلى الله عليه

وسلم قال (ماء زمزم لما شرب له) وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا شرب من ماء زمزم يقول : (اللهم إنى أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء) .

وبعد أن يشرب من ماء زمزم يتوجه للسعى إن كان يريد السعى .

* * *

والسعى ركن من أركان الحج والعمرة عند غير الحنفية أما عندهم فواجب ، ويتم بالتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط بالمشى أو الركوب . وسعى المحرم بالعمرة يكون بعد طواف العمرة وبهذا تنتهى أعمالها . ويتحلل من إحرامه بها بالحلق أو التقصير ... وسعى المحرم بالحج يكون بعد طواف الافاضة إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم . . وسعى المحرم بالحج والعمرة يكون بعد طواف العمرة ويغنيه عن السعى بعد طواف الإفاضة .

شروط السعى بين الصفا والمروة : أن يكون سبعة أشواط تبدأ بالصفا وتختم بالمروة ، ويعتبر السعى من الصفا إلى المروة شوطا ، والعودة إلى الصفا شوطا وهكذا حتى تنتهى الأشواط السبعة . وأن يكون بعد الطواف وأن يوالى (١) بين أشواطه فلو فرق بينهما تفريقا كثيراً استأنفه من جديد . لكن لا تضر استراحة بين أشواطه أو اداء الصلاة مع الجماعة . ويشترط أيضا المشى للقادر عليه (٢) . والنية.وأن يكون السعى فى المكان المعروف الآن . لأن النبى صلى الله عليه وسلم سعى فيه . وقال « خذوا عنى مناسككم »

وفى التوسعة التى تجرى بالحرم جعل المسعى داخله بعد أن كان شارعا على جوانبه حوانيت التجارة ، يختلط فيه الساعون بغيرهم وبالسيارات والدواب كما جعل من طابقين وأقيم عليه سقف يقى الساعين ما كانوا يعانونه احيانا من لهب الشمس ، وتعد توسعة الحرم من أهم وأجل الأعمال التى قدمتها الحكومة السعودية خدمة لبيت الله وحجاجه .

---

١ — وعند الحنفية الموالاة سنة فلا يضر الفصل طويلا .

٢ — المشى عند الشافعية سنة

وسنن السعى بين الصفا والمروة هى :

١ ــ أن يخرج إلى المسعى من باب الصفا .

٢ ــ أن يصعد على الصفا حتى يشاهد الكعبة ولا يسن الصعود على الصفا للنساء إن كان هناك ازدحام .

٣ ــ الإتيان بالذكر الوارد عند كل منهما فيقول بعد استقبال الكعبة :

(الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ولله الحمد . الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . لا إله إلا الله . ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) .

٤ ــ أن يكون السعى بعد الطواف مباشرة ويستحب فيه قراءة القرآن وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سعيه :

(رب اغفر، وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت الأعز الأكرم) .

٥ ــ أن يكون الساعى متطهراً من الحدث والخبث .

٦ ــ أن يهرول وسط الشوط بين المكانين المعروفين الآن بالميلين (العلمين الأخضرين) .

* * *

يسن للحاج أن يتوجه إلى منى وهو فى طريقه لعرفات فى اليوم الثامن من ذى الحجة ويسمى يوم التروية فإن كان الحاج قارناً أو مفرداً توجه إليه بإحرامه وإن كان قد تحلل من العمرة أحرم بالحج من نفس المكان الذى ينزل فيه ، لأن صحابة النبى صلى الله عليه وسلم أقاموا بالأبطح وأحرموا بالحج منه يوم التروية ولم يطلب منهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى البيت ليحرموا عنده .

ويستحب الإكثار من الدعاء والتلبية أثناء التوجه إلى منى ويستحب صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والمبيت بها ، وألا يخرج الحاج منها إلا بعد طلوع شمس يوم التاسع لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ، فان ترك شيئا من ذلك كأن ذهب إلى عرفات مباشرة ولم ينزل بمنى أو خرج من مكة ليلة التاسع فلا شيء عليه ، لأن عائشة رضى الله عنها لم تخرج من مكة يوم التروية حتى دخل الليل وذهب ثلثه .

* * *

بعد طلوع شمس اليوم التاسع من ذى الحجة يسن للحاج — إن أمكنه — أن يتوجه إلى عرفة ، ويغتسل فيها استعدادا للوقوف بعرفة كما يستحب له البقاء بعرفة وعدم الدخول إلى عرفة إلا وقت الوقوف بعد الزوال : فاذا زالت الشمس سن للامام أو نائبه أن يخطب الناس خطبة بليغة يوضح فيها ما يشرع للحاج فى هذا اليوم والذى بعده ، ويأمرهم بتقوى الله عز وجل ، ويحذرهم من محارمه ، وبعدها يصلون الظهر والعصر بآذان واحد واقامتين جمع تقديم مع القصر لفعله صلى الله عليه وسلم . رواه مسلم عن جابر . ثم يبدأ الحجاج جميعا الوقوف بعرفة وكلها موقف إلا بطن عرفه ، والمراد بالوقوف الحضور بعرفات ويندب استقبال القبلة وجبل الرحمة إن كان ذلك ميسرا للحاج ، ويستحب له أن يكثر من الدعاء والضراعة لله عز وجل ويرفع يديه عند الدعاء حتى يرى بياض أبطيه ، وإن قرأ شيئا من القرآن فهو حسن ، ويسن الإكثار من قول : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحى ويميت ، وهو على كل شيء قدير) لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفه وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . وروى الترمذى عن على قال : كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم فى الموقف : (اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيراً مما نقول : اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، واليك مآبى ، ولك ربى تراثى ، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح »

« اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها

معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، والموت راحة لى من كل شر »

« اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، واعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال » .

« اللهم انى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » .

« اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، واسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى . أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير » .

« اللهم رب السموات ورب الأرض ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، فالق الحب والنوى منزل التوراة والانجيل والقرآن ، اعوذ بك من شر كل شىء انت آخذ بناصيته ، انت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنى الدين ، واغننى من الفقر ، اللهم أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت وبك خاصمت ، أعوذ بعزتك أن تضلنى. لا إله إلا أنت ، أنت الحى الذى لا يموت والانس والجن يموتون » .

« اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل ، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لى خيراً ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير . سبحان الله . والحمد لله . ولا إله إلا الله . والله أكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم . وبارك على محمد . وعلى آل محمد ،

كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

شروط الوقوف فى عرفة

يشترط أن يكون الوقوف فى وقته — ووقته من زوال شمس اليوم التاسع من ذى الحجة إلى فجر يوم النحر [1] ويكفى الحضور من ذلك الوقت لحظة تمتد إلى غروب شمس التاسع ان وقف نهـــارا ، فان جاء ليلا أجزأه والأفضل أن يجمع بين جزء من الليل وجزء من النهار ، وأن يكون الحجاج أهلا للعبادة شرعا [2] .

فإذا تحقق له الحضور بعرفه على الأساس السابق فإنه يكون قد أدى أهم ركن فى الحج لقوله صلى الله عليه وسلم: الحج عرفة وبعد هذا يبدأ فى الإفاضة والنزول إلى المزدلفة ثم منى .

* * *

وسنن الوقوف بعرفة كثيرة : منها أن يقف فى المكان الذى وقف فيه النبى صلى الله عليه وسلم عند الصخرات الكبار التى فى أسفل جبل الرحمة إن سهل عليه ذلك ، وإلا أجزأه الوقوف فى أى مكان من عرفة ، وأما النساء فيندب لهن الجلوس فى أى مكان من عرفة ، وعدم مزاحمة الرجال . ومنها أن يكون متطهرا من الحدث والخبث ، مستقبلا القبلة ، مكثرا من الدعاء والاستغفار والتضرع ، واظهار الضعف والافتقار ، ملحا فى الدعاء والانابة لله تبارك وتعالى حريصا على أكل الحلال ، متجردا كل التجرد لله عز وجل ، راجيا منه أن يقبل حجه ويغفر له ما تقدم من زلات ، وما بدر من هفوات ، مخبتا لربه سبحانه وتعالى ، متواضعا له خاضعا خاشعا ، ضارعا محاسبا نفسه عازما على تجديد توبته وأوبته

---

(١) وعند أحمد يبتدىء الوقوف من فجر يوم التاسع .

(٢) يروى الأحناف أن من حضر عرفه فى الوقت المحدد صح حجه سواء أكان ناويا أم لا ، عالما بأنه فى عرفه أو جاهلا ، عاقلا أو مجنونا ، أو مغمى عليه أو نائما أو يقظانا .

لله تعالى، لأن هذا يوم عظيم، يرحم الله فيه عباده، ويتفضل عليهم بعفوه وغفرانه وصفحه وإحسانه، ويباهي بهم ملائكته، ويكثر فيه العتقاء من النار

فينبغي للناس في هذا اليوم أن يخلصوا قلوبهم لله ويكثروا من الدعاء والتضرع ليشعروا بلذة القرب من الله تبارك وتعالى ... فاذا غربت الشمس ودخل الليل وهم بعرفة فقد تم الركن كما حصل الواجب بالحضور نهاراً...

***

وتكون الافاضة من عرفات الى المزدلفة بعد غروب الشمس لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف حتى غربت الشمس وقال: (خذوا عني مناسككم) وقد أفاض النبي عليه الصلاة والسلام بالسكينة وضم زمام ناقته اليه حتى كاد رأسها يصيب طرف رجله وهو يقول (يا أيها الناس عليكم بالسكينة فان البر ليس بالايضاع) يعني الاسراع. رواه البخاري ومسلم. وكان صلوات الله وسلامه عليه يسرع في سيره إذا وجد مكانا متسعا ليس فيه زحام. ويندب في الافاضة الاكثار من التلبية والدعاء والذكر وقراءة القرآن. فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة. فاذا وصل الحجاج إلى المزدلفة صلوا بها المغرب ثلاث ركعات، والعشاء ركعتين قصرا جمع تأخير بأذان واقامتين، وقت وصولهم اليها سواء وصلوا الى مزدلفة في وقت المغرب أو بعد دخول وقت العشاء. ويبيتون هذه الليلة بالمزدلفة ويتحقق المبيت بالوجود فيها ولو بالمرور بها في النصف الثاني من الليل [1]، وإن كان يسن أن يظل بها حتى يصلي الفجر إلا إذا كان له عذر، ثم يقف الجميع عند المشعر الحرام مستقبلين القبلة، ومكثرين من الدعاء والاستغفار والضراعة لله تعالى إلى أن يسفر الصبح.

ولا يتعين أخذ الحصى من المزدلفة واستحبه الشافعية، وما يظنه بعض

---

(١) وعند المالكية في أي وقت من الليل، ولو قبل منتصف الليل، ويسير الى منى وعند الحنفية لا ينصرف قبل طلوع الفجر الا لعذر؟ والا لزمه دم.

الناس من وجوب لقط حصى الجمار من المزدلفة حين وصولهم اليها وإعتقاد الكثير منهم أن ذلك واجب — لا دليل عليه ، ومن أى موضع التقط الحصى أجزأه ذلك ، من المزدلفة أو من غيرها ، والوارد عن الرسول التقاط سبع من حصى الجمار فى هذا اليوم ايرمى بها جمرة العقبة. أما فى الأيام الثلاثة الباقية فيلتقط كل يوم من منى احدى وعشرين حصاة ، يرمى بها الجمار الثلاث. وما يفعله بعض الناس من غسل حصى الجمار لا أصل له، بل يستحب رمى الحصى من غير غسل [1] ويكره أن يكون هذا الحصى قد رمى به من قبل (والممنوع هو الأخذ من مكان الرمى).

***

وإذ أسفر الصبح على الحجاج وهم فى المزدلفة فعليهم أن ينصرفوا الى منى لرمى الجمار ويكثروا من التلبية فى سيرهم. فإذا وصلوا وادى محسر استحب لهم الاسراع قليلا ، فاذا وصلوا الى منى ، قطعوا التلبية عند رميهم جمرة العقبة ، ويكون ذلك بسبع حصيات متعاقبات برفع الحاج يده عند رمى كل حصاة ، ويكبر ويستحب له عند الرمى أن يجعل الكعبة عن يساره ، ومنى عن يمينه ، لأن ذلك ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن رماها من الجوانب الأخرى أجزأه ذلك بشرط ان يقع الحصى فى المرمى .

وبعد رمى الحصى ينحر الحاج هديه ويستحب له أن يقول عند نحره أو ذبحه ، بسم الله والله أكبر . اللهم هذا منك ولك. والسنة نحر الابل قائمة معقولة يدها اليسرى ، وذبح الغنم والبقر على جنبها الأيسر.

وبعد نحر الهدى أو ذبحه يحلق الحاج شعر رأسه أو يقصره ، والحلق أفضل للرجل ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بالمغفرة والرحمة للمحلقين ثلاث مرات وللمقصرين مرة واحدة. أما النساء فليس عليهن حلق وانما عليهن التقصير ويستحب عند الحلق أن يمسك الحاج بناصيته ويقول : الله أكبر (ثلاث مرات) اللهم هذه ناصيتى بيدك . فاجعل لى بكل شعرة نورا يوم القيامة ، واغفر لى ذنبى

---

(1) يسن غسل حصى الجمار عند الشافعية ان شك الحاج فى طهارتها

ياواسع المغفرة . ويقول أيضا ، الحمد لله على ما هدانا . والحمد لله على ما أنعم به علينا . وبعد الفراغ يكبر ثلاثا نسكا . ويقول : الحمد لله الذى قضى عنى نسكى اللهم ائتنى بكل شعرة حسنة ، وأمح عنى بها سيئة ، وأرفع لى بها درجة ، وأغفر لى وللمحلقين والمقصرين وجميع المسلمين . اللهم زدنا ايمانا ويقينا ، وتوفيقا وعونا ، وأغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ويستحب لمن حلق شعره أو قصره أن يأخذ من شاربه ، ويقلم أظافره ، وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لما حلق شعره قلم أظافره ...

وبعد رمى جمرة العقبة والذبح وحلق شعر الرأس أو تقصيره يباح للمحرم كل شيء حرم عليه بالاحرام إلا النساء ، ويسمى هذا التحلل (التحلل الأول) ..

***

بعد رمى جمرة العقبة والذبح والحلق أو التقصير ولبس الثياب المعتادة يسن للحاج أن يتطيب ويتوجه الى مكة ليطوف طواف الإفاضة ، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : (كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت) أخرجه البخاري ومسلم ، ويسمى هذا الطواف طواف الإفاضة أو الزيارة . وهو من أركان الحج . لقوله سبحانه وتعالى: (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذرهم وليطوفوا بالبيت العتيق) يفعل فى هذا الطواف ما سبق أن شرحناه فى طواف القدوم .

وعليه أن يسعى بعده بين الصفا والمروة إن لم يكن سعى من قبل بعد طواف القدوم أما إذا كان قد سعى فانه يطوف ولا يسعى . ويتحلل التحلل الأكبر ، ويرجع به الى حياته العادية فيحل له ما بقى من محرمات الاحرام ، وهو مباشرة زوجته .

والذين لا ينزلون الى مكة يوم النحر ، بل يظلون فى منى حتى يرموا الجمار فانهم يطوفون طواف الإفاضة عندما ينزلون إلى مكة ، ويتحللون التحلل الأكبر إن كانوا قد سعوا قبل طواف القدوم ، وإلا سعوا وتحللوا .

***

ويبدأ رمى الجمار الثلاث فى الأيام التى تلى يوم النحر ، ثلاثة أيام إذا تأخر بمنى ، ويومين إذا تعجل ، وتسمى أيام التشريق ،

والجمار ثلاث . وهى كلها تقع فى وسط الشارع .

الجمرة الأولى (الصغرى) قريبة من مسجد الخيف .

الجمرة الثانية (الوسطى) تبعد عن الاولى بنحو (١٥٥) مترا .

الجمرة الثالثة (الكبرى) وتسمى جمرة العقبة فى مدخل منى - تبعد عن الوسط بنحو ١٥٥ مترا ، ويبدأ الحاج بالاولى ، ويختم بالثالثة . ويفعل ذلك يومين بعد العيد إن أراد الإكتفاء والرحيل لمكة ، أو ثلاثا إذا أراد البقاء .

وعدد الحصى الذى يرميه فى كل جمرة (٧) سبع حصيات ، فيكون مجموع كل يوم ٢١ حصاة . ويكون الحصى مناسبا ، لا هو بالصغير جدا ، ولا هو بالكبير . على أن يتأكد أو يغلب على ظنه إصابة الجمرة ، لان الحصى يكون كثيرا وقد يصعب عليه التأكد . وعليه أن يتحاشى إصابة الناس بما يرميه ما أمكنه ذلك . وينوى فى قلبه ويعزم أن يقهر إبليس ووسوسته له ، ويشتد فى كراهيته لان الرمى ذكرى لما فعله سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الشيطان حين تعرض له حتى يدحره وحدث ذلك ثلاث مرات فى أماكن الجمرات .

يقول الامام الغزالى : (وأما رمى الجمار فليقصد به الرامى الانقياد للامر ، إظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس ، والعقل فى ذلك ، ثم يقصد به التشبه بابراهيم عليه السلام .. إلى أن قال ، فان خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، .. ثم يقول ، وأعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى .. وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم ظهره ، .

وعلى الرامى أن يعرف أنه لا يجوز له أن يفعل ما يفعله بعض الجهلة من الرمى بالاحذية حين تشتد بهم الحماسة . وبعض الائمة يشترط أن يكون من الحجر وبعضهم وسع فى الامر فقال بجواز الرمى بكل ما يخرج من الارض حجرا ، أو خزفا أو آجرا .

وقت الرمي : يوم النحر لجمرة العقبة ، يبدأ عند الشافعي وأحمد من منتصف ليلة العيد الى آخر أيام التشريق . وهذا القول مناسب يحسن الأخذ به تلافيا لشدة الزحام ، وللحرارة الشديدة ، حيث يتمكن الحجاج من الرمي ، قبل أن تطلع الشمس بحرارتها . وغير الشافعي يبدأ الوقت عنده بطلوع فجر النحر ، ويندب أن يكون بعد طلوع الشمس ، ويمتد حتى فجر اليوم الثاني عند أبي حنيفة ويكره تأخيره عن الزوال يوم العيد عند مالك .

أما الايام الاخرى فيبدأ وقت الرمي من الزوال الى الغروب، ويكره تأخيره الى الليل حتى الفجر، لكنه يجزىء عند أبي حنيفة ولا يجوز تأخيره عن الغروب عند مالك وعند الشافعي وأحمد ولو تأخر عن الغروب لا يرمى ليلا وإنما يرمى بعد زوال اليوم الثاني . وهو واجب عند الجميع .

المبيت بمنى : واجب عند الجميع إلا على ذوي الاعذار ما عدا أبا حنيفة فسنة . ويتحقق المبيت بوجوده في منى معظم الليل من ليالي الرمي .

هذا ويجوز للمرضى وكبار السن ، والنسوة الحوامل أن يوكلوا من يرمي عنهم الجمرات كلها ، وليس لهم أن يوكلوا غيرهم ، فيما عدا الرمي من المناسك ، على أن يرمي الحاج الوكيل عن نفسه أولا ، ثم يرمي عن موكله .

***

وإذا احرم الانسان بالحج، أو العمرة فانه يحرم عليه فعل شيء من الاشياء الآتيـــة :

* النكاح وعقده ومقدماته كالمداعبة والملاعبة والقبلة .

* لبس المخيط الذي يلبس عادة كالقميص ، والسروال والجبة والقفطان. فلو لبس ازارا ورداء موصولين بخيط فلا شيء عليه ..

* كما يحرم عليه تغطية الرأس.. ومن لم يجد نعلا جاز له أن يلبس خفا بحيث لا يصل الى الكعبين . وهذا بالنسبة للرجل ، أما بالنسبة للمرأة فتلبس ملابسها العادية الساترة لجميع بدنها ، ما عدا وجهها وكفيها ، ولها أن تستر يديها بغير القفاز ، ووجهها أحيانا إذا احتاجت الى ذلك .

* التعرض لصيد البر الوحشى، أو لشجر الحرم وحشيشه الرطب بقطع شىء منه بقصد الاتلاف أما اليابس فلا شىء فى قطعه ، وكذا الذى يزرع للانتفاع به من حبوب، وخضروات،وما يؤخذ للتداوى أو الانتفاع به فى المبانى،غيرها

* الحلق والتقصير والتطيب وتقليم الأظافر . ولا حرج فى غسل الرأس والبدن بالماء والصابون الخالى من الرائحة الطيبة .

ولا بأس بالاستظلال بشىء، أو خيمة ، أو بيت، أو مظلة ، أو محمل بشرط ألا يحجب ذلك وجه المرأة ، ورأس الرجل لأن كشفهما واجب .

وهذه المحرمات كلها تجب فيها الفدية ، ما عدا عقد النكاح ، والفدية تختلف باختلاف المحرمات . وهاك بيانها ...

***

ماذا لو تركنا ركنا ؟ :

لو ترك الوقوف بعرفة بأن لم يصل لعرفة قبل طلوع فجر يوم النحر بوقت كاف للاحرام فلا حج له ، وعليه أن يأتى بأعمال العمرة من الطواف والسعى . ويتحلل بالحلق أو التقصير . وعليه قضاء الحج فى العام القابل ، ودم كدم التمتع الاتى :

ولو ترك ركنا غير الوقوف كطواف الافاضة مثلا ، فيجوز له الاتيان به فى أى وقت من عمره عند أبى حنيفة وأحمد . وأما عند المالكية فيمتد وقته آخر ذى الحجة مع وجوب الدم .

وأما لو ترك السعى فعليه أن يؤدى ، ما دام بمكة أو قريبا منها .. وإلا بعث هديا لينحر فى الحرم ، ولا يرجع لاعادته .

ماذا لو ترك واجبا أو فعل محظورا ؟ .

لو ترك واجبا من واجبات الحج صح حجه وعليه دم ، ولو فعل محظورا من محظورات الاحرام غير الجماع ، قبل التحلل الاول صح حجه ، وعليه شاة ، أو إطعام ستة مساكين أو صيام ثلاثة أيام .

أما الجماع قبل التحلل الأول ، فانه مفسد للحج ، وعلى صاحبه أن يتم أعمال الحج وتلزمه بدنة ، ويجب عليه إعادة الحج فى العام القابل . وعلى من قتل الصيد جزاء هـو مثل ما قتل من النعم ، وفيما لا مثل له ، القيمة ، يشترى بها طعاما ويتصدق به ، او يصوم يوما عن كل مد . ويجب فى قطع أو قلع شجر الحرم بقصد الاتلاف ، فى الكبيرة بقرة ، وفى الصغيرة شاة ، أو يشترى بقيمة ذلك طعاما ، ويتصدق به ، أو يصوم يوما عن كل مد ، أما اليابس فلا شىء فى قطعه ، وكذلك الذى يزرع للانتفاع به من حبوب ، أو خضروات ، وما يؤخذ للتداوى ، أو الانتفاع به فى المبانى وغيرها .

ومن أحصر عن اتمام حج ، أو عمرة ، أو قران من جميع الطرق جاز له التحلل ، وذبح شاة بجزئة فى الاضحية فى المكان الذى احصر فيه . فان لم يجد شاة فعليه اخراج قيمتها طعاما ، فان عجز عن الاطعام صام عن كل مد يوما .

والدم الواجب بفعل حرام ، أو ترك واجب ، لا يختص بزمان ، ويذبح فى أى مكان من الحرم لقوله تعالى . ـــ « هديا بالغ الكعبة » ولخبر « كل فجاج مكة منحر » . ويجب توزيعه على مساكين الحرم وفقرائه .

واختلف الفقهاء فى جواز الأكل من الهدى مطلقا : فذهب أبوحنيفة وأحمد إلى جواز الأكل من هدى التمتع وهدى القران ، وهدى التطوع ، ولا يأكل من غيرها .

وأفتى مالك بجواز الأكل من الهدى الذى ساقه لفساد حجه ، ومن هدى المتمتع ومن الهدى كله ، الافدية الأذى وجزاء الصيد وما نذره للمساكين وهدى التطوع إذا عطب قبل محله .

* * *

طواف الوداع سمى بهذا الاسم ، لأن الحاج بعد تمامه يودع مكة راجعا إلى بلده ، ويسمى أيضا طواف الصدر ، وهو طواف لا رمل فيه فاذا أراد الحجاج الخروج من مكة ، وجب (١) عليهم أن يطوفوا بالبيت ، طواف

---

١ ـ طواف الوداع عند المالكية سنة .

الوداع ، ليكون هذا الطواف آخر عهدهم بالبيت الحرام ، الا الحائض والنفساء فلا وداع عليهما لحديث إبن عباس قال (أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن المرأة الحائض) .

فاذا انتهى الحاج من توديع البيت ، مشى حتى يخرج من المسجد ولا يستحب له أن يمشى القهقرى ، لعدم ورود ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أصحابه، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (اياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) .

فاذا خرج الحاج من المسجد ، سافر بعد خروجه مباشرة ، فإذا رجع إلى المسجد مرة أخرى أعاد الطواف . . ويستحب للمودع أن يدعو بالدعاء المأثور وهو: «اللهم انى عبدك ، وابن عبدك ، وابن امتك حملتنى على ما سخرت لى من خلقك وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى بنعمتك إلى بيتك وأعنتنى على أداء نسكى ، فان كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا ،وإلا فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك ، هذا أو أن انصرافى ان أذنت لى غير مستبدل بك ولا بنبيك ولا راغبا عنك ولا عن بيتك . اللهم فاصحبنى بالعافية فى بدنى ، والصحة فى جسمى ، والعصمة فى دينى ، وأحسن منقلبى وأرزقنى طاعتك ما أبقيتنى ، واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة ، انك على كل شىء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين» .

العمـــرة

هى زيارة البيت الحرام بكيفية مخصوصة (سنتكلم عنها)وهى سنة مؤكدة(١) ولا وقت لها بل تجوز فى أى وقت من أوقات السنة . إلا أنها تكره تحريما فى يوم عرفة وفى يوم النحر ، وفى أيام التشريق ،

ويشترط للعمرة ما يشترط للحج وأركانها ثلاثة :

الاحرام ، والطواف ، والسعى بين الصفا والمروة (٢)

(١) عند المالكية والحنفية وفرض عند الشافعية وواجبة عند الحنابلة .

(٢) زاد الشافعية الترتيب والحلق أو التقصير.

وميقات الحج هو ميقات العمرة إلا بالنسبة لمن كان بمكة فإن ميقاته فى العمرة الحل (وهو ما عدا الحرم الذى يحرم فيه الصيد) وأفضل الحل الجعرانة ثم التنعيم .

وكيفيتها أن يحرم بها من ليس بمكة من ميقات الحج ، ثم يطوف حول البيت ، ثم يسعى بين الصفا والمروة ثم يحلق أو يقصر ، وبهذه الاعمال تنتهى العمرة . .

ينوى المسلم بإحرامه أداء الحج والعمرة معا مقترنين ، وهو أفضل ممن يحرم بالحج فقط ، أو بالعمرة فقط [1] .

وكيفيته إذا دخل القارن مكة ، فعليه أداء أفعال العمرة أولا فيطوف ، ويسعى (ولكنه لا يحلق ولا يقصر) وبذلك تنتهى عمرته . . وبعد انتهاء أفعال العمرة ، يشرع فى أعمال الحج فإذا رمى الجمرة يوم النحر وجب عليه أن يذبح شاة أو سبع بدنة ، ويتصدق بها شكراً لله على توفيقه لاداء الحج والعمرة . .

فإن لم يجد فعليه أن يصوم ثلاثة أيام قبل يوم النحر وسبعة أيام بعد الانتهاء من الحج . .

والتمتع هو أن ينوى أداء العمرة وحدها ، فإذا تحلل منها نوى الحج وأحرم به .

وذلك أن يحرم بالعمرة من الميقات فإذا وصل مكة أدى أفعال العمرة من الطواف والسعى والحلق أو التقصير وتحلل .

فإذا جاء اليوم الثامن من ذى الحجة أحرم ناويا الحج ، ثم يأتى بأفعاله حسب الترتيب السابق . فإذا رمى الجمرة يوم النحر فعليه شاة أو سبع بدنة [2] ويتصدق بها شكراً لله على توفيقه لاداء النسكين وهناك قول للشافعى يجيز الذبح قبل عرفه.

---

(١) وعند الشافعية والمالكية الأفراد والتمتع أفضل من القران . بخلاف الحنابلة فالتمتع عندهم أفضل من القران والأفراد .

(٢) البدنة هى ما كان عمرها خمس سنوات من الابل وما كان عمرها سنتين من البقر .

فان لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام قبل يوم النحر وسبعة أيام بعد الانتهاء من أعمال الحج ...

***

وإذا استطاع الإنسان الحج ، ثم عجز عنه لمرض أو لغيره وجب عليه أن ينيب غيره ، ليحج عنه ، بشرط أن يكون النائب ، قد أدى حجة الإسلام عن نفسه ، وأن يكون ثقة عدلا عارفا أعمال الحج .

ومن مات وعليه حجة الإسلام ، وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه ، لما روى عن امرأة من جهينة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أن أمي نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت أفأحج عنها قال : (نعم حجى عنها) .

وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهينا الحديث عن الحج ، وأنعم الله ، والله تعالى نسأل أن يوفقنا لما يحبه ، ويرضاه .. آمين ..

يوميات الحج

ماذا تفعل إذا قصدت مكة لإداء النسك ،

١ ــ إذا قاربت الميقات فاستعد للاحرام واغتسل إذا أمكنك وإلا فتوضأ والبس ملابس الاحرام وصل ركعتين .

٢ ــ إذا أردت الحج والعمرة معا فانوهما معا . أو الحج وحده فانو الحج ، أو العمرة فقط فانو العمرة .

٣ ــ حافظ على التلبية قدر الإمكان .

٤ ــ إذا وصلت إلى المسجد الحرام فادخله من باب السلام إذا تيسر وإلا فادخل من أى باب كان وطف سبعة أشواط حول الكعبة (طواف القدوم)

٥ ــ فإن هممت بالسعي فابدأ بالصفا واختتم بالمروة سبعة أشواط ،

٦ ـــ عليك بالحلق أو التقصير إن كنت متمتعا ـــ أى ناويا العمرة فقط ـــ ثم إخلع ملابس الاحرام ، والبس ملابسك المعتادة وحينئذ يباح لك كل شيء من محظورات الاحرام ، أما إذا كنت قد نويت الحج أو الحج والعمرة معا فلا تحلق أو تقصر بل استمر فى ملابس الاحرام حتى تتم مناسك الحج .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يسن لك التوجه الى منى والمبيت بها قبل ذهابك الى عرفات إن أمكن ذلك وإلا فاذهب إلى عرفات مباشرة.

وفى اليوم التاسع من ذى الحجة احرص على أن تكون موجودا فى عرفات قبل غروب شمس اليوم التاسع على الاقل.

كما يسن أن تصلى الظهر والعصر جمع تقديم قصرا بمسجد نمرة إن امكنك ذلك وبعد الغروب تترك عرفات الى المزدلفة وتصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير قصرا .

وفى اليوم العاشر (يوم العيد) تكون فى منى ، وأعمال هذا اليوم :

١ ـــ رمى جمرة العقبة .

٢ ـــ ان كنت متمتعا أو قارنا فيلزمك ذبح الهدى .

٣ ـــ احلق شعر رأسك أو قص منه بعض شعرات ثم البس ملابسك المعتادة ولكن لا تقرب زوجتك إن كانت معك .

٤ ـــ أن تيسر لك التوجه فى هذا اليوم الى مكة لتطوف طواف الإفاضة فتكون قد تحللت التحلل الثانى وبه يباح لك كل شيء من محظورات الاحرام وعد لتبيت فى منى وإلا فامكث فى منى حتى تتم أعمال الرمى ـــ لاحظ أن معنى المبيت بمنى قضاء معظم الليل بها وهو واجب عند غير أبى حنيفة أما عنده فسنة

وفى اليوم الحادى عشر : ترمى الجمار الثلاث بالترتيب الآتى :

١ ـــ الجمرة الصغرى .

٢ ـــ الجمرة الوسطى .

٣ ـــ جمرة العقبه .

وفى اليوم الثانى عشر : ترمى الجمرات الثلاث كما فعلت فى اليوم الحادى عشر ولك فى اليوم بعد الرمى أن تترك منى لكن قبل الغروب فأن غربت الشمس عليك بها فـــلا بد أن تبيت وترمى الجمرات فى اليوم الثالث عشر .

وحين تنزل إلى مكة يجب عليك أن تطوف طواف الافاضة وتسعى إن لم تكن قد نزلت اليها وطفت وسعيت يوم العيد وإلا فلا يجب عليك شيء وبذلك تكون قد أتممت أعمال الحج .

وإن لم تكن قد نويت عمرة من قبل وأردت أن تؤديها بعد الانتهاء من الحج فعليك بالخروج إلى أدنى الحل والاحرام بها من هناك .

زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

وما على الحاج ، وقد أدى فرضه ، وأتم نسكه ـــ الا أن يشد الرحال إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد النبى الكريم ، و لينعم بالقرب منه ، والســـلام عليه .

وزيارة المسجد النبوى سنة قبل الحج ، أو بعده لما روى الأمام البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم (صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة ، فيما سواه ، إلا المسجد الحرام) وقال : (لا تشد الرحال الا إلى ثلاثة مساجد . المسجد الحرام ؛ ومسجدى هـــذا ، والمسجد الأقصى) .

ويستحب للزائر إذا وصل مشارف المدينة ورأى مبانيها ، أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقول : اللهم هذا حرم نبيك فاجعله وقاية لى من العذاب ، وسوء الحساب . فاذا دخلها واطمأن على أمتعته يستحب له أن يغتسل ، ويتطيب ، ويلبس أحسن ثيابه ويتوجه إلى الحرم النبوى متواضعا ، عليه السكينة والوقار ، فإذا بلغ المسجد ، فعل ما يفعله عند الدخول فى سائر المساجد ، فقدم رجله اليمنى وقال:

«باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . اللهم افتح لى أبواب رحمتك . . . .» ، ثم يقصد إلى الروضة النبوية بين القبر الشريف والمنبر ، فيصلى فيها ركعتين لله سنة تحية المسجد ، ويدعو الله فيهما بما أحب من خيرى الدنيا والآخرة . موقنا أنه فى مهبط الرحمة ، وموطن الاجابة ، ورياض الجنة . قال صلى الله عليه وسلم : «ما بين بيتى ، ومنبرى روضة من رياض الجنة» :

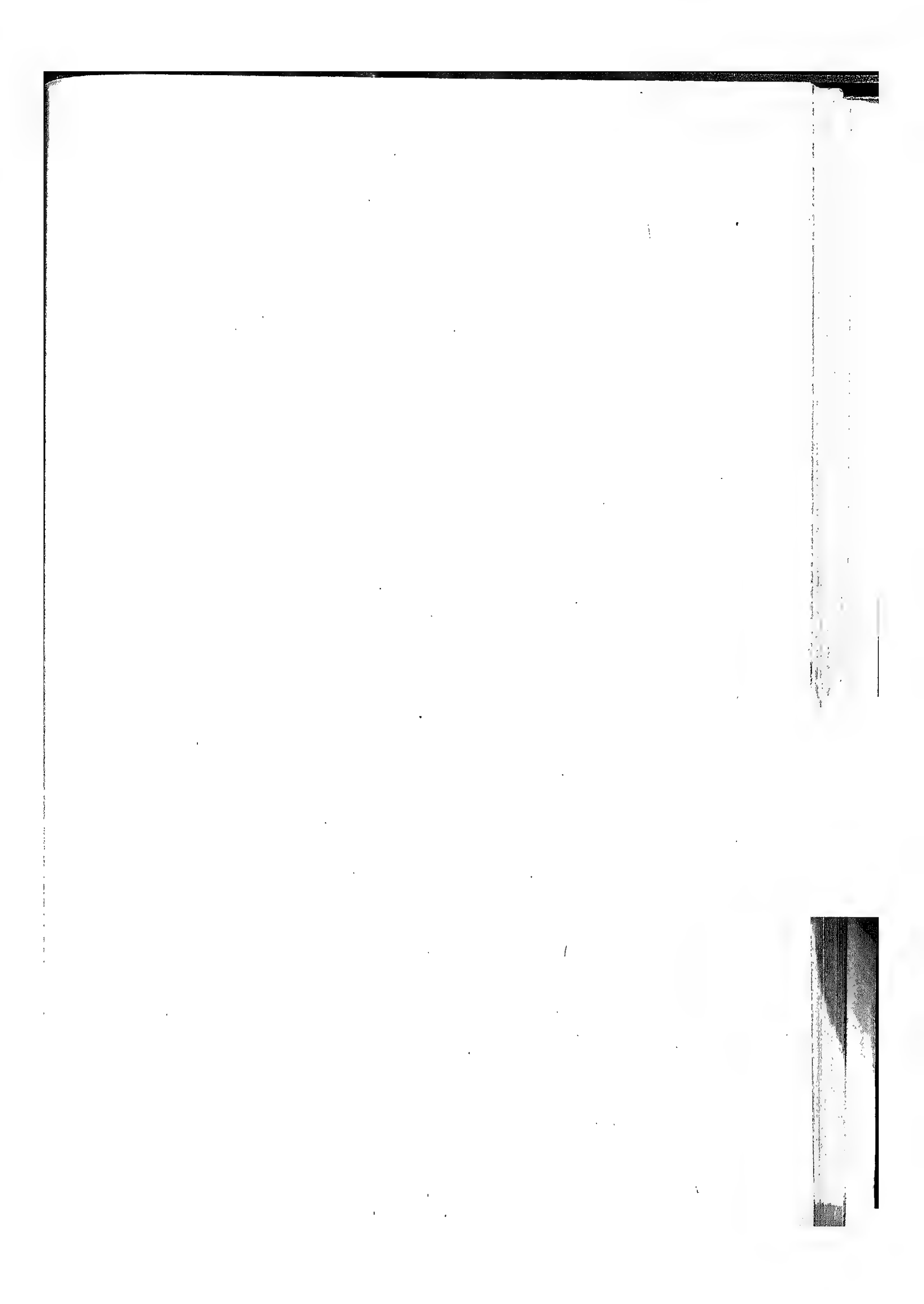
ثم ينهض من صلاته ، ويتوجه إلى قبره صلى الله عليه وسلم ، ويقف عند رأسه الشريف ، فى أدب وإجلال ويتمثل صورته الكريمة البهية ، كأنه نائم فى لحده ، يسمع كلامه . قال عليه الصلاة والسلام «ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام» فيسلم عليه ، عليه الصلاة والسلام فى صوت خفيض ، ويقول :«السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته . السلام عليك يا نبى الله . السلام عليك ياخيرة الناس من خلقه . السلام عليك ياسيد المرسلين وأمام المتقين . أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق جهاده .» ويصلى عليه — عليه الصلاة والسلام ، ويبلغه سلام من أوصاه .

ثم يتحول قدر ذراع ، حتى يحاذى رأس أبى بكر الصديق — رضى الله عنه فيقول السلام عليك ياخليفة رسول الله . السلام عليك يارفيقه فى الاسفار . السلام عليك يا أمينه فى الاسرار . جزاك الله عنا أفضل ما جزى إماما عن أمة نبيه .

ثم يتحول قدر ذراع ، حتى يحاذى قبر عمر رضى الله تعالى عنه ويقول السلام عليك يا أمير المؤمنين . السلام عليك يا مظهر الاسلام . السلام عليك يامكسر الاصنام . جزاك الله عنا أفضل الجزاء .

ثم يستقبل القبلة ، ويدعو لنفسه وأهله ، وللمسلمين

وتؤدى الصلوات فى مسجد الرسول مدة الاقامة فى المدينة المنورة . وعند العودة تصلى ركعتان للوداع ، ثم تحية الاستئذان مصليا مسلما عايه أز كى الصلاة والسلام .



... وخمس أخرى!

١ العلم
٢ العمل وحسن المعاملة
٣ العدل والرحمة
٤ الوسط
٥ الجهاد في سبيل الله

١ العلم

العلم ؛ أول واجب الفرائض المترتبة على شهادة : لا إله إلا الله . فان من تمام المعرفة بالخالق ، أن نحاول الإحاطة علما بما خلق ، حتى يكون إيماننا عن بينة وبصيرة ، ولا يكون نوعا من التقليد ، أو السير على ما كان عليه الاباء ، دون معرفة سببه وحكمته .

وأول كلمة نزل بها الوحى على رسول الله عليه الصلاة والسلام هى «اقرأ...» قالها جبريل ، ورددها ، حتى ترسخ فى خاطر من كلف بحمل الرسالة إلى العالمين .

وفيما روته سورة البقرة ، عن ابتداء حياة الانسان على الأرض ، هـذا الحوار الرائع ، بين الله سبحانه وتعالى ، والملائكة .. هـذه المخلوقات النورانية التى لا أرادة لها إلا ما اراده الله ، ولا عمل لها إلا التسبيح بحمده .

«وإذقال ربك للملائكة ، إنى جاعل فى الأرض خليفة ..» وكان هذا الخليفة فيما علم الملائكة ، هو المخلوق الجديد .. هو الإنسان . وقـد سبق إلى علمهم ، بفضل من الله ، ما ستكون عليه سيرته ، وما سيكون عليه سلوك أفراد منه ، عندما يكثر عددهم ويتناسلون .

وبدا للملائكة أن يستفسروا من الذات الإلهية ، عن الحكمة فى إختيار الإنسان كى يعمر الأرض ، من دونهم . قالوا : « أتجعل فيهـا من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك؟

ورد الله تعالت آياته : « قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » ثم أراد سبحانه أن يلقنهم الدرس ، وأن يدل على موضع الحكمة ، فيما سبقت اليه إرادته ، فاسد الإنسان بالعقل المتطلع إلى المعرفة ، الذى يريد أن يعلم كل شىء ، ويحيط به خبرا .. وتمضى الآيات : « وعلم آدم الأسماء كلها ..»

وفى كلمة الاسماء بحث كبير : ترى هل هى اسماء وأوصاف ما يقع عليه النظر ترى هل هى علل الأشياء ، والأحداث وربطها بمسبباتها ؟

إن الأسماء ، هي سر المعرفة التي يحتاجها إنسان ، يراد له أن يسكن الأرض ويعمرها ، ويهتدي عن طريق عقله وكدحه ، أو علمه وعمله ، إلى قدرة الله ، فإذا عبد ربه ، فانما يعبده عن إدراك وبصيرة .

فلما ميز الله الانسان بهذا النوع من الإدراك ، وشتى أنواع المعرفة ، أو الأسماء كما عبر القرآن الكريم ، يمضي ليقص علينا جانب الاختبار لهذه الطاقة الجديدة بقوله :

« ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم انبأهم بأسمائهم .. فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون »

إن الله تعالى عندما أودع في الإنسان عقله ، وهداه الى أن يدرك به الحقائق فقد ميزه بما لم يميز به الملائكة العابدين المقدسين . وهكذا جعل سبحانه ،العبادة مع العلم مرحلة أرقى من العبادة وحدها .. بل نرى القرآن يكشف في الآية التالية عند مدى قيمة العلم مع العبادة .. قال :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا .. إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين »

وتمضي قصة خلق الانسان ، وقدرته على التمييز . . فقد ترك إبليس ، وهو وازع العصيان ، لكي يشن معركته الأزلية ، ضد وازع الخير في الإنسان .وإذا كان الإمتحان الأول بين الملائكة والإنسان ، في صالح آدم ، فإن الإمتحان الثاني لم يكن في صالحه .. وذلك أنه نهي عن مباشرة الجنس مع صاحبته حواء،ولكن إبليس ساقه إلى هذه المعصية، فنحي آدم وزوجه وذريته عن الحياة السهلة في الجنة إلى حياة كادحة في الأرض،فيها جوع وشبع،وفيها عرى واكتساء وفيها مكابدة من كل نوع .. يقول القرآن الكريم في قصة هذا الاختبار :

« وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنة ، وكلا منها رَغداً حيث

شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه. وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الارض مستقر ومتاع إلى حين »

ولكنا نسأل: هل ترك الله تعالى لآدم حرية التفكير، وحرية الإرادة بغير قيد؟! إنا نجده سبحانه، احتفظ ببعض العلم؛ لا يطيقه، ولا يقوى عليه عقل الإنسان، وربما اتجه اليه إيمانه ووجدانه.. ومن ذلك — مثلا — أمر الروح، والغيب؛ وما إلى ذلك. ولعل الحكمة فى ذلك أن يظل للانسان طموحه إلى مزيد من المعرفة، وتطلعه إلى آفاق متجددة دائما. وسوف يظل السجل مفتوحا، وفى الكون صفحات وصفحات لا يبلغ آخرها.

وفيما أعقب قصة خلق آدم ونزوله إلى الأرض، أحداث وقعت على مر التاريخ بعضها وقف الانسان على سره؛ وبعضها حجب عنه، وقد ضرب القرآن الكثير من الأمثال، ومن ذلك ما ورد فى سورة هود، من تفصيل لسيرة نوح وفلكه فقد كان نوح تواقا إلى انقاذ ابنه الذى عصى، من أن يغرقه الطوفان.. ولكن الله أبى عليه ما طلب واحتفظ بسره؛ وذلك فى قوله تعالى:

قال: يانوح إنه ليس من أهلك. إنه عمل غير صالح. فلا تسألنى ما ليس لك به علم. إنى أعظك أن تكون من الجاهلين »

وقد أدرك نوح أين يجب أن يقف به علمه، مما أوضحته الاية التالية:

«قال رب إنى أعوذ بك ان اسألك ماليس لى به علم. وإلا تغفر لى وترحمى اكن من الخاسرين »

وفى هذه الآيه وفى آيات أخرى كثيرة من القرآن، دلالة واضحة، على أن لعقل الإنسان وطموحه مدى، وأنه إذا كان قد أمر ألا يكف عن التطلع والدأب فى البحث، فعليه ألا يبالغ، والا وقع فى ضلال مبين. فالذات الإلهية — مثلا — هى مبدأ كل شىء ومنتهاه، وهى الإرادة العليا التى تصدر عنها كل ارادة.. وليس فى وسع العقل، وهو مخلوق محدود، أن يقيس خالقا غير محدود، وإذا ركب فى

حبة الرمل ، أو قطرة الماء إدراك، فهل فى وسع أيهما أن تحيط بما فى صحارى الأرض أو بحارها ، وما فى الأجرام جميعا من رمال وماء ؟!

هذا هو الفرق بين المحدود والمطلق ؛ ولو أن التمثيل لا يدل على الحقيقة ، ولكنه يقرب منها .. لأننا ـ أيضا ـ نشبه ما ندركه بحواسنا ؛ بما لا تدركه حواسنا ، إلا إيمانا وتسليما ، فتقول سورة الاسراء « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولا » .

ومع التسليم بأن هناك علما لا ترقى اليه مدارك الإنسان، فان كل العلم بعدذلك هو حق للعقل البشرى أن يدركه ، وأن يسعى وراءه .ففى سورة المائدة : « تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب » .

ومجال المعرفة مفتوح أمام المجتهدين ، كما نصت سورة الانعام « لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .. ومهما بلغ مدى علم الإنسان ، فهناك جديد سوف تتكشف عنه الأيام . لمن تابع البحث والدرس : « ويخلق ما لا تعلمون » .

وإذا كان الانسان قد ولد بغير علم يرشده ويهديه كما ورد فى سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » فانه ما يلبث أن يتعلم ، ويواصل الإجتهاد طول حياته . وسبيله إلى ذلك أن يسأل أهل الذكر ؛ ويسأل الراسخين فى العلم ، ويسأل الذين أوتوا العلم . . وإن من خير الدعاء الذى وجه الله إليه الإنسان قوله تعالى فى سورة طه «وقل ربى زدنى علما » حتى إذا وصل الناس فى المعرفة إلى درجات ، إنطبقت عليهم الآية الكريمة فى سورة المجادلة : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » .

ونجد فى كثير من آيات القرآن ، إشارة إلى العلم ، واشارة إلى الإيمان ،حتى إذا اقترن العلم بالإيمان ، أى طابق العقل ما فى الفؤاد من إلهام ، فهذا هو الرشد وهو أعلى مراحل الإدراك ؛ وهو ما كان موسى يسعى اليه بمصاحبة الخضر ، كما ورد فى سورة الكهف: « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا» وما يهدى القرآن اليه المؤمنين ، فهو الرشد ، كما فى سورة الجن : « إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به » أو ما ورد فى سورة الكهف : « ربنا آتنا

من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا» .. وفى سورة غافر « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ».

وكذلك الحكمة، مرحلة فوق مرحلة العلم، وأن ما أنزل على الرسل من حكمة مستمدة من كتاب الله وكلماته ، وما علمه لأنبيائه . فى سورة البقرة : «ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم » .. وفى سوة ص «وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» وفى سورة الإسراء : « ذلك مما أوحى ربك من الحكمة » وفى سورة النساء : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة،وعلمك ما لم تكن تعلم» وفى سورة المائدة: « وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » وهكذا تتوالى آيات القرآن الكريم متحدثة مع العلم ، عن الرشد ، وعن الحكمة ، ووصف الساعين إليها بأنهم أولو الألباب ، أى أصحاب العقول والقلوب الواعية .

وكما حض القرآن على السعى وراء المعرفة ، فقد نعى على الذين لا يتعلمون ، ووصفهم بالجهل ، وبأنهم يعطلون عقولهم وقلوبهم عن أداء وظائفها ، فهم قوم لا يعقلون .

***

وأول ما يشد مدارك الإنسان ، ويتلقى عنه درسه الأول، هو كتاب الكون المفتوح أمامنا ، منه نستمد معارف لا تحصى . فى سورة يونس : « هو الذى جعل الشمس ضياء، والقمر نورا ، وقدره منازل، لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى إختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ».

وما جاء فى سورة البقرة : « إنَّ فى خلقِ السموات والارضِ، واختلافِ الليلِ والنهارِ ، والفلكِ التى تجرى فى البحر بما ينفع الناسَ ، وما أنزلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الارضَ بعدَ موتها ، وبثَّ فيها من كل دابة، وتصريفِ الرياحِ والسحاب المسخَّرِ بين السماء والارض، لآيات لقوم يعقلون »

ويرى العقاد (١) أن خطاب القرآن العقل يشمل جميع وظائفه وخصائصه . والعقل عنده ثلاث خصائص ..

١ ــ الوازع الاخلاق ، الذى يمنع عن المحظور والمنكر.

٢ ــ ملكة الإدراك ، التى يناط بها الفهم والتصور .

٣ ــ ملكة التفكير ، التى تتكفل بإستخراج البواطن والأسرار واستنباط النتائج والأحكام .

ثم يقول : ولا يذكر العقل فى القرآن الكريم عرضا مقتضبا ، بل يذكره مقصودا مفصلا ، على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان .

***

وهكذا نجد القرآن الكريم قد فتح آفاق العلم ، رحبة فسيحة أمام الناس جميعا .. ومهما بلغ العالم من تحليقه فى هذه الآفاق ، فسيظل أمامه آمادا يقطعها ما بقى للإنسان عقل وإدراك .. وعندما خاطب الله الناس، بأن ما أوتوه من العلم ليس إلا القليل بجانب ما ينتظرهم من عرفان ؛ فهو بهذا يحثهم على ألا يتوقف جهدهم ، وأن يتابعوا اسيرهم فى هذا الطريق جيلا بعد جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...

وسيدنا محمد هو مبلغ الوحى للناس ، وشارح الرسالة ، كان أول من حث أتباعه ، وحث البشرية كلها على أن تتعلم ، وأن تنفذ إرادة الله فى ذلك . . وكلنا نحفظ ما نقل لنا عنه : أطلبوا العلم ولو فى الصين . . وكلنا يذكر أنه عليه السلام طلب فداء لبعض اسراه فى بدر أن يعلم كل منهم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين وبذا يستردون حريتهم . وكانت القيمة النقدية للفداء هى أربعة آلاف درهم ، فكأن تعليم المسلم الواحد كيف يقرأ ويكتب، توازى أربعمائة درهم .

---

(١) التفكير فريضة اسلامية لعباس محمود العقاد ص ٦

وقد نبهنا الإمام الغزالى إلى مكان أهل العلم وتكريم الله لهم، مستشهدا بالآية الكريمة : «شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم، قائما بالقسط» . . ويعلق بقوله : أنظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا .

وقال الله تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات» وقال تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون» وقال أيضا : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

ومن أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام :

- (العلماء ورثة الأنبياء) .
- (يستغفر للعالم ما فى السماوات والأرض) .
- (لموت قبيلة ، أيسر من موت عالم) .
- (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء) .
- (فضل المؤمن العالم ، على المؤمن العابد بسبعين درجة) .
- (لئن تغدو ، فتتعلم بابا من العلم ، خير من أن تصلى مائة ركعة) .
- (من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك به طريقا الى الجنة) .

وفى حديث أبى ذر :

- حضور مجلس عالم ، أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود الف جنازة ، فقيل يارسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (وهل ينفع القرآن إلا بالعلم) .
- (ما آتى الله عالما علما ، إلا وأخذ عليه من الميثاق ، ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ، ولا يكتموه) .

هذه جملة من مختارات الامام العظيم الغزالى فى فضل العلم والتعليم .

وكان رسول الله عليه السلام يصف نفسه بأنه معلم . فقـــد مر بمجلسين ،

أحدهما فيه قوم يدعون الله ، والثانى فيه مجلس علم ، فأختار المجلس الثانى قائلا : «...هؤلاء يعلمون الناس ، وإنما بعثت معلما » .

وإذا كان رسول الله قد حث الناس على أن يتعلموا ، فانه عليه السلام ، حث الذين يعرفون ، على أن يفيضوا من علمهم على الذين لا يعرفون ، فالعلم أمانة من كتمها عن الناس كان حسابه عند الله عسيرا .

حتى عمر بن الخطاب ، الذى قال فيه رسول الله: (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) . حتى عمر ، كان لا يفتى فى أمر لم يقض فيه قبله قبل أن يشاور . وذلك لأنه قد يوجد بين الناس من له رأى خير من رأيه .. وقد روى ابن سعد أنه كان يقول عن عبد الرحمن بن عوف : (أشهد أنك معلم). وعندما بعث رسول الله على بن أبى طالب إلى اليمن ، وهو بعد شاب ، دعا له بقوله : (اللهم أهد قلبه، وثبت لسانه) .

وسنتحدث فى باب (الوسط) عن التعصب ، وأنه ليس من شيمة المتحضرين الواعين المتأدبين على رسول الله . ولكننا نسرع هنا ونذكر ما كان يقول أبو موسى الأشعرى عن الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود : (لا تسألونى عن شىء ، وهذا الحبر (العالم) بين أظهركم » .

فإذا ما استوثق الإنسان لنفسه من باب من أبواب العلم ، فعليه الا يكنزه عن الناس ، روى عن رسول الله الحديث المشهور : (من سئل عن علم فكتمه ، ألجمه الله بلجام من نار) وروى عن على بن أبى طالب : (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا [1] .

وروى أبو هريرة عن رسول الله : (الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها، فهو أحق بها) . وعن ابن عمر (خذ الحكمة . ولا يضرك من أى وعاء خرجت) وعن على بن أبى طالب : (الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ، ولو من أهل النفاق) .

---

(١) القسطلانى ص ٣٥

المسيحيون القدماء . . . والعلم :

إن تعاليم القرآن الكريم وأحاديث رسول الله، في دفع المسلمين إلى أن يستعملوا عقولهم ، وأن يثابروا على تعليم أنفسهم (من المهد إلى اللحد) كانت نورا هدى البشرية كلها ، بقيادة الإسلام ، إلى طريق التقدم.

روت عائشة رضى الله عنها ، أن النبي سمع مسلما يقرأ الآية : «ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وإختلاف إلسنتكم وألوانكم » فقال عليه السلام : (ويل لمن لاكها بين فكيه ، ولم يتأملها).

وقد رأينا كيف أن العبادة ، مهما تفرغ لها العابد ، لا تغنى عند الله ، إذا لم تصاحبها المعرفة . . ونزيد على ما ذكرنا حديثا عن أبى سعيد الخدرى ، نقدم به بين يدى هذه المرحلة من الدراسة .. قال عليه السلام : (لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله . فبقدر عقله تكون عبادته) أما سمعتم قول الفجار فى النار « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير ».

لقد أطلقت هذه النفحات الإلهية ، وهذه الأحاديث النبوية العقل المسلم من عقاله ، وحررته ، ودفعته إلى آفاق العلم والمعرفة ، فقطع فيها أشواطا عظيمة ، كانت هى الأساس الذى بنت عليه الشعوب الغربية نهضتها ..

ورب سائل يسأل : ألم يجد المسيحيون من أهل أوربا فى أنجيلهم ما يدفعهم فى هذا الطريق... طريق العلم، والتماس مظانه فى الكون، وما حجب من اسرار؟

أجاب الإمام الشيخ محمد عبده على هذا السؤال اجابة مفصلة مقنعة تضمنتها رسالة «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » (١).

عرض الأستاذ الإمام فى رده للأصول التى اعتمدت عليها طبيعة الدين المسيحى ونحن نجملها فى النقاط الآتية :

---

(١) نشر المؤتمر الاسلامى هذه الدراسة فى طبعة سادسة لها عام ١٣٧٥ هـ

١ ــ أول أصل قام عليه الدين المسيحي هو خوارق العادات ، التي تعد أهم دليل على صدق السيد المسيح عليه السلام

٢ ــ الأصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء الدينيين . وقد استمدوا هذه السلطة بما ورد في انجيل متى : (أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات)

٣ ــ الاصل الثالث بعد ذلك ، هو التجرد من الدنيا والانقطاع للآخرة . وحث على الرهبانية وترك الزواج،والعبادة ، وهي الايمان والصلاة بغير انقطاع.

٤ ــ الايمان بغير المعقول ، لا يختلف فيه مذهب من مذاهب المسيحية ... وقوامه أن يؤمن المسيحي أولا،ثم يفكر.إذ أن الايمان منحة لا دخل للعقل فيها

٥ ــ وأصل خامس وهو أن التوراة والانجيل ، أو العهد القديم والعهد الجديد تضمنت كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد .

٦ ــ وأصل سادس:هو التفريق بين المسيحيين وغيرهم من الملل الأخرى حتى الأقربين ، مصداق ذلك ما ورد في الإصحاح العاشر من إنجيل متى وهو (لا تظن أني جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا . فاني جئت لافرق الانسان ضد أبيه ، والأبنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، وأعداء الانسان أهل بيته) وما ورد من أن أم السيد المسيح وأخوته جاءت تطلب الكلام معه فاجاب : ومن هي أمي ، ومن هم إخوتي ؟ ها أمي وأخوتي ... مشيرا نحو تلاميذه

وقد تمشت هذه العقائد في المجتمع المسيحي من بدأ تكوينه. حتى أن تيوفيل بطريرك الاسكندرية أحرق كل كتب البطالسة والمصريين القدماء التي كانت في مكتبة المدينة العظيمة .

* * *

وفى هذا الاستعراض الدقيق عن الدين المسيحى الذى قدمه ديورانت فى موسوعته (قصة الحضارة) [1] يقول :

ترجع قوة الدين المسيحى إلى أنه يعوض على الناس الإيمان لا المعرفة والفن لا العلم . والجمال لا الحقيقة . وقد فضله الناس فى صورته هذه ، وكانوا يرون أن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب على اسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التى ينطق بها رجال الدين، ويؤكدونها توكيدا يزيل مخاوفهم . ولو أن الكنيسة اعترفت بأنها تخطىء تارة ، وتصيب تارة أخرى لفقدوا ثقتهم فيها . ولعلهم كانوا يرتابون فى المعرفة ، ويرون أنها الثمرة المرة للشجرة المحرمة تحريما ينطق بالحكمة ، أو السراب الذى يضل الناس ويغويهم ليخرجوا من جنة السذاجة والحياة الخالية من الشك . وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للايمان فى أغلب الأوقات والحالات . وجعل كل إعتماده على الله وعلى الكنيسة .

وقد وصف هذا الباحث تعاظم سلطة الكنيسة ورجالها ، وأنهم كانوا قادرين على صنع المعجزات ، لا بفضل قوتهم الروحية وهم أحياء فقط ، ولكن بعد موتهم أيضا، بطريق بقايا عظامهم ومخلفاتهم ؛ وحسبنا أن نذكر مثلا لهذا أن نقل عظام القديس توماس إلى ضريح جديد فى كنيسة كنتربرى الكبرى عام ١٢٢٠م جمع من الذين شاهدوا هذا العمل ما يقدر بنحو ٣٠٠ ألف ريال أمريكى وأجتذب هذا العمل الرابح كثيرا من ممارسيه ، فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب (بالكشف) عن مخلفات جديدة، حين تحتاج الى المال وكان شر هذه المساوىء هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته »

وفى عام ٤٣١ م وافق مجمع أفسس المقدس على إعطاء مريم العذراء لقب (أم الاله) وبدأت عبادة العذراء تأخذ نفس الطقوس القديمة التى كانت لايزيس وديانا وأرتميس ، متمثلة فيها الرفق والرحمة وذلك لأن أهل أوربا ، ضاقوا بالصورة

(١) الجزء الخامس من المجلد الرابع . والجزء ١٦ من عصر الايمان

التى قدمت بها الكنيسة الإله ، على أنه إله للغضب والعقاب ، الذى لا يمل من القاء البشر فى جهنم (واحد يدخل الجنة من مائة ألف يدخلون النار) . وسارع الكاثوليك إلى احتضان عبادة مريم إلى جانب عبادة المسيح .

وقد صور «ديورانت» فى موسوعته عهد الإرهاب الذى صبته الكنيسة على المسيحيين قبل إنشاء محاكم التحقيق (أو التفتيش) فان الحرمان الاصغر كان يمنع المسيحى من الاشتراك فى العشاء الربانى وفى طقوس الكنيسة ، وإصدار هذه العقوبة كان حقا لكل رجل من رجال الدين وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم فى نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه . أما الحرمان الأكبر فكان يصدره مجلس دينى أو مطارنة أعلى رتبة من القساوسة . فاذا صدر أبعد المحروم من كل إتصال قانونى أو روحى بالمجتمع المسيحى ، فلا يستطيع أن يقاضى أو يرث ، أو يعقد عقدا صحيحا من الوجهة القانونية، ولكن يجوز لغيره أن يقاضيه ويحرم على أى مسيحى أن يؤاكله أو يكلمه . وإلا حق عليه الحرمان الأصغر . وقد صدر قرار حرمان ضد روبير ملك فرنسا (٩٩٨ م) لزواجه من ابنة عمه فتركه جميع رجال حاشيته ، وجميع خدمه تقريبا . وكان الخادمان اللذان بقيا عنده ، يلقيان فى النار ما يتبقى من طعامه بعد كل وجبة من وجباته حتى لا تدنسهما هذه البقايا .

وكانت قرارات الحرمان، كما تصدر على الأشخاص تصدر أيضا على الأماكن مثلما صدرت ضد ألمانيا وفرنسا وانجلترا خلال مائتى عام ، وعلى روما نفسها عام ١١٥٥ م .

وإزاء هذا الضغط من الكنيسة على اتباعها، ظهرت حركات مقاومة حملت أسماء مختلفة ، أخذت تندد بسلطة الكنيسة ، حتى قال بعضها (إن الكنيسة ليست كنيسة المسيح وإن القديس بطرس لم يحضر الى روما قط ، ولم يؤسس البابوية : وإن البابوات خلفاء الاباطرة لا خلفاء الرسل . وإن المسيح لم يجد له مكانا يضع فيه رأسه . أما البابا فيسكن قصرا منيفا . وإن المسيح لم يكن له ملك ولا مال ، ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء العريض ... الخ)

وعدت هذه الآراء زندقة وإلحادا تستحق المقاومة بحد السيف وبدأت فى القرن

الثانى عشر الميلادى حملة تأديب رهيبة شنتها الكنيسة على الذين لا يدينون بالولاء الكامل لمعتقداتهم، وهلك مئات الألوف حرقا وغرقا وتعذيبا وتقطيع أوصال ونشأت محاكم التحقيق (أو التفتيش) مستندة إلى أحكام فى العهد القديم (التوراة) بأنه إذا شهد ثلاثة شهود على ناس بأنهم (ذهبوا وراء آلهة أخرى) أخرجوا من المدينة (ورجموا بالحجارة حتى يموتوا..) كما ورد أيضا عن المخالف حتى ولو كان أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك (لا تستره بل قتلا تقتله) و (لا تدع ساحرة تعيش) وكانت هذه المحاكم تصدر أحكام إعدام المسيحيين فى كل بلدان أوروبا، وتصادر أملاكهم لشبهة، أو ما هو أقل من الشبهة، وانتشرت أعمدة الإحراق فى المدائن كلها: وقد فضلت الكنيسة الإعدام حرقا، لأنها كانت تجد من الحرام عليها سفك الدماء بقطع الرقبة مثلا !!

ووصف «ديورانت» محاكم التحقيق بقوله: «لا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق فى مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها، ونحكم عليها جميعا بأنها أشنع الوصمات فى سجل البشرية كلها، وبأنها تكشف عن وحشية لا تعرف لها نظير عند أى وحش من الوحوش».

ويمكن أن نقول أن هذه السلطة الكنسية الرهيبة استمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى. وقد أدت الى نتيجتين:

١ — إندفاع إلى الاحتماء وراء أسوار الاديرة، وإتخاذ الرهبنة وسيلة من وسائل الهرب من حياة الشك والعذاب.

٢ — تحطيم إرادة التفكير الحر، وأعمال العقل فى الحكم على الأشياء والأحياء على حد سواء.

ولم يجد الناس وقتها نصوصا صريحة واضحة فى كتبهم المقدسة، تعين على أفساح المجال للعلم والمعرفة، كما وجدنا الحال فى القرآن الكريم وفى حديث رسول الله وسنته. ولهذا عاش العقل المسيحى فى ظلام، حتى احتك بالعقل الإسلامى فى الحروب الصليبية بما سنفصله فيما بعد. وقد أحصى الشيخ محمد عبده شذرات من نتائج حملة الإضطهاد الكبرى فكانت كما يلى:

فى ١٨ سنة (١٤٨١ ــ ١٤٩٩ م) حكمت محاكم التفتيش باحراق ٢٢٠ر١٠ أشخاص وهم أحياء ، وشنق ٦٨٦٠ بعد التشهير بهم ، وبعقوبات مختلفة لـ ٠٢٣ر٩٧ شخصا . كما أمرت باحراق كل توراة مكتوبة باللغة العبرية .

وقرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ م أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد. وأن يكون من وسائل الإطلاع على أفكار الناس الإعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكى . وإنشئت محاكم دينية بثت فى أوربا كلها من الرعب ما لا سبيل الى وصفه ، حتى أن أحكام إحراق الأحياء التى نفذت زادت على ٢٠٠ ألف ضحية ، غير وسائل العذاب الرهيبة الأخرى .

وقد قاومت الكنيسة القول بكروية الأرض ،واعترضت على رحلة كرستوف كولمبس ، وشددت فى منع الحقن تحت الجلد الذى تسرب إلى أوربا من تركيا الإسلامية ، وقاوموا التخدير الذى يسهل ولادة المرأة لأنه يتحدى ما ورد فى الإنجيل «بالوجع تلدين أولادا» .

حتى البروتستانت الذين ثاروا على البابوية وسلطاتها، كان كبيرهم مارتن لوثر يصف أرسطو بأنه خنزير دنس كذاب، فى الوقت الذى وصفه مفكرو الإسلام بأنه المعلم الأول .

* * *

المسلمون . . . والعلم

كيف فهم المسلمون هذه الدفعة الإلهية القوية فى تحرير العقل البشرى ..

وكما لخص الإمام محمد عبده أصول الدين المسيحى ، فقد قدم أيضا أصول الدين الإسلامى ، فى نقط هى :

١ ــ النظر العقلى لتحصيل الإيمان ، وهو أول أساس وضع عليه الاسلام

٢ ــ تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض. إذ إتفق أهل الملة الإسلامية (إلا قليلا) أنه إذا تعارض العقل ، والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل . وبقى فى

النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه . وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . .

٣ ـــ البعد عن التكفير . فاذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر فى مائة وجه ، ويحتمل الايمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .

٤ ـــ الاعتبار فى سنن الله فى الخلق . إذ لا يعول بعد الأنبياء فى الدعوة إلى الحق ، على غير الدليل ، ولا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات

٥ ـــ إنهاء السلطة الدينية ، والإتيان عليها من أساسها . إذ لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ، ولا سيطرة على إيمانه ، ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتابه وعن رسوله من كلامه . بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف .. بإيجاز لا توجد فى الإسلام سلطة دينية

٦ ـــ حماية الدعوة لمنع الفتنة .

٧ ـــ مودة المخالفين فى العقيدة . إذ أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية أو يهودية وجعل من حقوقها القيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها ، أو بيعتها ، ولم يفرق فى الحقوق بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية من مودة ورحمة .

٨ ـــ الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة لجعل الدين يسرا ، وأباح الزينة والطيبات . ونها عن الغلو فى الدين .

* * *

كانت هذه السماحة فى تناول أمور الدين والدنيا ، هى الأسس التى قام عليها المجتمع الإسلامى ، وهو يندفع فى حرب التحرير .

هذه السماحة هى الأرض الخصبة التى نمت فيها حركة عقلية وارفة الظلال .

أمكن أن يعيش تحتها أبو ذر الغفاري فى زهده ، وعبد الرحمن بن عوف فى ثرائه، وأن يعيش فيها أبو بكر الصديق الذى أصر على أن يكون راتبه نصف شاة كاملة فى اليوم أو يعود إلى التجارة ليكسب رزقه مع قيامه بأعباء الخلافة، ويوجد معاوية ابن أبى سفيان أميراً وخليفة تحيط به أبهة الملك .

واتسعت سماحة الإسلام الأمير الأموى زياد بأن يطلب من أبى الأسود الدؤلى أن يضع على كلمات القرآن نقطا وشكلا حتى لا يلحن فيه الناس . فكره أبو الأسود ما دعا اليه الأمير ، حتى لا يحدث فى كتاب الله أمرا لم يسبقه اليه أحد ، فاحتال عليه زياد بأن وضع فى طريقه من يتعمد القراءة بلحن أو خطأ فى التلاوة . فذعر هذا العالم الجليل ،وهرول إلى الأمير قائلا: ياهذا ! قد أجبتك إلى ما سألت ، ورأيت أن ابدأ بإعراب القرآن .. فكان علم النحو . ولما ظهر بعد ذلك « ابن شنبوذ » يقول فى القرآن (١) مقالات فيها تحد لما عليه إجماع المسلمين ، لم يقتل ولم يحرق ، ووصف بأنه أحمق . مع ما هو معلوم من قداسة القرآن الكريم على كل مسلم

وأمر رسول الله عليه السلام زيد بن ثابت أن يتعلم اللسان السريانى ،ليتولى كتابة رسائله إلى اليهود بلسانهم. ثم ما لبثت أن دخلت فى الإسلام شعوب كثيرة ومعها السنتها ، ومعها ميراثها العلمى والفنى ، فلم يضق بها الإسلام . بل أنهم كانوا حملة الفقه الإسلامى ومنهم كبار المفسرين والمفتين .

وقد بدا عصر التدوين فى عهد الامويين وكان خلفاء هذه الدولة يستخدمون علماء الطب مثلما ورد فى عيون الاخبار، من أن معاوية إستخدم طبيبا نصرانيا اسمه « أبن آثال » . . وعندما كان عمر بن عبد العزيز أميراً على مصر ، صحب طبيبا مصريا ماهرا هو عبد الملك بن أبجر ،كان يتولى التدريس فى الاسكندرية وقد أسلم . واستقدم عمر الثانى معه هذا الطبيب المدرس لما ولى الخلافة ،وأمره أن يلقى دروسه فى انطاكية وحران وغيرها . وفى عهد هذا الخليفة الورع بدأت تظهر ترجمات وتصانيف لكتب فى (قوى الاطعمة ومنافعها ومضارها) وفى

«١» يراجع فى هذا الشأن كتابنا الاول عن القرآن ـ المؤلف

(قوى العقاقير) (1) وألف خالد بن يزيد بن معاوية ثلاث رسائل فى علم الكيمياء وكانت زوجة ابن شهاب الزهرى (+ ١٢٤هـ) تقول ان كتب زوجها أشد على نفسها من ثلاث ضرائر ، لأنها كانت تشغله عنها ، وقد ملأت بيته إلى قريب من السقف .

وكانت الأقاليم الاسلامية يمتاز كل منها بأنواع من العلوم والفنون . وقد قامت فى الحجاز مدارس للفقه الإسلامى . ولكن الحجاز هو الذى ارسل إلى بلاط الخلفاء والأمراء أشهر المغنين ورجال وندمان المنادرة ورواة التاريخ . ولا تعجب من إجتماع الفقه والفتيا ، وفنون التطريب والموسيقا فى مكان ورع مثل الحجاز . فإن الحجاز عندما ذكر نصيبه فى الآخرة ، لم ينس أيضا نصيبه من الدنيا. روى صاحب فجر الاسلام أن «فقهاء الحجاز أوسع صدرا وأكثر تسامحا فى الغناء من أهل العراق» .

ونشأت فى العراق مدارس كبرى أهمها مدرستا البصرة والكوفة ، تتدارس العلم ، ويتعصب كل لمذهبه فى الفقه وعلم الكلام والادب .

فإذا تجاوزنا منتصف القرن الثانى الهجرى ، وأطللنا على عصر العباسيين ، فنحن بإزاء حركة علمية وفقهية وأدبية وفلسفية ، مصحوبة بنشاط ضخم غزير فى التدوين والترجمة والنقل عن اللغات الاجنبية ، ولا سيما اليونانية والآرامية والفارسية والقبطية والهندية .

ولسنا بصدد تأريخ الحركة العلمية التى كانت تعاليم الإسلام سببا مباشرا لإنطلاقها ، وتحليقها فى آفاق فسيحة . فلهذا وقته عندما نمضى فى هذه الدراسات إلى عصور تلك العلوم إن شاء الله .

ولكننا نقدم فى هذا البحث أطرافا من عناية المسلمين الاول بتحصيل العلم فى أى مكان وجد ، وبين أى قوم نشأ . ففى محاضرات الاستاذ جويدى بالجامعة المصرية القديمة (١٩٠٨ — ١٩٠٩م) دراسة طيبة عن مجموعة كتب بطليموس التى نقلت الى العربية . وأولها كتاب المجسطى ، وهو إختصار لاسمه الكامل، وهو

«١» فجر الاسلام ص ١٩٢ لاحمد أمين

(الترتيب الكبير فى علم الفلك) وقد عنى بتفسير هـذا الكتاب وحشد المفسرين له يحيى بن خالد البرمكى. وثانى مؤلفات بطليموس التى نقلت إلى العربية كتابه فى علم النجوم ترجم فى عهد المنصور العباسى . وثالثها كتاب الزيج ترجم فى عهد الرشيد . ورابعها كتاب فى الجغرافيا ، طلب ترجمته فيلسوف الاسلام الكندى .

ومن هذا الابتداء انطلقت العقول الإسلامية الواعية فى التأليف فصنف أبو موسى الخوارزمى كتاب (صورة الأرض) وألف من بعده فى الجغرافيا أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة فى (الطبيخ) وكتابا فى الشراب !. . وتمضى سلسلة هذه المؤلفات العربية تصف البلدان الإسلامية وغير الاسلامية مثل كتاب على أبن فضلان ، الذى أرسله المقتدر سفيرا إلى ملك البلغار فوصف أحوال البلدان الشمالية . وكذلك وصف كتاب عجائب البلدان بلاد الصين والهند وجزائرها . وكتاب صور الاقاليم وكتاب مسالك الممالك وكل ذلك ونحن لم نتجاوز القرن الثالث الهجرى فإذا تركناه ، فتظهر أمامنا أسماء مؤلفين جهابذة مثل شمس الدين المقدسى ، والمسعودى، والكندى صاحب (رسم المعمور من الأرض) وهكذا تظهر الأطالس العربية ، مثل صور الأقاليم للبلخى .

يقول الأستاذ جويدى (والخلاصة أن صور الأرض والبحار والمدن كانت كثيرة شائعة فى تلك الأيام ، وعليها بنيت كتب الجغرافيا) وقد عرض بعد ذلك للبيرونى العالم الجليل الذى ألف كتاب (الآثار الباقية من الأمم الخالية). ثم الادريسى الذى ألف عدة كتب عن الغرب ، وكان مرجع المؤلفين بعده . ونمضى بعد ذلك مع قائمة طويلة من المؤلفين والمؤلفات حتى نصل إلى : تقويم البلدان لابى الفداء ، وأبن بطوطة الرحالة المشهور ، وأبن خلدون ، وياقوت الحموى صاحب معجم البلدان .

هذه لمحة سريعة جدا عن إرتقاء فرع من فروع المعرفة ثم على أيدى علماء من المسلمين . وقد وصل الفيلسوف الشهير (جوتية) إلى النتيجة الطبيعية لهذا التقدم إذ قال(١):

---

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية لمحمد صبيح ـ الطبعة الثانية ص ١٦١

«كان الشريف الأدريسى الجغرافى ، استاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هـذا العلم — لابطليموس — ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون . ولم يكن لأوروبا خريطة للعالم إلا ما رسمه الادريسى — وهو خلاصة علوم العرب لهذا الفن .ولم يقع الادريسى فى الاغلاط التى وقع فيها بطليموس ..»

ثم أجاب جوتيه — وهو قمة مسؤول فى دنيا الفكر الغربى — على سؤالين:

— من دار حول أفريقية ؟ هل هو فاسكو دى جاما !!

— من كشف أمريكا ؟ هل هو خريستوف كولومبس !!.

قال : « من السهل أن ندرك أن هذين الكشفين اللذين فاقا جميع من تقدمهما قد تما على أيدى بحارة من العرب . . وكان تحقيقهما متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب .. وتم هذان الكشفان العظيمان، بعقول العرب، ومواردهم واشخاصهم تحت أمرة الأوربيين »

بل كانت ترسانات بناء السفن فى موانى اسبانيا والبرتغال ، مليئة بالعمال والبحارة العرب حتى بعد أن فقدنا الاندلس،ومنهم من اشترك فى رحلة كولمبس التى كشفت أمريكا ..

ولهذا — ما أن أيد جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢م) ببحثه العلمى كروية الأرض ، حتى استقبل الفكر الاسلامى هذه القضية ، استقبالا عاديا ، ولم تثر فى أوساطه دهشة ولا إنكارا . أما العالم المسيحى ، فنصب لصاحب هذا الكشف المحاكمات فى روما ، وقضى عليه بالسجن فى بيته طول حياته لا يرى أحدا ولا يراه أحد ، وقد توفى بعد ثمانى سنوات من تطبيق هذه العقوبة عليه.

ويروى الشيخ محمد عبده أنه كان من حظ العلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا أيطاليا ، أن البابا كان غائبا عن كرسيه ، إذ إنتقل مقره إلى أفنيون بفرنسا مدة سبعين سنة . فدب العلم إلى شمال إيطاليا ، واستقر به القرار هناك.. وكانت أول مدرسة طبية إنشئت فى قارة أوربا هى التى أنشأها العرب فى (سالیرن) من بلاد إيطاليا ، وأول مرصد فلكى أقيم فى أوروبا هو الذى أقامه العرب فى أشبيليه من بلاد اسبانيا (كانت توجد مراصد أخرى كثيرة أهمها مرصد سمرقند)

فى الوقت الذى كانت تتصارع فيه قوى المسيحية والاسلام على أرض الشام الكبير، وتسيل الدماء انهارا.. وهو وصف حقيقى لا مجازى .. فى الوقت الذى وقعت فيه دمياط على شواطىء مصر ذبيحة هذا الصراع،ثم ارتدت موجة الغزو المسيحى عند المنصورة بهزيمة منكرة . . وفى الوقت الذى طال فيه هذا الصراع نحو قرنين من الزمان اشترك فيه أكثر من مليونين من المحاربين من الجانبين .. فى هذا الوقت حسبت الكنيسة الكاثوليكية بروما أنها وصلت إلى قمة نفوذها .. ويكفيها إعتزازا بقوتها أنها تمكنت من تسيير هذه الحملات المسلحة برا وبحرا، وأنها فى الطريق استولت على القسطنطينية وضمتها إلى نفوذها الروحى . . فى هذا الوقت ظهر صلاح الدين مناظرا لريتشارد قلب الأسد، وتمكن من أن يضع بعبقريته العسكرية خاتمة لهذه المذابح الهائلة ، بانتصاره على المغيرين باسم الصليب ... فى هذا الوقت كان شىء خطير آخر يحدث .

لقد احتك المحاربون القادمون من أوربا بالعالم الاسلامى ، وبفكره ، وعلى الرغم من حماستهم الهائلة للكنيسة ، وكل ما تقف بازائه ، إلا أن المبادىء التى قام عليها الاسلام بدأت تتسرب إلى نفوسهم من حيث لا يريدون ، وترسب فى أعماق فكرهم ، فلا يستطيعون الفكاك من أسرها .

وكان القادمون من الغرب يطمعون فى ذهب الشرق وثرواته ، ويعودون بأغرب الأفكار والآراء ... إنهم كشفوا عن دنيا لا كهنوت فيها ، ولا سلطان لرجال الدين ، لانه لا يوجد هذا النظام . . فكل مسلم يعرف طريقه الى الله بغير واسطة .. إنهم وجدوا أقواما لا يحبون التماثيل ولا يعبدونها ، ولا يوجد من يحاكمهم على هذا الرأى أو ذاك ، يرونه فى شئون الدنيا أو شئون العقيدة، ووجدوا علماء وأطباء وفلاسفة.. ووجدوا مكتبات هائلة وكتبا تسد مجارى الأنهار إذا القيت فيها ، ووجدوا العبادة ممكنة فى المسجد ، وخارج المسجد ، وفى كل مكان يوجد فيه الانسان .. ووجدوا نظافة تصحب الصلاة كلما إقيمت الصلاة، وغراما بالماء والاستحمام ..

ووجدوا مدنا جميلة ، وشوارع مرصوفة بالبلاط، ولم تكن مدنهم كذلك

ووجدوا رحمه للانسان الضعيف ، والحيوان — وتكريما للمرأة — أى امرأة. وإعطائها مكانا كبيرا فى حياة الجماعة .. حتى أن منهن من تولى الحكم ورياسة الدول. ووجدوا القرآن يتلى بلغة القوم ، ويفهمونه ، وهم الذين يصعب على كثرتهم معرفة الصلوات الكنسية التى تتلى بلغات قديمة لا يدركون معناها ..

كانت المعارك تنتهى بوضع السلاح لفترة من الزمن تطول أو تقصر ، وتبدأ على الفور معركة نفسية هائلة ، لا تهدأ .

وهكذا كان القرنان الحاسمان — الحادى عشر إلى الثالث عشر الميلادى — فترة تحول خطير فى النفسية الأوربية ، والفكر الأوربى ، وفيها عززت الحروب الصليبية الثورة ضد الكنيسة وسلطانها الرهيب الذى وصفناه قبل .. وهكذا شأن الحروب الكبيرة دائما ، لا تكون الدنيا بعدها ، كما كانت قبلها .

ولم تكن الحروب الصليبية وحدها هى مظهر الإحتكاك الفعال بين الاسلام والمسيحية ، ولكن سبقتها وصحبتها وتبعتها التحامات كثيرة وقع فيها أسرى من الجانبين باعداد كبيرة ، وقبل أن يفك أسرهم ، أتيحت لهم فرص الأخذ والعطاء الفكرى حيث اقاموا مجبرين، ولا ننسى مواقع هامة ظل فيها المسلمون لعشرات من السنين يحتلون مواقع استراتيجية فى بلاد أوربا ، منها معابر جبال الألب بين سويسرا وإيطاليا ، ولم يكونوا يسمحون بمرور الحجاج وغيرهم إلى روما إلا بتصاريح مكتوبة لقاء رسوم معينة،وأقامت جموع من العرب فى سهول سويسرا وتزاوجوا من أهلها ، ووصلوا إلى مدينة ليون فى قلب فرنسا ، وقد احتفظوا بهذه المواقع فى إنتظار جيوش عربية تأتى من الاندلس أو المغرب فى طريقها إلى القسطنطينية من الغرب بعد أن تعذر اقتحامها مواجهة أو من الشرق. ولكن خلاف دول المسلمين وقيام حكم أموى فى الأندلس ، وفاطمى فى مصر ،وعباسى فى بغداد ، حال دون تنفيذ هذا التخطيط الجرىء ، الذى أريد منه الاستيلاء على عاصمتى المسيحية فى كل من إيطاليا وبيزنطة .

ولكن لم تكن علاقات أوروبا بالاسلام كلها عداء . فان امبراطور القسطنطينية ، عملا على تحسين علاقاته مع المسلمين ، عمر مسجدا فى مدينته ، ليقيم فيه المسلمون صلواتهم وذلك فى عام ١١٩٥م (٥٩٢ ه) أى قبل سقوط

هذه العاصمة فى يد العثمانيين بقرنين ونصف قرن من الزمان . كما كانت توجد فى بعض بلاد البلقان قبل هذا التاريخ جالية إسلامية قوية ، فضلا عن أن إسلام (القبيلة الذهبية) وهى جيش المغول القوى الذى احتل روسيا وشرق أوروبا قرنين ونصف قرن من الزمان .. كل هذا أطلق أضواء قوية من المعرفة على عالم الظلام الأوروبى فى هذه القرون التالية لانتشار المسيحية فيها . بل كانت اللغة العربية لغة دولية للتخاطب السياسى مدة تصل الى ثلاثة قرون (١).

وفى الأندلس ، وعلى مدى ثمانية قرون متعاقبة، تم هذا الالتقاء بين الفكر الاسلامى ، وما أدى اليه من حضارة مزدهرة ؛ والمجامع المسيحية الأوروبية ، وما كانت ترسف فيه من أغلال ، وكان اليهود من أقوى العناصر الحاملة لهذا التفكير فى هجراتهم من أسبانيا واليها ..

وقد درس المرحوم الأستاذ أمين الخولى هذه التأثيرات فى بحث نفيس (٢) قدمه لمؤتمر الأديان الدولى بمدينة بروكسل عام ١٩٣٥ ؛ ووجد أن خصائص الحضارة الاسلامية ، والدين الاسلامى قد تسربت خلسة إلى العالم اللاتينى فى عدة إصلاحات أهمها :

١ ــ رفض سلطة الكنيسة سواء أكانت ممثلة فى البابا ؛ أم فى المجامع .. أو ما اسمى عبادة البابا،ومسألة الاعتراف .

٢ ــ ما قرره مارتن لوثر واضع مذهب البروتستنتية من أنه لا وساطة للكنيسة بين الله والناس .

٣ ــ الكتاب المقدس هو الأصل . ونبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجامع،والآباء والتقاليد .

٤ ــ تفسير الكتاب المقدس من حق كل مسيحى .

٥ ــ إنكار إستحالة القربان إلى جسد المسيح ودمه .

---

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية لمحمد صبيح ص ١٧٢

(٢) صلة الاسلام باصلاح المسيحية ــ أمين الخولى طبعة الازهر ١٩٣٩

٦ – إبطال عبادة الصور ، ورفعها من الكنائس وتحطيمها ، وهو ما ألحت عليه البروتستنتية إلحاحا شديدا .

وواضح أن هذه التأثيرات العقلية كلها لم تتم بغير مقاومة . وأظهر الدلائل على هذه المقاومة ، موقف الكنيسة من فلسفة ابن رشد حكيم الاسلام العظيم .

وفى لمحة سريعة جدا ، نقدم هذه الشخصية التى كانت وسيلة الفكر الأوربى إلى سلوك طريق التحرر ، والانطلاق إلى نهضة علمية شاملة .

هو أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد . ولد فى قرطبة (الأندلس) عام ١١٢٦م (٥٢٠ هـ) وتوفى فى المغرب عام ٥٩٥هـ (١١٩٨ م) وكان أبوه وجده قاضيين ، كما شغل هو منصب القضاء .. دعاه استاذه أبو بكر بن الطفيل يوما فقال له سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة (ارسطو) أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، وأنى لأرجو أن تفى به ، لما اعلمه من جودة ذهنك ، وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سنى ، واشتغالى بالخدمة .

.. قال ابن رشد: فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس .

وإذن فقد كان هناك سلطان حكيم هو أبو يعقوب يوسف ، أغرم بقراءة الفلسفة اليونانية ، وكان بالقرب منه عالم جليل هو ابن الطفيل مؤلف (حى أبن يقظان) الذى ترجم وقتها إلى اللاتينية ، **وكان** أساس حركة (الكويكرز) ورحلات روبنسن كروزو وغيرها .. وبدأ ابن رشد .

كتب ابن رشد عن ارسطو ثلاثة أنواع من الشروح ، ترجمت الى لغة اللاتين عام ١٢٣٠ م كما ترجمت جميع كتبه الاخرى ، ولقى من شدة الاعتناء بآرائه ما لقيه قبله الرئيس ابن سينا .

ويمكن أن نقول أن القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى عاشتها الحياة الفكرية الأوروبية تحت سيطرة الفلسفة الرشدية بغير منازع لها .

ويروى كتاب (مجالى الاسلام)[1] أن فلسفة ابن رشد كانت مدار التعليم فى أشهر مدارس انجلترا ، والبندقية ، وفرنسا ، ولكن جامعة (باذو) كانت هى حصن هذة الفلسفة وابن رشد أستاذها بلا منازع .

ولم تقف الكنيسة مكتوفة اليدين ازاء هذا الغزو العلمى الذى زحف عليها من الاندلس فقد سيق اساتذة الجامعات فى فرنسا إلى محاكم التحقيق ، ونالوا عقوبات الاعتقال مدى الحياة . ورسم القديس توما جالسا على عرش وهو يدوس ابن رشد بقدميه . وفى مجمع فينا الكنسى ، قدمت للبابا كليمان الخامس عريضة ، فى عام ١٣١١م، وذلك لابادة الاسلام والقضاء على فلسفة ابن رشد!! وقد ورد فى هذه العريضة ضرورة إقصاء كتب ابن رشد من جميع المعاهد وتحريم قراءتها رسميا .

وعند تعلمت أوروبا على أيدى الفكر الاسلامى ، كفت عن محاربة الحقن تحت الجلد الذى تسربت إليها من بلاد المسلمين ، وظهر فيها جاليليو وديكارت وأمثالهما ، وكان ذلك فى القرن السادس عشر الميلادى .

وفى كلمات قليلة يرى الشيخ محمد عبده أن فلسفة ابن رشد ترى العقل عقلين: واحد عام مستقل عن جسم الانسان ، وغير قابل للامتزاج بالمادة ، والثانى عقل منفعل خاص قابل للفناء والتلاشى مثل باقى قوى النفس ، وانما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين والعلم هو سبب الاتصال بين الخالق والمخلوق ولا طريق غير هذا الطريق. ومتى أتصل الانسان بالله ، صار عارفا بكل شىء فى الكون ، ولم يعد يفوته شىء ولكن كيف يتصل الانسان بالله ؟

يتصل الانسان بالله ، بان يدأب على الدرس والبحث والتنقيب ويخرق بنظره حجب الأسرار التى تكتنف الكون ، فإنه متى خرق هذا الحجاب ، ووقف على كنه الأمور ، وجد نفسه وجها لوجه أمام الحقيقة الابدية .

* * *

هذه هى الكرة التى تلقتها أوروبا المسيحية عن الاسلام وهى العلم ، فلعبت بها ، وأجادت .

---

(١) مجالى الاسلام تأليف حيدر بامات وترجمة عادل زعيتر

ومنذ القرن السادس عشر الميلادى، نفضت أوروبا عنها تعاسة القرون المظلمة ، وتوقفت عن حروبها التى لاجدوى منها ضد العقيدة الاسلامية ، وانطلقت تطبق ما وصل اليها منها ، فارتادت البحار المجهولة ، وكشفت عن الأماكن البعيدة، ولم تعد الرياح العاتية ، أو الثلوج الطاغية، أو الجبال العالية بعقبة تعوقها عن التقدم

وأخذت بلاد الاسلام وشعوبه تتراجع أمام هذا الزحف ، وساعد على هزيمتها، تفرق الحكام وخصوماتهم التى عملت عملها فى تفتيت القوة ، وتثبيط العزيمة. فقد أرسل هارون الرشيد لشرلمان يحضه على مهاجمة الأمويين فى الاندلس والإستيلاء عليها منهم .. وفى الوقت الذى كانت الاندلس الإسلامية تذبح وتحتضر ، لم يهب صوت من المشرق لنجدتها ..

حقيقة حدث شيء من التعويض فى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية وانطلاقهم فى دول البلقان ، حتى وصلوا إلى الدانوب ، ولكن لم يكن وراء هذه الحركة غير العضلات الحربية، أما الطاقة العقلية التى يحركها الاسلام فى نفوس المؤمنين والتى تعد قوام الحضارة وشعار التقدم ، فلم تشعل شرارتها المقدسة نفوس الاتراك كما أضاءت نفوس الذين من قبلهم ،

ومهما يكن من أمر فقد وصلت أوروبا فى أربعة قرون، إلى القمر، وأطلقت أقمارها الصناعية . ومحطاتها المذيعة والكاشفة، الى الافلاك البعيدة ، وقسمت الذرة وأطلقت طاقتها الهائلة من عقالها ..

ولكن هل هذا هو آخر المدى. فى البحث عن قدرة الله وأسرار الكون ؟. إن كل جديد يصل اليه العقل الانسانى يذكرنا بقوله تعالى :

(فلما تبين له ، قال أعلم أن الله على كل شيء قدير)

وإن من تمام إسلامنا ، وإيماننا ، أن نواصل ما بدأه اسلافنا ، وأن ننطلق فى آفاق المعرفة ، لنكون السابقين لمن علمناهم ، وأن يكون (العلم) هو القاعدة الاولى التى نستفيدها من قولنا : لا إله إلا الله .

٢ - العمل وحسن المعاملة

ما أكثر آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن العمل ، وتصفه بأنه العمل الصالح .

ترى ، هل العمل الصالح ، هو أداء العبادات فقط ، أم أن كل ما يؤديه الإنسان من عمل يريد به خير نفسه ، وخير أهله ، وخير الجماعة الإنسانية هو ما عنته دعوة الإسلام .

إن الدين الذى ختم الأديان كلها ، هو الذى يحض على تعمير الأرض، وعلى استخدام العلم فى فتح آفاق جديدة للانتاج ، وزيادة الأرزاق ، وتعميم الرخاء بين أفراد البشرية .

وفى يقيننا أن العمل الصالح فى مفهوم الإسلام هو ماعنته الآية الكريمة من سورة النحل :

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى : وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة » . فقد رتب سبحانه على القيام بالعمل الصالح الحياة الطيبة التى لا ضيق فيها ولا مسغبة ، والتى تؤدى إلى إسعاد النفس وإسعاد الغير فى أيام الحياة كلها .

حتى الأرض وافرة الثمر ، تحتاج إلى عمل يبرر ارتزاق الناس منها . إسمع إليه تعالى يقول فى سورة يس :

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا،فنه تأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم،أفلا تشكرون »

فالشكر هنا منصرف إلى الرزق الذى تنبته الأرض ، وإلى القدرة على العمل التى وهبها الله الانسان ، حتى يدبر معاشه وهى نعمة النعم .

وهل استخلف الله الإنسان فى الأرض ، ووهبه الله القدرة على التمييز ، وإعمال العقل فيما حوله إلا ليستخدم كل هذا فى إيمان ، وفى يقين ، بأنه يطيع أمر خالقه؟ قال فى سورة النور : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم» أوقوله فى سورة الاعراف: «ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون » .

واسمع إلى وصف القرآن لما كان آل داود يقومون به من فنون العمل ، ومهروا فيه ووجب عليهم أن يشكروا ربهم على توفيقه لهم . وقال فى سورة سبأ :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدورا راسيات . اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور) .

وفى سورة التوبة هذا الأمر الواضح الصريح بالعمل: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون)

وهذه أربع آيات من القرآن الكريم تحض على العمل الدائب ، حيث يوجد الرزق : .

(وجعلنا النهار معاشا) .

(وجعلنا لكم فيها معايش)

(. . وآخرون يضربون فى الارض ، ويبتغون من فضل الله) .

(. . . فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله)

* * *

وما أكثر أحاديث رسول الله الحاضة على العمل . وأنه وجه من وجوه العبادة ، لاتغنى عنه عبادة أخرى . وإن كان لا يجب فى سبيل العمل أن يضيع الإنسان واحدة من العبادات المفروضة .

روى الغزالى : (١)

قيل للامام احمد بن حنبل : ما تقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده ، وقال لا أعمل شيئا حتى يأتينى رزقى . فقال احمد : هذا رجل جهل العلم . أماسمع قول النبى عليه الصلاة والسلام (إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى) ، وقوله حين ذكر الطير (تغدو خماصا وتروح بطانا) أى أنها تنطلق فى طلب الرزق .

وكان أصحاب رسول الله ، يتجرون فى البر والبحر ، ويعملون فى نخيلهم ، والقدوة بهم ، وقال أبو قلابة لرجل : لئن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك فى زاوية المسجد .

جاء فى الاثر عن رسول الله : (من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة) .

وقال : (التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء).

وقال : (عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق)

وقال : (من طلب الدنيا حلالا ، وتعففا عن المسألة ، وسعيا على عياله ، وتعطفا على جاره ، لقى الله وجهه كالقمر ليلة البدر)

وقال : (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع،إذا نصح) .

وقال : (لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله ، فيسأله أعطاه أو منعه)

وقال : (لا يحملنكم استبطاء شىء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى، فان الله لا ينال ما عنده بمعصيته)

وقال : (إن الله يحب العبد يتخذ المهنة،ليستغنى بها عن الناس)

كان النبى عليه الصلاة والسلام جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب

(١) أحياء علوم الدين ج ٢ ص ٦٥

ذى جلد وقوة ، وقد بكر يسعى لعمله فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه، وجلده فى سبيل الله ! فقال سيدنا محمد : « لاتقولوا هذا فانه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً ، فهو فى سبيل الشيطان ».

* * *

وكل عمل فهو عمل شريف ، مادام لا يضير أحدا ولا يستغل جهد الناس، ويستحل لنفسه ما تعب فيه الغير .

وأول شيء نهى عنه الإسلام الاحتكار . وقد حرص العلماء على دراسة قواعد المعاملة ، وتوخى العدل فيها ، تنفيذا لأحاديث رسول الله ، فانه يقول عليه السلام :

(من احتكر الطعام اربعين يوما ، ثم تصدق به ، لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره) .

وردد عبد الله بن عمر عن رسول الله هذا المعنى إذ قال :

(من احتكر الطعام أربعين يوما ، فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه)

ويرى الإمام الغزالى أن إنفاق درهم مزيف ، أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة ، وقد تمت وانقطعت . وانفاق الزيف يستمر وزره بعد موت مرتكب هذا الذنب ، مائة سنة أو مائتين إلى أن يفنى ذلك الدرهم . ويكون عليه ما فسد من أموال الناس . والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه من بعده يعذب بها فى قبره .

بل ذهب أئمة المسلمين إلى ضرورة أن ينصح الصانع أو البائع عميله فى السلعة إذا كان فيها عيب أو نقص . إذ الشرط الأساسى لكل معاملة هو منع الضرر .

روى عن رسول الله أنه مر برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه ، فرأى بللا فقال ماهذا ؟ قال أصابته السماء . فقال: «فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس . من غشنا فليس منا».

وروى أيضا ان جرير بن عبد الله لما بايع رسول الله على الاسلام ذهب لينصرف ،فجر ثوبه ، واشترط عليه النصح لكل مسلم ، وكان جرير تاجرا ، فكان إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر بعيوبها ، ثم خير المشترى وقال : إن شئت فخذ ، وإن شئت فاترك!! فقيل له : انك إذا فعلت مثل هذا ، لم ينفذ لك بيع فقال : نا بايعنا رسول الله على النصح لكل مسلم

وفى العمل المشترك قال رسول الله : (يد الله على الشريكين ، ما لم يتخاونا فاذا تخاونا رفع الله يده عنهما)

ومن أهم ما عنى به الإسلام فى التعامل بين الناس إحسان الكيل والميزان وقد نزلت سورة المطففين تتضمن هذا المعنى إذ قال الله فيها (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)

يقول الفقهاء : كل من خلط بالطعام شيئا ليس منه، أو غيره ، ثم كاله، فهو من المطففين فى الكيل ؛ واستحق الويل. حتى بائع القماش ، وهو البزاز إذا اشترى أرسل الثوب ، وإذا باع مده ليظهر تفاوتا فى القدر ، فهو مطفف .

ولقد كثر الحديث فى السيرة النبوية . عن شئون التجارة ، لأن أهل قريش كانوا قوما تجارا ، حتى أن حكومتهم أسميت حكومة التجارة ، وعند ما فتح رسول الله عليه السلام مكة ، كان من أهم الأعباء التى ندب لها واحدا من صحابته الموكل بالسوق ، ليراقب الأسعار ، ويراقب الكيل والميزان .

***

ولما تولى على بن أبى طالب رضى الله عنه الخلافة ، كان يدور فى سوق

السكوفة بالدرة ويقول : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، لا تردوا قليل الربح ، فتحرموا كثيره .

ومن آيات القرآن الكريم ، التي يختم بها خطيب الجمعة قوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)

وهل العدل والاحسان إلا تعامل بين الانسان والانسان فى خدمة أو صناعة أو تجارة . توضح هذه الآيات شبيهات لها فى قوله تعالى : (وأحسن كما أحسن الله اليك) وقوله : (إن رحمة الله قريب من المحسنين)

وما اجمل قول رسول الله : (خذ حقك فى كفاف وعفاف)

وكلنا يذكر هذا الشاهد الذى وقف أمام أمير المؤمنين عمر يؤدى شهادة عن شخص قال إنه يعرفه وأثنى عليه . سأله عمر :

ـــ أنت جاره الأدنى . الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ رد الرجل :

ـــ لا . . فقال عمر :

ـــ كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟فقال له الشاهد:

ـــ لا . فسأل عمر :

ـــ فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل . قال الشاهد :

ـــ لا . . فأدرك عمر بفراسته أن الشاهد رأى صاحبه يتعبد. فقال له :

ـــ أظنك رأيته فى المسجد قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى . فأجاب الشاهد :

ـــ نعم . فرد عمر :

ـــ إذهب . فلست تعرفه . وقال للمتقاضى :

ـــ إذهب فائتنى بمن يعرفك !

وكم نرى أشخاصاً ، تزين جباههم علامة الصلاة ، من كثرة السجود . فاذا دعوتهم إلى آداء عمل ، أو عاملتهم فى صناعة أو تجارة ، لم يترجموا ركوعهم وسجودهم إلى « إحسان » فى العاملة ، وما أكثرما يعترف أصحاب الحرف ، بأنهم إذا اتقنوا عملهم ، خف الطلب عليهم ، وقلت أرباحهم . . وهؤلاء يجب أن يعلموا أن الرزق قرين الأمانة فى القول والعمل . أن سيدنا محمداً يقول : « اتق الله حيث كنت ، ولا تكون تقوى الله إلا فى السداد والاتقان .

والطبيعة البشرية نزاعة إلى الكسب الوفير ، مع الجهد القليل ، أى بغير جهد على الإطلاق . وما على هذا تقوم قواعد المجتمع . فان نصيب الإنسان فى الدنيا ، بقدر إجتهاده . وربما واتى الحظ بعض الناس ، ولكن ليست هذه هى القاعدة . والمعاملة السليمة العادلة ، هى أن نعمل ، ونحسن معاملة الغير ، فنظفر بما يوازى كفاءتنا ، وما تعلمناه ، وما اتقناه .

أما كيف يتقى الإنسان إغراء الحياة بالكسب غير المشروع ، فان ذلك ينال بالمجاهدة والمصابرة ، والصدق مع النفس ومع الغير .

روى عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر أن ابليس يقول لولده :

سر بكتائبك فات أصحاب الأسواق ، زين لهم الكذب ، والحلف ، والخديعة والمكر ، والخيانة ، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها . . . وفى هذا المعنى تتمثل كل المغريات فى الاثراء على حساب الغير بغير حق ، وكيف انه ثراء من عمل الشيطان ، وهو عمل غير صالح يأباه الله ، ورسوله ، ويأباه الخلق الكريم .

ان الله تعالى قال : «كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا» . وقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

وقال رسول الله : «من سعى على عياله من حله (حلاله) ، فهو كالمجاهد فى سبيل الله . ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف ، كان فى درجة الشهداء » .

وقال أيضاً : « من اكتسب مالا من حرام ، فان تصدق به لم يقبل منه ، وان تركه وراءه كان زاده إلى النار » .

وروى عنه عليه السلام : « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم ، فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ، ما كان عليه (هذا الثوب) »

* * *

وكل المسلمين يقرأون فاتحة الكتاب ، ويرددون آية « . . وإياك نستعين » والإستعانة هنا ، هي طلب المعونة ، وإنما يطلب المعونة ، كل محتاج لها ، والمصدر الأعظم والأول ، لكل معونة هو الله سبحانه وتعالى . . هو الذى يمد الفرد بالقوة . . لماذا ؟ لكى يؤدى عمله ، ويتقنه على الوجه الأكمل .

يقول الشيخ محمد عبده فى تفسيره : « . . ان نعمل الأعمال النافعة ، ونجتهد فى إتقانها ما إستطعنا . لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته ، فلم يوفه حقه . أو يخشى الا ينجح فيه ، فطلب المعونة من أحد على إمساكه . ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده ، يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد بذل الجهد فى الاستقلال به » .

وفى تقديرنا ، أن طلب المعونة من الله فى أداء أى عمل ، لا يحجب ولا يمنع تعاون الأفراد بعضهم مع بعض ، فهم معا — بقوة الله — أكثر سدادا وإنتاجا .. وما أجمل أن يحل لفظ « نحن » ، محل لفظ « أنا » فى أداء الأعمال . وما أحوجنا ، ونحن نجدد حياة الامة الاسلامية ، إلى مزيد من العمل المشترك ، نواجه به الأحداث . . ولطالما سخر منا أعداؤنا وتفاخروا بأنهم أقدر على التعاون من غيرهم ، حتى قال قائلهم : ان الرجل الإنجليزى وحده يمثل البلاهة ، فاذا إجتمع إثنان كونا شركة ، وإذا إجتمع ثلاثة انشاوا إمبراطورية . وهم بهذا يتندرون على خلق التفكك والتباعد بين أفراد الشعوب التى إحتلوها !! وهذا كله موشك أن يزول بحمد الله

* * *

وحسن المعاملة ، ينسحب على علاقة الانسان بوالديه ، وعلاقة الوالدين بالبنين والبنات ، وعلاقة الفرد بجيرانه ، وعلاقة الانسان بمن يستأجره أو يعمل عنده ، وعلاقة الانسان بأى إنسان بينه وبينه تعامل . . كلها تطيب وتزكو

بالكلمة الحلوة والابتسامة المشرقة ، والقلب المقبل الذى لا يتقلب ، وهو ما ما تدل عليه جميعا كلمة (الانسانية) فى استعمالها العامى ، وفى استعمالها اللغوى

حسن المعاملة هو البر ، الذى وصفته آية البر تفصيلا ..

حسن المعاملة هو أن يأنس لك الفرد أو الجماعة ، ولا يخشى بطشك ، ولا غدرك الناس .

حسن المعاملة هو الألفة ، التى تحدث عنها رسول الله عندما قال (المؤمن إلف مألوف . ولا خير فى من لا يألف ولا يؤلف).

حسن المعاملة هو أن تعيش مع الجماعة، وبالجماعة . وسيدنا محمد الذى يقول (من فارق الجماعة ، فمات . فميتته جاهلية) ويقول (من هجر أخاه سنة ، فهو كسافك دمه) ويقول : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)

حسن المعاملة هو تعاون الناس بعضهم مع بعض .. قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الأثم والعدوان).

حسن المعاملة هو أن تقول كلمة الحق فى رفق ، ومودة .. وبغير خوف . ونبينا محمد هو الذى قال (لا ينبغى لامرىء شهد مقاما فيه حق ، إلا تكلم به فانه لن يقدم أجله وان يحرمه رزقا هو له)

حسن المعاملة ، هو أن نحب من أجل الحب ، والخير ، والحق ، وأن نعارض مع إعطاء فرصة للغير، فربما كانت وجهة النظر الأخرى هى أيضا صواب أو بعض الصواب . وهذا التجرد من الانانية ، هو سمة من عظمة النفس . وكلما ارتقى الانسان فى مراتب العلم حسن اصغاؤه ، وقل اعتراضه ؛ واحترم وجهة نظر الآخرين ، حتى ولو لم تكن من رأيه ..

حسن المعاملة ، هو ألا نؤذى الغير بالكلمة الجارحة ، والرفض البات ، والمواقف الباعثة على اليأس . فإن حكمت بها الظروف ، فالمواساة .. المواساة . والكلمة الطيبة التى تأسوا الجراح ، وتجعل طاقة من الامل مفتوحة .

حسن المعاملة ، هو أن تقدر على غضبك ، ولا يقـدر عليك . وأن تتق الله فى سخطك. فيقيك الله من سخط من هو أقوى منك.وقد تقف موقفا تحتاج فيه إلى نسمة من رحمة ، وقد يكون هذا الموقف أمام عزة الله .

لم ينس معاوية بن أبى سفيان إلى آخر يوم من حياته ، أنه وافق فى سورة غضب على قتل أحد معارضيه (حجر بن عدى) وكان يقول وكأنه يخاطب نفسه يومى منك ياحجر يوم طويل .. وروى عن معاوية أيضا ، أنه حبس العطاء عن بعض الناس ، فقام اليه أبو مسلم الخولانى ، فقال له :

ـــ يامعاوية . إنه ليس من كدك ، ولا من كد أبيك ، ولا من كد أمك!!

فغضب معاوية ، ونزل عن المنبر واستبقى الناس فى المسجد ثم غاب ساعة ، وخرج عليهم وقد أغتسل ثم قال :

ـــ إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الغضب من الشيطان ، والشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ،فاذا غضب أحدكم فليغتسل) وانى دخلت فاغتسلت .. وصدق أبو مسلم إنه ليس من كدى ، ولا من كد أبى .. فهلموا إلى عطائكم ..

ونحن جميعا ، نرى أن معاوية ، حين نزل على رأى العقل والسماحة ، كبر فى نظر نفسه ، ونظر الناس ، وأصبح هذا الحادث قصة فى حسن المعاملة تروى على مر التاريخ . وكان يمكن لمعاوية أن يبطش بابى مسلم ، فيسوء رأى الناس فيه ، ثم يسوء رأيه هو فى نفسه بعد أن يهدأ غضبه ، وتنتهى مواقف الحرج ..

وحسن المعاملة ، غير الضعف والاستسلام ، ولـكنه الحزم فى رفق، ورحابة صدر ، والاناة فى التفكير والتدبير . وتذكر أن لـكل مقام مقال.وأن قطرات الماء المتتابعة على لينها وتواليها ، قد تفتت الصخر على صلابته وجلادته !

إسمع الى قصة هذه الفتاة، جاءت بين أسرى إحدى الغزوات فى حياة رسول الله ، وكـانت قبيلة طى هى المنهزمة .. ولمحت الفتاة سيدنا محمد ، فرفعت صوتها قائـلة :

ـــ إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فانى بنت سيد قومى ، وان أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ؛ ولم يرد لطالب حاجة قط .. أنا ابنة حاتم الطائى !

فقال رسول الله :

ـــ ياجارية .. هذه صفة المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلما . لترحمنا عليه. خلوا عنها . فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق. وان الله يحب مكارم الاخلاق

فقام الصحابى أبو بردة بن الأنبار فقال :

ـــ يارسول الله ، الله يحب مكارم الأخلاق ؟ فرد عليه السلام :

ـــ والذى نفسى بيده ، لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق .

***

والقرآن الكريم حافل بالحض على حسن المعاملة .. قال :

- (خذ العفو وأمر بالمعروف ، وأعرض الجاهلين) .
- (فاعف عنهم ، وأصفح .. إن الله يحب المحسنين) .
- (إدفع بالتى هى أحسن . فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)
- (والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس) .

وجمع الغزالى من أحاديث البخارى وابى مسلم ، جملة من خلق رسول الله ، وكلها تدل على حبه للعمل ، وأنه لا يأنف ولا يستعلى ، روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها :

كان عليه السلام يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخدم فى مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن . وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد . ويجيب دعوة العبد والحر . ويقبل الهدية ، ولو أنها جرعة لبن ، أو فخذ أرنب، ويكافىء

عليها ، ويأكلها . ولا يأكل الصدقة . ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . . يغضب لربه ، ولا يغضب لنفسه . وينفذ الحق وإن عاد عليه بالضرر ، أو على أصحابه . عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين، وهو فى قلة ، وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك .

ومن خلقه عليه السلام أيضا أنه كان يكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم . يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أفضل منهم . لا يجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر اليه . يمزح ولا يقول إلا حقا : يضحك من غير قهقهة . يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله . وترفع الأصوات عليه،فيصبر .

ومن حسن معاملته فوق هذا أنه كان لا يرتفع على من يعملون عنده فى فى مأكل ولا ملبس . ولا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه ؛ يخرج الى بساتين أصحابه . لا يحتقر مسكينا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا ..

وهل ننسى هذا الرجل دخل على رسول الله ، فارتعد من هيبته فطيب النبى نفسه وقال له .

« هون عليك ، فلست بملك . انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

وكان لايدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال « لبيك » .

• • •

هذا هو أدب الرسول فى حسن المعاملة ، التى تجعل من العمل شرفاً ، ومن كل تعامل بهجة للنفس ، وقوة للفرد وللجماعة .

ونحن نعلم أن الجماعة الانسانية تناضل فى هذا العصر من أجل حياة أفضل ، بعد أن زاد عدد السكان ، وبعد أن وضع بعض الأقوياء أيديهم على أرزاق شعوب أضعف منهم ، أثرة وطمعاً . مما أدى إلى حدة فى الطباع ، ومخاوف تكاد تفقد الناس رشدهم .

وما من شيء يساعد في نجاح معركة المظلومين ضد الظالمين، وكفاح المستعبدين ضد المستبدين، أكثر من أن تسود الجماعة المناضلة روح الإخاء الصادق.

ألا تسمع المؤذن يذكرنا خمس مرات فى اليوم (حى على الفلاح) وهل الفلاح إلا أن نخلص لأعبائنا الخاصة والعامة، ونوفر لها كل الجهد لا نبخل به، ولا نخون أمانة الكلمة، ولا أمانة العمل، ولا أمانة الجوار، ولا أمانة الجماعة. هذا هو الفلاح أو بعضه.

ولنتذكر دائما قوله تعالى فى سورة البقرة :

« ولا تنسوا الفضل بينكم، إن الله بما تعملون بصير ».

وقوله فى سورة فاطر :

« إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح ».

وليكن لنا من صدق إلهامنا، ما يسدد خطانا ؛ ويقودنا إلى طرق النجاح إن رسول الله يقول وهو أصدق قائل :

«استفت قلبك. وأن أفتوك، وأفتوك، وأفتوك» أى أطع وجدانك وضميرك اليقظ، فهذا أعون على تسديد خطاك، من كلمات من لا يحس بما تحس به ..

* * *

وربما كان من أفضل الخلق، فى حسن المعاملة، أن يرزق الإنسان، لسانا شاكراً وقلبا ذاكرا .. وعندما نقول كلمة «الحمد لله» ونرددها عن إيمان ويقين، فان جزءا من عرفاننا وعبادتنا لله تعالى نؤديه بهذا الشكر.

وقد لفت القرآن الكريم الناس إلى الشكر وفضله عليهم فى آيات كثيرة جدا منها فى سورة لقمان : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله، ومن يشكر فانما يشكر لنفسه، ومن كفر فان الله غنى حميد » وفى سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا لله ».

بل لقد جعل الشكر فى مرتبة الإيمان كما فى سورة الإنسان : (إنا هدينـــاه السبيل : إما شاكرا ، وإما كفورا) . وفى سورة آل عمران: (ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين).

وكلنا يحفظ الآية التى تدل على نتائج الشكر من سورة النساء : (ولئن شكرتم لازيدنكم) .

ولقد اختار الله من اسمائه الحسنى وصفاته العلية ، الشكر . . فهو جل جلاله يقول فى سورة البقرة (ومن تطوع خيرا ، فان الله شاكر عليم) . . وفى سورة النساء : (وكان الله شاكرا عليما) .. وفى سورة فاطر : (إن ربنا لغفور شكور) وفى سورة الشورى : (ومن يقترف حسنة ، نزد له فيها حسنة ؛ إن الله غفور شكور) .

وبعض النفوس ترى الشكر للناس ثقيلا عليها ، إستعلاء وكبرياء .. بل لعلها تراه ثقيلا عليها أن يتجه لذات الله،ونجد فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى هذا المعنى .. ففى سورة سبأ: (قليل من عبادى الشكور ..)وفى سورة غافر : (إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ويتردد هذا المعنى فى سورة البقرة ويونس والملك والسجدة والمؤمنين وغيرها . .

وإذا تأملنا طباع الشعوب هذه الأيام ، فاننا نرى بعضها يعد الشكر لازمة متصلة بكل معاملة ، يشكر فى الأخذ ، ويشكر فى العطاء ، يشكر للخدمة يؤديها والخدمة تؤدى له . فقد أصبح هذا طبعا لا تطبعا، مثلما يحدث بين أفرادالشعب الألمانى ، أو الانجليزى ، فى حين نرى من آيات القرآن الكريم ، وسيرةالرسول ما يجعل الشكر فضيلة الفضائل ، وهو وسيلتنا الأولى إلى حسن المعاملة . ولكن أين فينا الشاكر الذكور !!؟

بعث الجاحظ ــ أبو عمر عثمان بن بحر ــ برسالة سماها رسالة الشكر ، لأحد وزراء المتوكل[1] تناول فى هذه الرسالة (ثقل) الشكر على النفوس ، وأنه لا يؤدى بنشاط نفسى ، إلا إذا علم الإنسان بموقع النعمة ، أو فضل من أدى

---

(١) صبح الاعشى ــ ج ١٤ ــ ص ١٧٣ وما بعدها

لك العمل . كما ينبغي أن تتوفر للشاكر (الحسرية) الباعثة على حب المكافأة، وإستحسان المجازاة ، لأن الشكر من أكبر أبواب الأمانة . وأبعده عن أسباب الخيانة . وخصلة ثالثة تحبب الشكر إلى النفس،وهي(الصبر) ، فالصبر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، لما يجرى الهدى مع جميع الأفعال المذمومة ، وخصلة رابعة رآها الجاحظ لازمة للشكروهي(التعبير) عن الشكر باللسان المبين ، والبيان النير . واللفظ العذب الشهى ، والمعنى الشريف البهى .

وضرب الجاحظ مثلا ، بعمر بن الخطاب ، الذى حكم المسلمين عشر سنوات ما تخلف منها سنة عن التوجه الى الحج ، وأداء مشاعره شكرا لله تعالى على ما أعانه ووفقه ، على الرغم من أعبائه العظيمة ، وتوفيقه المتلاحق ، حتى كانت الدنيا تنصب عليه صبا وتتدفق عليه تدفقا .. «وكان ثباته - فيما قال الجاحظ - عشر حجج على هذه الحال أعجوبة . وبأقل من هذا (النجاح) يظهر العجب ، ويستعمل الكبر . ويظهر الجفاء ، ويقل التواضع» .

وعمر بن الخطاب هو الذى قال : لو أن الصبر والشكر ، بعيران ما باليت أيهما ركبت

ويوجز الجاحظ فى رسالته شعار العمل .. وحسن المعاملة بقوله : النعمة محفوظة بالشكر . والأخلاق مقومة بالأدب. والكفاءة محفوفة بالحذق. والحذق مردود الى التوكل . والصنع من وراء الجميع إنشاء الله .

٣ - العدل والرحمة

العدل هو الانصاف وعدم الجور .

وأظهر ما تكون ممارسة العدل فى القضاء بين الناس . يقول الله تعالى فى سورة الانعام (١٥٢) : (وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به ، لعلكم تذكرون) .

وقد يحمل العدل معنى الفدية ، والبدل . فى الآية (ولا يؤخذ منها عدل) أى فداء .. كما فى الآية : (وأن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) بمعنى أن تفدى كل فدية لا يؤخذ منها ، حتى لو كان (ملء الأرض ذهبا) كما فى سورة آل عمران.

والعدل مرادف للحق ، مثلما ورد فى آية الدين وإثباته كتابة من قوله : (وليكتب بينكم كاتب بالعدل ..) إلى قوله (.. فليملل وليه بالعدل) فالعدل هنا هو ألا يدع الكاتب حقا لا يثبته ، ولا يزيد فيه باطلا .

ومن مترادفات العدل ، القسط مثلما فى قوله تعالى : (ذلكم أقسط عند الله) ، أى أعدل .

وفى تفسير كلمة يعدلون التى وردت فى سورة الأعراف ضمن الآية (ومن قوم موسى أمة ، يهدون بالحق،وبه يعدلون) أى بالحق يعطون ويأخذون، وينصفون من أنفسهم فلا يجورون .

وأمر الله تعالى بالعدل فى سورة النحل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى) . يقول الزمخشرى: إن العدل هنا هو الواجب ، لان الله تعالى عدل فيه على عباده ، فجعل ما فرضه عليهم واقعا تحت طاقتهم .

* * *

استعرض الإمام محمد شلتوت (١) مكانة العدل فى القرآن ، ومن رأيه أنه كان فى أول ما قرره الاسلام حفظا لكيان المجتمع البشرى ، مبدأ العدل بين الناس ، عنى به القرآن الكريم فى مكيه ومدنيه ، وحذر مقابله ، وهو الظلم فى مكيه ومدنيه . أمر به عاما وخاصا : أمر به عاما حتى مع الأعداء الذين يحملون لنا ، ونحمل لهم ، من الشنآن والبغض ما تنوء بحمله القلوب (ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى) المائدة

ومن هنا ، جعل الله العدل واسطة حبات العقد ، الذى كون به لرسوله منهج الدعوة الاصلاحية ، التى حمله إياه . إنقاذا للبشرية من ظلمات الجهل والبغى والعدوان (فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا ، وإليه المصير) الشورى

أمر القرآن الكريم بالعدل هكذا أمرا عاما ، دون تخصيص بنوع دون نوع ولا بطائفة دون طائفة ، لان العدل نظام الله وشرعه . والناس عباده وخلقه ، يستوون — أبيضهم وأسودهم ، ذكرهم وأنثاهم ، مسلمهم وغير مسلمهم أمام عدله وحكمه (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات ، من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا) النساء

وضع الله العدل هكذا ، وجعل إقراره بين الناس ، هو الهدف من بعث الرسل ، وانزال الشرائع والاحكام (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) الحديد

ومن رأى الاستاذ شلتوت ، أن ذكر الحديد هنا ، إيحاء قوى واضح ، إلى أن إقرار العدل فيما بين الناس ، واجب إلهى محتم ، للقائمين به أن يستعينوا عليه باستعمال القوة التى سخر لها ولآلائها الحديد ، ذا البأس الشديد .

---

(١) الاسلام عقيدة وشريعة للمرحوم الاستاذ محمد شلتوت شيخ الجامع الازهر سابقا ص ٤٥٧ طبعة دار القلم

ويرى الشيخ — أيضا — جواز استعمال القوة ضد الذين يستمرئون البغى والعدوان على أرباب الحقوق… فهذا عدل

وكذلك أمر الله بالعدل فى تكوين الأسرة ، وفى كتابة الوثائق، وفى القضاء

***

وفى تقديرنا أن للعدل مركزا فى أعماق النفس البشرية ، إذا ما بلغ مداه ، كان الإنسان أمينا مع نفسه ، وسار بها على شريعة العدل . .

فالعدل مع النفس ، هو أول وأهم مراتب العدل ، لأنه يوجد الانسان الأمين ، والانسان الصادق ، والانسان الكفء ، والانسان السمح ، والانسان الكريم . .

كان سيدنا محمد يوصف قبل البعثة بأنه الامين . وما اكتسب هذا اللقب العظيم إلا أنه ارتفع بنفسه عن كل ما يعيبها ويشينها . وعلى الرغم من شبابه ، فقد رضيت السيدة خديجة أن يقوم على تجارتها ، لما عرف عنه من جده، وصدقه وأمانته . وعندما كانت قريش تعيد بناء الكعبة ، بعد أن وهنت جدرانها ، اتفقوا على ألا يدخل فى الانفاق على بناء الكعبة مال لم يكن مصدره حلالا تماما أى أن صاحبه لم يحصل عليه من ربا أو ظلم أو غصب . أو قطع فيه رحم ، أو إنتهكت من أجله ذمة . ولما ارتفع البناء الجديد الى قامة الرجل ، إختلفوا أى القبائل يتولى كبيرها وضع الحجر الأسود فى مكانه ، واشتد الجدل بينهم جميعا حتى توقف البناء ثلاثة أيام .. يقول رواة السيرة : واستلت السيوف من قربها ولمعت صحاف الحرب ، وكادوا يحكمون الحرب بينهم، ومن تكون له الغلبة ينال شرف وضع الحجر فى مكانه ، "فاقترح عليهم حصيف أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم من باب السلام ؛ وهو أحد الأبواب التى حول الكعبة ، فتراضى الجميع على ذلك . وإذا بأول داخل محمد بن عبد الله .

ولم تكن الصدفة وحدها هى التى جعلت القبائل المختلفة تطمئن الى الحكم، ولكنهم قالوا فى محمد ما كان معروفا عنه .. قالوا : هذا محمد ، وهو الامين الذى لم نعرف عنه ريبة .. رضينا بحكمه

وحدث ما هو معروف لنا من أمر هذا التحكيم إذ أتى عليه السلام ببردة وطرحها أرضا . ووضع الحجر فى وسطها ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، وحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناول عليه السلام الحجر ، فأرساه فى مكانه وبهذا التحكيم انحسم الخلاف . وساد السلام .

العدل مع النفس ، هو أن يحس المرء بعد كل عمل يؤديه براحة الضمير. قال الامام على فى عدل الانسان مع نفسه احدى كلماته الباقية :«علامة الايمان ، ان تؤثر الصدق حيث يضرك ،على الكذب حيث ينفعك . والا يكون فى حديثك فضل على علمك وأن تتقى الله فى حديث غيرك . »

والعدل مع الغير ، هو ثانى مراتب هذه الصفة ، وبه يتحقق سلام الجماعة ، وأمنها ، ويتطرد نموها وتقدمها ..

إن العدل ليس صفة القاضى وحده ، ولا هو فقط الشعار المأثور (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

أننا إذا نفذنا قواعد الدين مع الوالدين ، وجعلنا (الاحسان) طابع علاقاتنا معهما ، نكون قد طبقنا شريعة العدل .

وإذا نحن نفذنا قواعد الدين مع الابناء ، من القيام على تربيتهم وتعليمهم ، فقد نفذنا قواعد العدل معهم ، وتذكرنا قول رسول الله عليه السلام : لا يلقى الله احد بذنب أعظم من جهالة أهله) .

وإذا وصل إحسانك إلى الجار بعد الأهل ، فانت تطبق شريعة العدل امتثالا لقوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى) النساء .

وإذا تمكنت العدالة من نفسك وامتد منك إلى كل من له تعامل معك ، فأنت الانسان المسلم المؤمن الذى فهم كلمات ربه ، وتأسى بسنة نبيه ، ونأى بنفسه عن أن يكون ظالما لنفسه ، أو ظالما لغيره .. ولو أدرك صاحب القدرة مافى

كلمات المظلوم من مرارة وألم ، لنأى بنفسه أن تلفحه ، هذه الكلمات فى دنياه مرة ، وفى آخرته مرات ومرات .

إن العدل ، هو الميزان الذى يقيم هذا الكون ، و يمسك بأطرافه ..وما نظام الكون كله إلا توازن فى الحركة ، وإلا مادت الافلاك وانفرط عقدها ، واصطدمت فى مساراتها ، وانتهت منها الحياة .. بل انتهى وجودها . هذه السمة : التوازن هى سر الوجود كله .. وما التوازن إلا عدل بين الأحياء والأشياء .

ماذا يوضع أمام الانسان ، فى ميزان التعريف والتقييم .. انه عدله ، وهذا العدل هو الذى تطلق عليه كلمة التقوى فى مواطن كثيرة .

أن أكرمكم عند الله اتقاكم . وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى .. ، الجميع سواء أمام هذا الحساب الربانى ، وإنما يرحم الناس ويتفاضلون ، لأنهم اتقوا الله ، أى عدلوا مع أنفسهم ومع غيرهم ..

ماذا نفهم من حديث رسول الله . (تعرف إلى الله فى الرخاء ، يعرفك فى الشدة)

هل يريد الله شيئاً من رخائنا ؟ انما يريد سبحانه أن نتذكره فى خلقه ، وفى الذين لم ينالوا من النعمة ما نلنـــاه . ونعم الله ، التى تحيطنا بالرخاء ؛ وتمدنا بأسبابه كثيرة .

إن الصحة نعمة من نعم الرخاء

إن القدرة على العمل بغير كلل نعمة من نعم الرخاء .

إن الكسب الوفير نعمة من نعم الرخاء

إن العلم المكين نعمة من نعم الرخاء

فإذا أتاح الله لنا ، هذه النعم كلها . فكيف لا نفكر فى أن يكون كل الناس مثلنا ، لتعم السعادة ـــ سعادة الرخاء ـــ وينتفى الحسد والمرض والعجز والفقر والجهل

أن بعض الناس ، ينسى الله فى هذا كله ، بل قد يسعى إلى حجب نعمة الله عن بقية الخلق ، بان يحتجز المال حتى ينتفع به أكبر عدد من الناس ، أو يضن بعلمه إن كان طبيبا أو صانعا ماهرا .. مطبقا قاعده الأثرة دون الإيثار ..

إن مثل هؤلاء ، لا يدوم لهم رخاء ، وهم بينهم وبين أنفسهم يعيشون فى شدة من الخوف على ما يستأثرون به من فضل الله عليهم دون أن يكون الناس فى حسابهم وقد يمهلهم الله ، ولكن لا يهملهم .

وما أعظم عبر الأيام ..

فقاعدة العدل التى جعلها الاسلام شعاره من اليوم الأول ، تلوح أمام البشرية اليوم ، وكأنها حبل النجاة من حروب الطبقات ، ومن حمامات الدم التى مارسها فعلا ، الذين لا يجدون ، ضد الذين يجدون ويمنعون ما يجدونه عن الخلق

ان عشرات الثورات قامت فى الشرق والغرب ، ضد استبداد الطبقة المستغلة فى شتى الصور ، مثل ثورة الانجليز ، وثورة الفرنسيين ، وثورة الأمريكان وثورة المكسيك ، وثورة البولنديين ، وثورة المصريين ، وثورة الارلنديين وثورة الاتراك . وثورة الروس وثورات افريقيا وآسيا التى تلاحقت فى القرن العشرين

كم من الأرواح أزهقت فى هذه الانتفاضات التى تعبر عن رأى المظلومين ، والذين يتلمسون طريقهم إلى العدل ، ولو أن روح الجشع انتبذت ، ولو أن اعتماد الجماعات البشرية على جدها ومثابرتها كان هو أساس تقدمها ورخائها ، لما حدثت كل هذه التضحيات ولكانت كلمة السلام مرادفة لكلمة العدل

والمثل أمامنا واضحة فبلاد مثل سويسرا ، أو السويد ، أو الدانمرك ، أو النرويج ، أو لبنان عاشت وتعيش بكد أهلها ، فى رخاء سابغ ، دون أن تكون لها مستعمرات ، أو وسائل غير عادية من نهب ثروات غيرها لتعيش عليها . ولا يمكن للانجليزى أو الفرنسى أو الروسى أو الأمريكى أن يقولوا إنهم يتمتعون بمستوى أرقى من هذه الشعوب التى ذكرنا مثالا لها .

فريق عدل مع نفسه ومع غيره ، فعاش فى رقى ومحبة. وفريق بغى واعتدى فعاش والكراهية والشكوك تحيط به فى كل وقت وكل آن .

وأننا نجد البشرية تجاهد ، للعثور على قبس يهديها فى ظلام المطامع، فتنشىء عصبة الامم ، ثم هيئة الامم المتحدة ، وتشتق منها منظمات ، واحدة منها هى محكمة العدل الدولية . . ولكن كل هذه عمليات لا فاعلية لها ازاء منطق الضغط والتهديد ، حتى لنرى على مشهد من هذه المجتمعات ، بلدا مثل فلسطين ، يمثل بأهله هذا التمثيل الفظيع ، ويعيش السنوات فى الخيام لحساب شراذم الصهيونية. أو بلد هائل مثل الصين ، يعيش فى أرضه ثلث سكان العالم ، لا يجد حتى الآن طريقه الى هذه المجامع الدولية !! أو هذه المأساة الدامية الرهيبة . . هذه المذبحة التى تحدث فى فيتنام ، وتستعمل فيها آلات التدمير من آخر طراز ، لتجرب فى أجساد البشرية ، وما يملكون !! أومذابح الانجليز فى الجنوب العربى أوالبيض فى روديسيا وانجولا وجنوب افريقية

***

إن روح العدالة فى صفائها ونقائها ، وقد نسج الإسلام مادتها الاصيلة من حاجات البشرية ، وما يصلح أمرها . ، هذه الروح هى التى يجب أن تتصف بها مجتمعاتنا ، لكى تشع منها على مجتمعات أخرى ، تسودها الآن شريعة الغاب. شريعة الظفر والناب

أجل .. العدل روح .. وسلوك .

وما أكثر ما يفعل سلوك العدل فى نفوس الاعداء والاصدقاء على السواء . من ذلك ما روى أن على بن أبى طالب ، شاهد فى خلافته ، درعا له مع نصرانى فطالبه بها ، فأبى .. وإذا على يختصم سالب الدرع إلى القاضى، يجلس مع خصمه على قدم المساواة . فلما طالب القاضى عليا بالبينة على دعواه ، قال على : مالى من بينة . فحكم القاضى بملكية النصرانى لهذا الدرع . وانطلق الرجل بغنيمته والدهشة تعقد لسانه ، وأخذ يحدث نفسه بما وقع : فهذا أمير المؤمنين يدينه إلى القاضى ، فيحكم القاضى ضد امير المؤمنين . . ولم يملك الرجل أن عاد يعترف بالحق فى شأن الدرع ، وبالحق فى شأن هذا الدين ، الذى يرتفع بالعدل إلى هذا المستوى الكريم العزيز ، ويصبح من بعد هذه التجربة أصدق الناس إسلاما وابسل الجنود فى الدفاع عنه .

الرحمـــة

وإذا كانت معالم العدالة هى مراعاة الحق ، وأداء أمانة القانون ، ورعاية الواجب فى كل عمل .. فان للعدالة مرارتها وشدتها على النفس فى أحيان كثيرة . ولهذا وضعت الرحمة كالبلسم الشافى يحف بالعدالة، وتجعل النسائم المنعشة تهب، فتخفف من لهيب الحق إن كان له لهيب ، وتنشر على الوجود ابتسامة الرضى والقبول ، وتملأ القلوب بالمسرة والإطمئنان.. وكل ذلك بشرط ألا تضار الجماعة ولا يجار على حد من حدودها .

وإن أكثر الكلمات ترددها ألسنتنا ، نحن المسلمين ، اسم الله تعالى ،مقترنا بصفتين هما : الرحمن ، الرحيم .. وحسب البعض ، أن الكلمتين مترادفتان، وما هما كذلك ، فان كلمة الرحمن،تحمل معنى فيض الرحمة الذى لا ينتهى . . والرحيم تحمل معنى الإلتزام والتصميم . بمعنى أن الله تعالى وصف نفسه بأن رحمته تسع كل شيء ، لا أول لها ولا آخر . وأنه وعد الخلق بأن تظل الرحمة صفـــة ثابتة مؤكدة من صفاته تعالى .

وللامام محمد عبده تفصيل واف لهذا المعنى،إذ يقول فى تفسير فاتحةالكتاب

الرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة . وهى معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الإحسان إلى غيره . وهو محال على الله تعالى ، بالمعنى المعروف عند البشر . لأنه فى البشر ألم فى النفس شفاؤه الإحسان . والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات . فالمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة ، أثرها ، وهو الإحسان. وقد مشى (الجلال) فى تفسيره ، وتبعه (الصبان) على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد . وأن الثانى تأكيد الأول . ومن العجب أن يصدر مثل هـذا القول عن عالم مسلم . وما هو إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها .

يقول الشيخ الجليل محمد عبده : وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه ، أن فى القرآن كلمة تغاير أخرى ، ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها ، بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون فى معنى الكلمة ، ما يزيد

معنى الأخرى ، تقريراً أو إيضاحا. ولكن الذى لا أجيزه أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير ، بحيث تكون مما يسمى بالمترادفات فى عرف أهل اللغة ... والذى أقول : إن صيغة فعلان — مثل رحمن — فتدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة ، كفعال. وهو استعمال فى اللغة للصفات العارضة ، كعطشان وغضبان ، وأما صيغة فعيل — كرحيم — فإنها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة ، كالاخلاق والسجايا فى الناس ، كعليم وحكيم .. فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهى إفاضة النعم والاحسان ؛ ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة .

هذا ما قاله الاستاذ الإمام فى تفسير كلمتى الرحمة فى البسملة ؛ وإنا لنجد الله وصف نفسه فى آيات أخرى كثيرة ، بانه الرحمن ، كما وصف نفسه بأنه الرحيم وأن تزداد هذه الصفة العظيمة ليرد مئات المرات فى القرآن الكريم ، وإن كانت كلمة الرحمن ترد غالبا فى الدلالة على اسم الذات العلية : « الرحمن .. علم القرآن » «الرحمن على العرش استوى» .. «وخشعت الأصوات للرحمن»

أما (الرحيم) فانا نراها فى مقام الصفة مضافة لأخرى مثل قوله : التواب الرحيم . والغفور الرحيم . والرؤوف الرحيم . والعزيز الرحيم . ونراها كثيرا ما اقترنت بصفة إلهية أخرى دالة أيضا على الرحمة . ويعبر عن معناها جميعا تعبيرا دقيقا رائعا ، قوله تعالى : «فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة» (الانعام ٧)

وفى كتاب الدعاء فى القرآن [1] !!.. وللاتيان بهذين الاسمين الكريمين بعد ذكر ربوبية الله تعالى مغزى عظيم. ذلك بأن الله بين بهما أن ربوبيته وملكه للعالم ليس مصدرهما جبروته وقهره ، ولكن مصدرهما عموم رحمته وشمول إحسانه لجميع خلقه . فانهم بالرحمة يوجدون ، وبالرحمة يتصرفون ، وبالرحمة يرزقون ، وعلى الرحمة يعتمدون ، وبالرحمة يوم القيامة يبعثون ويسألون

(١) الاستاذ محمود بن الشريف — سلسلة اقرأ — ص ٢٢

ورحمة الله للناس تأخذ صوراً شتى ...

فالاستماع إلى القرآن ، والإنصات له ، تؤدى إلى رحمة الله : «وإذا قـــرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون» (الأعراف).

وطاعة الرسول مع اداء العبادات ، سبيل إلى رحمة الله : «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول ، لعلكم ترحمون» (النور)

والقرآن نفسه رحمة : «ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون» (الأعراف) ..

«وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» (الاسراء)

والتوراة رحمة : «ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة» (هود)

وبعث عيسى عليه السلام رحمة : «ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضيا» (مريم).

وبعث محمد عليه السلام رحمة : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (الأنبياء).

وإحياء الأرض الميتة وتعميرها رحمة: «فانظر إلى آثار رحمة الله ،كيف يحيي الأرض بعد موتها» (الروم)

والريح التي تهب تسوق أمامها الغيوم ، وتسقط المطر ، وتدفع السفن ، وتلقح النبات ، وتلطف الجو .. هي أيضا رحمة: «وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته» (الاعراف)

***

وكما أن الرحمة صفة جليلة من صفات المولى ، تعالت آياته. فكذلك هي أرق الخلق ، وأعظم مايجعل للانسان إنسانية .

يقول الله تعالى : «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة» . وهذه الرحمة تمتد دائما الى الآخرين . وتبدأ بالأهل مصداقا لحديث رسول الله عليه السلام :

(أكمل المؤمنين إيمانا ، أحسنهم خلقا ، وألطفهم بأهـله) :

وقد حض القرآن الكريم على التراحم بين الأهل فى آيات كثيرة . . أوصى الأبناء والبنات بالأبوين فى قوله تعالى : (وقل ربى ارحمهما كما ربيانى صغيرا). وقال (وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة).

وقال عن التراحم بين الزوجين : (ومن آياته أن خلـق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة)

وقال عن التراحم بين الأخوة : (فأصلحوا بين أخويكم ، وأتقوا الله لعلكم ترحمون) .

والرحمة بين أفراد الاسرة الإنسانية هى قوام السلوك ، وعصمة واقية من نوازع البغى والعدوان ، والتكبر والتجبر . . وصف القرآن هؤلاء العظماء بين البشر ، الذين أشبعت قلوبهم بالرحمة ، فى قوله : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما).

ولقد حضنا الله تعالى على هذه الصفات التى يكمل بعضها بعضا.. قال فى سورة التغابن (وإن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم)

والرحمة فى قلب المؤمن ، ليست ضعفا ولا خورا ، ولكنها تتسامى الى القوة التى تجعل العفو محببا ، والغفران أدنى إلى النفس من العقوبة ، إلا أن يكون ذلك على حساب مصلحة الجماعة وأمنها .

قال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ،ويعرف شرف كبيرنا)

وإذا كان الحكام مطالبين بالعدل مع الرعية فان هذا العدل يجب أن يكون متسما بالرحمة ، ولا ينبغى أن تمتد العقوبة ان وقعت إلى من لا ذنب له من الأهل ،فقد أمر الله تعالى بألا تزر وازره وزر أخرى .

وإذا كانت طبيعة العدل تنأى بنا عن الجور على الحقوق ، فان طبيعة الرحمة تحصننا تحصينا ضد إيذاء الناس فى أمنهم ومالهم وأرواحهم .

قال رسول الله : (والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن) قيل من يارسول الله .. قال : (الذى لا يأمن جاره بوائقه).

وإذا نحن تأملنا سورة الفاتحة ، فانا نجدها إذ تتحدث عن رحمة الله تفيض على الكون كله ، ووعد من الله أن يرحم الناس .. فان هذه الرحمة تجاور وصفه تعالى لنفسه بأنه (مالك يوم الدين) أى أنه عندما يذكر عباده بيوم الحساب الذى ينصب فيه الميزان ، وتوفى كل نفس ما كسبت ، تتقدم مع راية العدل المرفوعة ، رايه أخرى تحف بعرش رب العالمين ، وهى راية الرحمة .

وسعت رحمة الله كل شيء ، إلا الشرك به ، لأنه كفر بربوبيته تعالى: فكيف يطلب الغفران ، من يشك فى صاحب المغفرة ، ولا يعترف به إلها للعالمين ؟ !! يقول الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قالها مرتين فى سورة النساء .

ولقد أبعد الله من رحمته وغفرانه المنافقين الذين يعطلون شعائر الله ويسخرون من الذين يؤدون صدقاتهم وزكاتهم، وينسبون لهم أنهم يراؤون، أو يتظاهرون

ومن ذلك ما حدث مرة أن مسلما من العمال أسمه حبحاب أبو عقيل ، ظل طول الليل يؤدى عملا ، نال عليه أجراً هو صاعان من التمر ؛ وأقبل على رسول الله ، وهو يتلقى الصدقات ، فقدم نصف أجره ، فقبله منه، إذ أن الاسلام تمكن من نفس هذا المسلم . وفى نفس الوقت أقبل عبدالرحمن بن عوف بنصف ثروته وكان النصف مائة أوقية من الذهب. وأخذ المنافقون يطلقون ألسنتهم المسمومة ، لم يرضهم ما تقدم به الفقير ، لأن الله ورسوله أغنياء عن صاع التمر الذى تقدم به ولم يرضهم ما تقدم به الغنى ، لأنه أراد بما صنع السمعة .. هكذا زعموا .

ووالله للمشاركة بالمال قل أو كثر فى العمل العام ، إنما تقاس بمدى حاجة الفرد اليه .. وقد تزيد القيمة المعنوية للدينار فى هذا المجال عن الألوف المؤلفة

وقد اشتد الله سبحانه ، على هؤلاء المنافقين ، ونزلت فيهم الآيات : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ؛ فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم » . ووجه الله تعالى كلامه

بعد هذا لرسول الله قائلا : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لايهدى القوم الفاسقين » .

وهكذا وضع النفاق فى مرتبة قريبة من مرتبة الشرك بالله . اعتزازاً من الإسلام بالصراحة والمواجهة والاستقامة فى القول والعمل ، وكرها منه لأصحاب الوجهين ، وأصحاب اللسانين .

ومع ذلك فان الله احتفظ لنفسه — وحده — بحق الثواب والعقاب فيما يختص بأمور الدين ، وقد وسعت رحمته كل شىء . . قال تعالى فى سورة الأمر : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، أن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » ولكن الله تعالى مهد الطريق لرحمته بجهد يبذله الإنسان ، إذ قال تعالى بعد الآية السابقة مباشرة : « وأنيبوا إلى ربكم ، وأسلموا له ، من قبل أن يأتيكم العذاب ، ثم لاتنصرون » . . حتى هؤلاء المنافقون الذين رأينا كيف طردوا من رحمة الله ، يمكن أن يفتح أمامهم باب الرحمة ، إذا عرفوا الطريق إليه . . فإنه تعالى يقول فى سورة الأحزاب : « ويعذب المنافقين ان شاء ، أو يتوب عليهم ، ان الله كان غفورا رحيما » . أما الطريق فهو واضح سليم رسمته سورة طه فى قوله تعالى : « وإنى لغفار لمن تاب ، وآمن ، وعمل صالحا ، ثم اهتدى » .

***

وكل نفس مهما بلغ تصورها لقوتها ، وطاقتها ، فى حاجة إلى كلمة رحيمة ، ولمسة رفيقة ، تسكن من قلقتها ، وتهدىء من روعها . .

وقد رأينا فى — باب العلم — كيف التمس أتباع الأديان قبل الإسلام . . الأديان السماوية وغيرها ، صورة للرحمة فى شخصية امرأة . . كانت ازيس عند قدماء المصريين ، وديانا عند الإغريق ، ومريم البتول عند المسيحيين . لما فى الأمومـــة من عاطفة الحنو والعطف والصبر والغفران ، وربما حاول الشيعة الفاطميون ، عندما قامت دولتهم فى المغرب ثم فى مصر ، ان يجدوا فى فاطمة الزهراء بنت رسول الله هذا المعنى ، وقد تسربت هذه الحالة الإسلامية منها إلى

المسيحيين تحمل كثيرات من الراهبات اسمها وان نطقوه « فاتيمة » أو « القديسة فاتيما » ، وعملوا التماثيل تحمل هذا الإسم الإسلامى ، وطافوا به ، وبمعجزات تروى عنه !

ولكن الإسلام لم يحتج إلى تأنيث خلق الرحمة ، لأن الله تعالى ، فى مفهوم الإسلام ، هو الرحمان الرحيم ، الغفور ، الرؤوف ، الودود ، التواب ، السلام ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، الباسط ، اللطيف ، الحليم ، الكريم ، العفو ، الواسع ، المجيب .. كل هذه صفات الله تعالى ، وصف نفسه بها .. فكان بحق وصدق إله الرحمة.

وهؤلاء الذين يقيمون من أنفسهم قضاة للضمائر ، يحكمون بالكفر وبالتأثيم على غيرهم ، لأن لهم عمـــلا أو قولا بادى الخطأ ، أو لا يرضى تفسيره ما يعتقدون . . . هؤلاء يسرفون على أنفسهم ، ويجنحون بالدعوة الإسلامية إلى مزالق من الغلو والتعصب ، هى بريئة منه .

ولقد رزئت الجماعة الإنسانية من قديم بهؤلاء المتطرفين من قديم الأزل . وما حدث بين ولدى آدم ، هابيل وقابيل ، من عدوان أحدهما على حياة أخيه ، إلا السابقة الخطرة عندما لم يكن فى الدنيا غير أربعة أفراد ، وقد جاءت الأديان بعد ذلك لكى تصحح هذا الإنحراف .

وسوف نعالج فى الفصل القادم هذا الأمر ، بالتفصيل ــ عسى الله أن يرحم الجميع ، ويهديهم سواء السبيل .

٤ الوسط

ظهر الاسلام فى الحجاز ، ولم يكن الحجاز إلا مكان ميلاد له : وذلك لما سبق فى علم الله ، وفى تكوين الدعوة نفسها ، من أنها للناس كافة ، وليست مثل غيرها من الدعوات السماوية التى سبقتها ،موجهة لشعب بعينه ، مثل اليهودية ، ومحاولات اصلاح بنى اسرائيل التى قام بها انبياؤها وكان آخرهم سيدنا عيسى عليه السلام..

ولهذا نجد الاسلام ــ كدين ــ عرض للانسان عندما سكن كوكب الارض وأشار إلى خط سيره فى هذه الحياة الدنيا ، منذ اختبر الله تعالى وجوده وعلمه وسلوكه أمام الملائكة ، حتى الوقت الذى قالت فيه السماء كلمتها الأخيرة ، تضمها آيات القرآن الكريم . وأحاديث الرسول الكريم الذى بلغ هذه الآيات وسننه التى شرحت وفصلت وطبقت ما جاء فى التنزيل ..

ورسالة هذا شأنها ، من الشمول ، والبقاء ، لابد وأن يكون فيها من عناصر الخلود ما يجعل البشرية فى مقبل أطوارها متعلقة بها مستضيئة فى سيرها بهديها

ومن أهم عناصر الخلود ، الملاءمة بين طبائع الناس ، ونزعاتهم ، وسنة التطور المحتومة ، فالصغير يكبر ، والجاهل يتعلم ، والنمو عنصر محتوم على الأحياء بمقدار ما حصلوا ويحصلون عليه من تجارب . . والأمد الذى قطعه الانسان منذ اكتشف النار ، وكيف يحصل عليها بجهده ، ويحولها إلى طاقة ..إلى الوقت الذى استطاع أن يصل إلى الطاقة من تفجير الذرة ..هذا الأمد قد يكون طويلا فى حساب المؤرخ الذى يسجل ، ولكنه ليس بشىء يذكر. إذا لم تكن دورة الأرض والشمس والقمر وحدها هى مقاييس الزمن .. فثمة أفلاك أكبر ، وسدم أعظم ، مما تدركه حواسنا ، ونعيش فيه .. ولهذا كان يوم عند ربك ، بألف مما نعده نحن من أيام مجموعتنا الشمسية ..

فإذا أريد لرسالة أن تلائم بين هذا التطور الهائل ، الذى يعيشه الانسان فى فى الأرض ، وما يتوقعه من اكتشاف لطاقات ،وابعاد جديدة فى المعرفة الانسانية ،

فان هذه الرسالة يجب أن تكون صالحة لكل زمان ومكان ...

كيف تكون الرساله صالحة ؟ انما يتأتى ذلك بأن تكون رحبة واسعة رحابة الأفق واتساعه .. يسيرة سهلة التناول ، تدركها كل الافهام ، وتطيقها كل الهمم

هذه الرحابة ، هذا اليسر ، هو ما نعبر عنه « بالوسط » . . استغفر الله بل ما عبر عنه القرآن الكريم، وهو يصف أمه المسلمين بقوله فى سورة البقرة (١٤٢)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس » . . وهو ما ورد فى الأثر : خير الأمور الوسط .

ألا ترى أن الفضيلة وسط بين نقيضين هما الافراط والضيق ؟ ..

ألا ترى أن الاسلام اتخذ فى عباداته ومعاملاته موقفا وسطا فى كل ما دعا إليه

فى التبليغ : فانما عليك البلاغ .

فى الدعوة : لا اكراه فى الدين .

فى العبادة : أوغلوا فى الدين برفق .

فى الاسلام : تكفيك الشهادتين واداء الفرائض

فى الصلاة : جعلت خمس فرائض وكانت اضعافا .

فى التلاوة : لا تجهر بالقراءة ولا تخافت .

فى الانفاق : لا اسراف ولا تقتير .

فى العاطفة : لا تميلوا كل الميل .

فى الحرب : لا تجهزوا على جريح

فى العداوة : ادفع بالتى هى أحسن ، تكسب عدوك ،

فى القصاص : كتب عليكم القصاص .. فمن عفا له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه باحسان.

فى الصيام : كتب عليكم الصيام .. ، وعلى الذين يطيقونه فدية .

في القسم : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم

في الزواج : إمساك بمعروف ، أو تسريح باحسان

في الكلمة : قول معروف ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها أذى

في التعفف : الفقراء المتعففون ، لا يسألون الناس إلحافا

في التكليف : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ..

في التحمل : ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به .

وهكذا تمضي قواعد الاسلام كلها ، وتوجيهاته في شؤون العبادة ، والسلوك ، وفي شؤون التعامل كله لتقرر قاعدة « الوسط » .. ولتبعد عن الجماعة الانسانية « التعصب » في أي صورة ، ولاي سبب فان التعصب ، ما هو إلا اعتزاز برأي فرد ، واهدار لحرية الآخرين في التفكير ، وفي التصرف ، ما لم تكن في ممارسة الحرية مضرة مؤكدة بالجماعة . فعندما تقول (أنا) ، احرص دائما على أن تترك مكانا لـ (أنت) و (هو) . وإلا تكون قد جاوزت قاعدة الوسط ، إلى أحد الطرفين . وغالبا ما يكون طريقا مسدودا .

قال الامام الغزالي[1] : المطلوب هو الوسط في الاخلاق دون الطرفين . ، أن السخاء خلق محمود شرعا بين طرفي التبذير والتقتير وقد اثنى الله تعالى عليه ، والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما .. وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » ــ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره ، والجمود . قال الله تعالى . وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . وقال صلى الله عليه وسلم . (خير الامور أوساطها) ... والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضا من عوارض الدنيا . وشرط القلب أن يكون سليما منهما ، أي لا يكون ملتفتا إلى المال ، ولا يكون أيضا حريصا على أنفاقه ولا على إمساكه .

وقال عن الوسط ايضا : إن الفاتر لا حار ، ولا بارد ، وهو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين . فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور ، والعفة بين الشره والجمود . وكذلك سائر الاخلاق ، فكلا طرفي الأمور ذميم . ا.هـ

---

(١) احياء علوم الدين ص ٥٦ جـ ٣

ان دعوة الاسلام كما قلنا ولدت فى الحجاز . . وكانت تجاورها حضارات كبرى ، يعلم عنها أهل الحجاز الكثير .. حضارة عربية فى اليمن والعراق والشام ، وحضارة فارسية فيما وراء الرافدين شرقا ، وحضارة اغريقية ، فيما يلى جبال طوروس ، وعبر القارة الأسيوية إلى بيزنطة . وحضارة مصرية على العدوة الأخرى من البحر الأحمر .. وحضارة هندية تليها حضارة صينية بعد أن تتجاوز بحر الهند . وكان الإسلام يريد أن يطوى هذه المناطق جميعها تحت لواء دعوته ، فى فهم ودراية بما تعيش عليه هذه الأمم من آراء وأفكار ونزعات . وإلى هذا نبه رسول الله فى حياته ، وأوصى الصحابة من حوله ..

وما كان يمكن لهذا الاشعاع الروحى والفكرى ، وهو منطلق من المدينة المنورة ، أن يضع البشرية كلها بين طرفى : « نعم » ، أو « لا » ... وانما ترك لهم مجالا لحرية التفكير والاقتناع ،وأمر دعاته بأن تكون وسيلتهم الكلمة الطيبة : « قولوا للناس حسنا .. »

وكان دعاة الاسلام على أتم ثقة من أن هذه الكلمة الطيبة فى المدى القصير ، أو فى المدى الطويل ، ستعمل عملها ، وستذيب العناد من حولها ، وأن أمة الاسلام سوف يزيد عددها ، وتتسع رقعة الحياة حولها اتساعا عظيما ، وترتفع أعمدة المبادىء الجديدة فى انحائها ، حاملة الضياء والنور .

أعقلها ، وتوكل .. هذه هى مسيرة الاسلام منذ أذاب روح العناد المريرة فى قبيلته الأولى — قريش —

والجماعة التى أوجدها الاسلام ، مكلفة . . ولم تنته مهمتها بأنها أصبحت مسلمة . . مكلفة بأن تواصل السير على نفس الطريق ، وأن تضم إليها اقواما أخرى . . ولكن بنفس الأسلوب الذى سارت عليه الاغلبية الكبرى خلال أربعة عشر قرنا حتى الآن ...

ما هذا الاسلوب ؟ ... هو أن نخلق من أنفسنا أمثلة صالحة حية ، بما تتبعه من سلوك كأفراد ، وان نبعد عن اوساطنا هذا الداء الوبيل ، وهو « التعصب »

وما أكثر ما أضرت انحرافات التعصب بسمعة الاسلام والمسلمين ، بقدر

ما أفادت السماحة فى تيسير اعتناق الناس لهذا الدين القويم :

ولانريد أن نضرب أمثلة بهذه الانحرافات ، أكثر مما جر إليه سلوك الخارجين على امير المؤمنين على بن طالب ، بسبب نظرتهم لموضوع التحكيم بينه وبين معاوية بن أبى سفيان . . لقد انتهى رأيهم إلى قتل على . . وبهذا سفك التعصب دم إمام من أعظمة أعمدة الدعوة الاسلامية ، الذى رباه رسول الله فى بيته ، وزوجه بنته ، وكان أقرب الناس إلى قلبه . كما سفك من قبله دم عثمان بن عفان أحد اربعة أو خمسة آثرهم رسول الله بكل حبه وعطفه ، بنفس السبب وهو التعصب .

وتمضى محنة التعصب ، فى حنايا التاريخ الاسلامى ، وزواياه حتى نجد من يغير على الكعبة المشرفة وينتزع منها الحجر الاسود الذى وضعه سيدنا محمد عليه السلام ، بيده فى مكانه ، ويذهبون به من مكة إلى مساكنهم على اطراف نجد الشرقية ، ويظل الحجر فى غربته أعواما عديدة حتى يأمر أحد خلفاء الفاطميين هؤلاء المغيرين (وهم القرامطة) باعادة الحجر إلى مكانه فيفعلون ...

ان فتنة الخوارج كبدت الاسلام اهراق دماء عشرات الآلاف من المسلمين ، ما كان اعزها واكرمها من دماء ، سواء كانت لهم أو للذين قاتلوهم ، لو أنها ادخرت فى سبيل عمل صالح . .

وتمضى هذه الفتن ، أو الفتنوه ، فى ثوب الحركة الاسلامية لايسلم منها عصر ، حتى أيامنا هذه ، وهى تعتمد اساسا على فهم خاطىء للب الدعوة الاسلامية ، التى جعلت السلام والأمان شعارها وذلك لإنها تختار آية من القرآن ، تقف عندها ، وتعتقد أنها هى وحدها الموجه والمحرك لها . . فى حين أن القرآن يفسر بعضه بعضا . ولو أن هؤلاء مضوا فى القراءة ، كما نصح عمر بن عبد العزيز الذين تناقشوا أمامه فى استنباط معنى من معانى القرآن . . لو ان هؤلاء تابعوا دراسة القرآن ، والتأمل فى معانيه ، وإضافوا إليه الحديث والسنة ، لزالت هذه الغشاوة ، ولتبدد الضباب من على أعينهم .

ان أخطر ما نخشاه ، لو أن هذا الوباء الاسود — وباء التعصب — استمر يسرى فى جسم الأمة الاسلامية ، أن يسلمنا إلى حال من اغلاق العقل تشبه ما عرضناه .

فى تاريخ المسيحية قبل بضعة قرون ، وبذا يكون (الإكراه) هو طريق الاعتقاد .. ويا له من إعتقاد هذا الذى يملأ القلوب خوفا ورعبا ، والذى يحف به الهلاك ، وتلوثه الدماء بلونها المخيف .

إننا نسمع ونقرأ فى هذه الأيام، التى تواجه فيها عقائد السماء تحديات هائلة من الملحدين ، عن جماعة أفرادها قليلون مئات أو ألوف لا يزيدون ؛ يزعمون أن أمة محمد سلكت سبيل الضلال ، وأنها ارتدت الى الجاهلية التى قضت عليها دعوة الإسلام من أربعة عشر قرنا !! وطريق هذه الجماعة فى إصلاح ما حسبته ضلالا . وعمى جاهليا وعقائديا .هو أن تبيد كل المسلمين الذين لا يأخذون برأيها، ثم تستأنف إقامة الحياة الإسلامية بالمئات أو الألوف الباقية حسب ما تراه وتخططه!!

وقد سمعنا فى القرن التاسع عشر — وفى روسيا بالذات — عن مذهب العدميين (النهليست) ، بدأ بدعوة إلى إحلال العلم محل العقائد والأنظمة القائمة . ثم انحرف الى دعوة لإبادة كل العناصر المخالفة !! .

ورأينا من بعدها، الدعوة الشيوعية ، ثم الدعوة النازية، ثم الدعوة الصهيونية تقوم كلها على حمامات الدم، والتضحية بملايين البشر لأنهم يعارضون . وكذلك الحال بالنسبة للرأسمالية الطاغية التى كانت سببا فى معظم الحروب الكبرى فى القرون الثلاثة الأخيرة ، حتى أن أحد أقطابهم (كندى) قتل لانه مال إلى الحد من جشع دعاة الحرب .

ونحن نعتقد أن تسرب هذه النزعات الإرهابية العنيفة . ينافى كل المنافاة لروح الدعوة الاسلامية ؛ وأنها تعوق نموها وتقدمها إلى آفاق جديدة ، ينبغى لها أن تبلغها .

هب أن أفردا أو جماعة من المسلمين ، رأت فى آية من القرآن تفسيرا بعينه ، فكيف تضع نفسها موضع الذى يفرض هذا التفسير ويزهق الأرواح فى سبيل فرضه؟!.

لقد قالها الخوارج من ثلاثة عشر قرنا ، ونصف قرن .. قالوا إن الحكم لله!. وقالها أصحاب دعوة اليوم .. وأنعم بالله حكما وحاكما . ولكن كيف ينفذ الله تعالى إرادته ، وكيف يبلغ الكتاب أجله ؟ إنما يتم ذلك عن طريق الانبياء ، ثم عن طرق معلومة بعد الأنبياء ، أهمها وأولاها بالإعتماد عليه ، هو الإجماع

ولم يظهر متعصبو الاسلام الأول وثيقة تثبت أن الله تعالى أنابهم عنه فى القوامة على أحكامه ، ولا أظهر من تلاهم من الغلاة هذه الوثيقة حتى يومنا هـذا . بل لقد عرفنا منذ سطر موسى الوصايا العشر ، حتى نزل جبريل بالتنزيل الحكيم، أن الله وحده هو الذى يحاسب الناس على طاعتهم له وعصيانهم ، ومن أجل هذا كان الحساب والميزان فى يوم معلوم ، وميقات احتفظ به العلى الاعلى من بين أسرار ألوهيته ، وما أروع وما أعظم التوجيه الإلهى لسيدنا محمد خاتم الرسل الذى قال له باللسان المبين ، والقول الواضح الصريح : (ما أنت عليهم بمسيطر) فاذا لم تمنح حاكمية الله لاقرب خلقه إليه ؛ فكيف تمنح لإناس غيره .

ويسأل الناس فيما يسألون : كيف إذن تنفذ ارادة الله ؟ وكيف يمضى حكمه؟

والرد على ذلك سهل ميسور : الباب المفتوح.. سياسة الوسط .. دفع الناس بعضهم لبعض . من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر .. ألم يسمعوا: من أهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .. (الإسراء — الزمر)

وهب أن دنيا المسلمين امتلأت زيفا وضلالا، فماذا يصنع معهم الذين يعتقدون فى أنفسهم الصلاح .. لا شىء أكثر من الإنذار ، فهذا ما أمر به الله تعالى : (ومن ضل ، فقل إنما أنا من المنذرين) .

ولكننا لا نريد — فى مسائل العقيدة — أن نسلم لأحد بأن له قوة الحكم على الناس . وما يراه أحدنا صوابا ؛ قد يراه غيره بمقياس آخر ، وظروف أخرى . يقول الله فى سورة القلم : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين) .

***

وعلى هذا فاننا نعطى لقاعدة (الوسط) من بين قواعد الإسلام ، كل قيمتها وقدرها ، لانها تدع للرأى الآخر سبيلا ، وتتيح للفكر حرية الحركة ،وتدخل على النفس البشرية الاطمئنان ، وتتيح لها فرصة التأمل ، والتفاعل،والإقتناع .

٥ الجهاد فى سبيل الله

قامت الدعوة الاسلامية على الجهاد .

بل قامت الدعوة فى نفس سيدنا محمد قبل مبعثه على الجهاد ... جهاد النفس أن تتبع المألوف من عادات قومه ، وعباداتهم ، ولهوهم ، مما ينبو عنه الوجدان السليم. وكان اختلافه عليه السلام إلى غار حراء متأملا ، مفكراً ، منقطعاً عن صلاته بكل الناس ، إلى عمق من أعماق المجاهدة النفسية ، هو التحضير الحقيقى لأعباء المهمة الخطيرة التى أعده الله لها .

وإذا كان أساس المجاهدة النفسية ؛ صدها عما تنزع إليه مما لا يليق بالانسان الصادق الأمين الكريم ، فهذه حركة داخلية بين المرء ونفسه . . ولكن هناك مرتبة أخرى من المجاهدة ، تتصل بعلاقه الناس بعضهم ببعض ، وهى كظم الغيظ ، وضبط النفس عند الغضب ، وفى كل نفس بشرية طاقة من الانفعال والتأثر ، تبلغ مداها إذا توفرت لها ظروف معينة . . وكبح هذه الطاقة والسيطرة عليها هو أهم قواعد الرياضة النفسية .

كان رسول يغضب كما يغضب كل الناس ، ولكنه ــ كما روى البخارى ومسلم ــ كان إذا تكلم أحد بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكن لا يقول إلا حقا ، ولا يخرجه غضبه عن الحق .

يقول الامام الغزالى . قال تعالى : والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس ، ولم يقل: والفاقدين الغيظ ، وبهذا يكون قد رد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد العقل ولا يغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما ، والغالب عليهما .

وقد تابع القرآن الكريم قصة رسول الله ، ومن تبعه ، على مجاهدة النفس ، فى آيات كثيرة . . مثل قوله تعالى : «خذ العفو ، وأمر بالمعروف ، وأعرض عن الجاهلين . » وقوله : « واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » وقوله أيضاً : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » ،

وعندما أصيب رسول الله بجراح فى معركة أحد ، و سال دمه على وجهه . أخذ يمسحه ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم » وكانت هذه حالة غضب فى موقف عصيب ، وقد نزل القرآن الكريم موجهاً للرسول الحديث بقوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » وكأن الغضب لا يجوز حتى فى مثل هذا الموقف .

ونجد رسول الله بعد ذلك . رفض أن يدعو على الكفار . عسى الله أن أن يهديهم — فيقفون فى سبيل الله مواقف محمودة ، وهو ما حدث فعلا بعد ذلك . وكان فى وسع سيدنا محمد أن يأخذ مشركى قريش بما اقترفوا من آثام فى حقه ، وحق أصحابه ، ولكنه بذل أقصى جهده ، عند حصاره لمكة . وسلط على أهلها حرباً نفسية ، حتى يستسلموا بغير قتال ، إيثاراً منه للسلم ، وبعدا بدعوته فى ساعة النصر ، أن يكون الانتقام من شيمته . فلما تم له ما أراد ، عفا عنهم فذهبوا طلقاء . وهو عمل نبى شريف ، أدبه رب لطيف ، وبهذا كان فى نظرهم الأخ الكريم وابن الأخ الكريم .

حتى آخر المعاندين من أهل قريش — صفوان بن أمية ، الذى رفض أن يدخل فيما دخل فيه قومه عقب الفتح ، أمر الرسول بأن يترك ، فلعل الزمن يلين عناده ، ولعل الله يشرح صدره لما شرح له صدر قومه جميعاً ، على الرغم من أنه كان أقسى المشركين قلبا ، يشترى أسراهم لكى يقتلهم . . وقد نجحت مصابرة رسول الله لهذا القلب القرشى ، فقد أسلم بعد وقعة حنين ، وبعد أن لامس خلق المسلمين ونبيهم عن قرب فى هذه المعركة ، وكان يحارب فى صفهم عصبية لقومه ، لا إيمانا بالدين الجديد . وهكذا قضى سيدنا محمد ، بهذه المجاهدة النفسية ، على عداوة صفوان عندما حولها إلى صحبة وإيمان .

* * *

هذه صورة أولى من صور الجهاد ؛ ثم تأتى بعد هذا صورة الجهاد لنشر دعوة الحق .

وقد اسلفنا فى كتبنا ، كما سنقدم فى سلسلة هذه الدراسات الدليل بعد الدليل على أن الجهاد المسلح للمسلمين ، إنما كان لدفع ضرر ، وصد عدوان وقع على العقيدة الاسلامية ، وقد كان الرومان والفرس أكبر أعداء هذه الدعوة وكانوا يحتلون رقعة هائلة من أرض العرب ، وكان لابد من تحطيم الجهاز الحربى لــكلا الدولتين ، فى كل من آســيا وإفريقية . وهو ما قامت به الجيوش الاسلامية فعلا . ولم يحدث أن فاتحا من قواد المسلمين عرض على قوم يريد الاشتباك معهم ، السيف أو الاسلام .. إنما عرض الطريق الثالث ، وهو أن يحتفظ الناس بدينهم ، على أن يؤدوا الجزية . وهى ضريبة الدفاع

وإذن فجهاد المسلمين ، فى حياة النبى عليه السلام وبعده ، هو جهــاد دفاع لا هجوم .

ولم يكن الجهاد فى المعركة الحربية فقط ، ولكن كان وسيظل للجهاد بالمــال قيمته العظمى فى تأييد الدعوة وتأمينها ، والجهاد بالمــال ، لا يسلح الجيوش ويوجهها فقط، ولكنه يساعد أيضا على إرسال بعثات عرض الدعوة ، وشرحها فى كل مكان يجب أن تبلغه .. والجهاد بالمال يساعد على أن تعيش شعوب الإسلام حياة رخية بما ييسره من إقامة العمران ، الذى تصلح له معايش الناس .

يقول تعالى فى سورة الانفال : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض) .

وتكرر هذا المعنى فى سورة التوبة ثلاث مرات ، تقديم الجهاد بالمــال على الجهاد بالنفس .

وفى سورة الحجرات يقول تعالى : (إنما المؤمنون ، الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم) .

ألا ترى معنا أن حكمة النص على الجهاد بالمال فى القرآن ، هو أن المال عندما

يقدمه صاحبه ، فقد خرج من ذمته نهائيا . أما المحارب فان عنده أكثر من فرصة للنجاة بحياته ، والفوز بمجد الدنيا والآخرة .

ومن حقنا أن نسمى الجهاد فى سبيل الله ؛ أى من أجل نشر دعـــوته ، أنه الإسلام فى حالة الحركة .. فلا يكفى أن يكون الانسان عابدا ، قانتا ، مصليا ، مؤديا ما عليه من فرائض ، وإنما زكاة الدم ، مع زكاة المال، تطلب للدفاع عن الوطن فى حالة الخطر ، ومن ضحى بحياته فى هذا السبيل كتبت له الشهادة ، وقبل فى ملكوت الله مع الفائزين

يقول تعالى فى سورة النساء : (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء،والصالحين) فأنت ترى هذا الفريق من المجاهدين المضحين قدموا على الصالحين ، وجعلوا بعد الأنبياء والصديقين .

وما أكثر ما حدثنا التاريخ عن أبطال الحروب الإسلامية ، وهم يندفعون فى القتال فى استبسال عظيم، يطمعون فى أن يرزقوا مركز الشهداء، فالحياة الأخرى أبقى عندهم ، والحياة الدنيا ليست إلا طريق عبور .

***

وإذا كانت عصور الحروب الدينية قد انتهت، وتبدلت معالم الوجود، فما زال طريق الجهاد الايجابى مفتوحا ، لكى نظفر عن طريق (الكلمة) بشعوب أخرى ، لم تبلغها دعوة الاسلام بعد ، أو بلغتها على غير حقيقتها .

إن كثيرين من أبناء أوروبا وأمريكا ، ما تزال عالقة بأذهانهم أكاذيب القرون الماضية ، من عهد المحاربين الصليبيين إلى اليوم ، ومن الجهاد أن نستعين بوسائل العصر لعرض صفحة الاسلام المشرقة الوضاءة كما هى. ولا يحجب هذه الحقيقة ، عن أعين المنصفين ، ما نراه من تخلف بعض الدول الاسلامية ، أو عدم أخذها بطريق التقدم السليم الذى حض عليه القرآن الكريم . . فإن هـذا التخلف عارض ، ولعله من بقايا معارك الشعوب الاسلامية ضد الاستعمار ، ولكن ما من مسلم الآن ، إلا يحس ؛ بأن عليه واجبا قبل نفسه ، وقبل قومه ، وقبل الانسانية جمعاء .. وهو أن ينشر كلمة الله ، ويقول للنـــاس حسنا ، حتى

يستمعوا له .. وإن أصغى القوم فهذه نعمة . وإن أصغى بعضهم وأصم البعض أذنيه فقد كسبنا فريقا ، وإن رفض من وجهت لهم دعوتك ما تقول ، فما عليك إلا البلاغ .

إننا على ثقة من أن الانسانية تحتاج اليوم، كما احتاجت فى حياة رسول الله وأصحابه ، إلى من يبصرها بدعوة الإسلام ، القائمة على السلام الإيجابى ، والمحبة البناءة ، والإخاء ، والفضائل ، والتعاون الكريم بين انداد كرماء ..

إن مخاطر الحروب الذرية الماحقة، تطل بوجهها المخيف على البشرية كلها، ولو أننا كافحنا لانشاء حزام سلام حقيقى، مستند الى مبادىء سماوية متأصلة فى النفوس فقد يكون هذا حزام النجاة ..

وإنا لنعجب أعظم العجب ، لهؤلاء الذين يحالفون اعداء الأمس ، أعداء اليوم ، أعداء الغد ، الذين احتلوا بلادنا ، وامتصوا ثرواتنا — وما زالوا — وكرهوا وجودنا كله .. كيف يجوز فى شريعة العقل ، أن نقبل من هؤلاء عدلا ولا إنصافا ، إلا أن تكون هى العدالة والانصاف بين الحصان والانسان ، فمهما بذلت الوعود ، فلن تكون هناك نتيجة غير أن يركب أحدهما صاحبه ..!!

الاسلام فى حالة الحركة ، يجب أن يبحث عن قوته فى مبادئه ، وبين قومه ، ومن الذين قبلوا دعوته .

***

وفى حسابنا ، أن أول وسائل الاتصال بين شعوب الاسلام ، هو أن يتعلموا جميعا اللغة العربية . وقد وجهنا فى كتابنا الأول من هذه السلسلة نداء إلى الراشدين من أمة محمد عليه السلام ، كى يبذلوا عنايتهم فى هذا المجال ، وقلنا إن فى الوسع ، بأيسر نفقة ، وأيسر مجهود ، أن يكون القرآن الكريم ، هو نفسه معلم لغته ، أى معلم اللغة العربية ..

ونحمد الله، أننا منذ أذعنا هذا النداء ، وجدنا فى أوساط كثيرة تلبية وإهتماما

إن أعظم جهاد فى سبيل الله الآن ، هو أن يعرف بعضنا بعضا ، معشر

المسلمين ، وأن تتخاطب بلسان مشترك ، لايلغي اللغات المحلية والقومية ، ولكن يكون وسيلة للوصول إلى الثقافة الاسلامية من مظانها الأولى ، وهي الكتاب المنزل ، وكتب الحديث ، وما تلاها من كتب نافعة لديننا ودنيانا حتى الآن ، وما أكثرها ..

ان الترجمة إلى لغات المسلمين غير العربية لاتؤدي عملها . فاننا نريد التقاء فكريا مباشرا بين المسلم والمسلم من الفلبين ، واندونوسيا ، في المحيط الهادي ، حتى شاطئ المحيط الاطلنطي ...

ان وسائل الاعلام الحديثة ، من طباعة ، ورسوم ، واذاعة منطوقة ومرئية ، وسينما ، وخطب ومحاضرات . . كل هذه يجب أن توضع في خدمة نشر الدعوة الاسلامية ، بعد أن وضعت كل هذه الوسائل الآن ، في خدمة اديان أخرى ، وفي خدمة دعوات إلحادية في بعض الأحيان

ولقد حارب الاستعمار في افريقية وآسيا اعتناق الأفراد للاسلام ، حربا عنيفة لا هوادة فيها . ولكن الدعاة التطوعيين ، الذين ندبوا أنفسهم للدعوة الاسلاميه يريدون مرضاة الله وحده ، وفقوا في كسب ملايين من هذه الشعوب . وان كان ينقصها جميعا من يزيدها بيانا بأصول الدين ، ويعلمها اللغة العربية من مصاحفها .

وإذا صلحت نوايا هؤلاء الدعاة لمهمتهم الجليلة في القرنين الماضيين ، فانها الآن تبدو أكثر صعوبة ، لأن الاستعمار يحارب معركته الأخيرة . وهذه المذبحة الدامية في نيجيريا لبعض عظماء المسلمين الافريقيين — وعلى رأسهم المجاهد الصادق أحمدو بللو ، — تدل على طبيعة الموقف ، بعد أن وصلت لنا تفاصيل ما كانوا يقومون به من جهود دائبة لهداية مئات الألوف من المسلمين الافريقيين إلى الاسلام .

إن مجال العمل الجاد ، أمام ذوي الغيرة والحمية على دينهم ، موجود ومفتوح . وفي هذا المجال فليتنافس المتنافسون .

* * *

وإذا كان مجالنا العام لنشر الدعوة الاسلامية هو صميم الجهاد ولب معركته في وقتنا الحالي، فثمت مجالات أخرى للجهاد لا تقل أهمية ...

ان الصانع الذي يتقن عمله في صدق وايمان لكي يعزز إنتاج امته، ويزيد طاقتها المادية، فهو مجاهد في سبيل الله

والتاجر، والزارع، والعامل في خدمة مرفق عام يمس الجماعة، والطبيب، والقاضي، والمحامي، والمهندس، والمدرس، والشرطي، ورجل الجيش والموظف وغيرهم من أفراد المجتمع. كل في مجاله، إذا هو راعى الله، ومصالح الناس فيما يعمل، فقد جاهد في نفسه طبيعة التواكل، والاثراء غير المشروع، والكسب الحرام.. فهؤلاء أيضا مجاهدون.

وكلمة الحق، إذا تمسكت بها واذعتها في شجاعة نفس، فانت أيضا مجاهد.

قال رسول الله: «الدين النصيحة». وسئل: لمن يارسول الله. فأجاب: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولائمة المسلمين، وعامتهم»

وقال عليه السلام: «افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»

وقال عليه السلام موجها الكلام لأولياء أمور الناس:

«اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً. فرفق بهم، فارفق به»

وقال: «ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة، والخلة، والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته، وحاجته، ومسكنته»

وقال: «ما من امتي احد ولى من أمر الناس شيئاً لم يحفظهم، بما يحفظ به نفسه، إلا لم يجد رائحة الجنة»

وهكذا، نجد الجهاد في سبيل الله. تتنوع صوره من عامل في أحقر حرفة، إلى حاكم مسؤول عن الناس، كل يراد منه العلم، والعمل وحسن المعاملة، والعدل والرحمة، والوسط، والجهاد في سبيل الله

والجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس الذى تحدث عنه رسول الله، عقب انصرافه من غزوة تبوك ، مطلوب ، ومثله كمثل الجهاد الأصغر ، بالمال والنفس لازمان فى إكمال واجبنا حيال الامانة التى تركها لنا رواد الدعوة الاسلامية فى كل مكان وجدوا فيه ، وفى كل زمان ناضلوا فيه

* * *

وبعد ...

فان جولة الفكر الحديث فى أعماق الدعوة الاسلاميه ، هى نفس جولة الفكر القديم والوسيط فى هذه الدعوة : بساطة ، وصراحة ، واستقامة، وعزة

ومن بين كنوز القرآن الكريم نختار آيتين نختم بهما هذه الدراسة ، وهما تعبران عن طاقة التقدم فى الانسان يؤدى ما يستطيعه ،وإرادة التغيير التى تساير الزمن

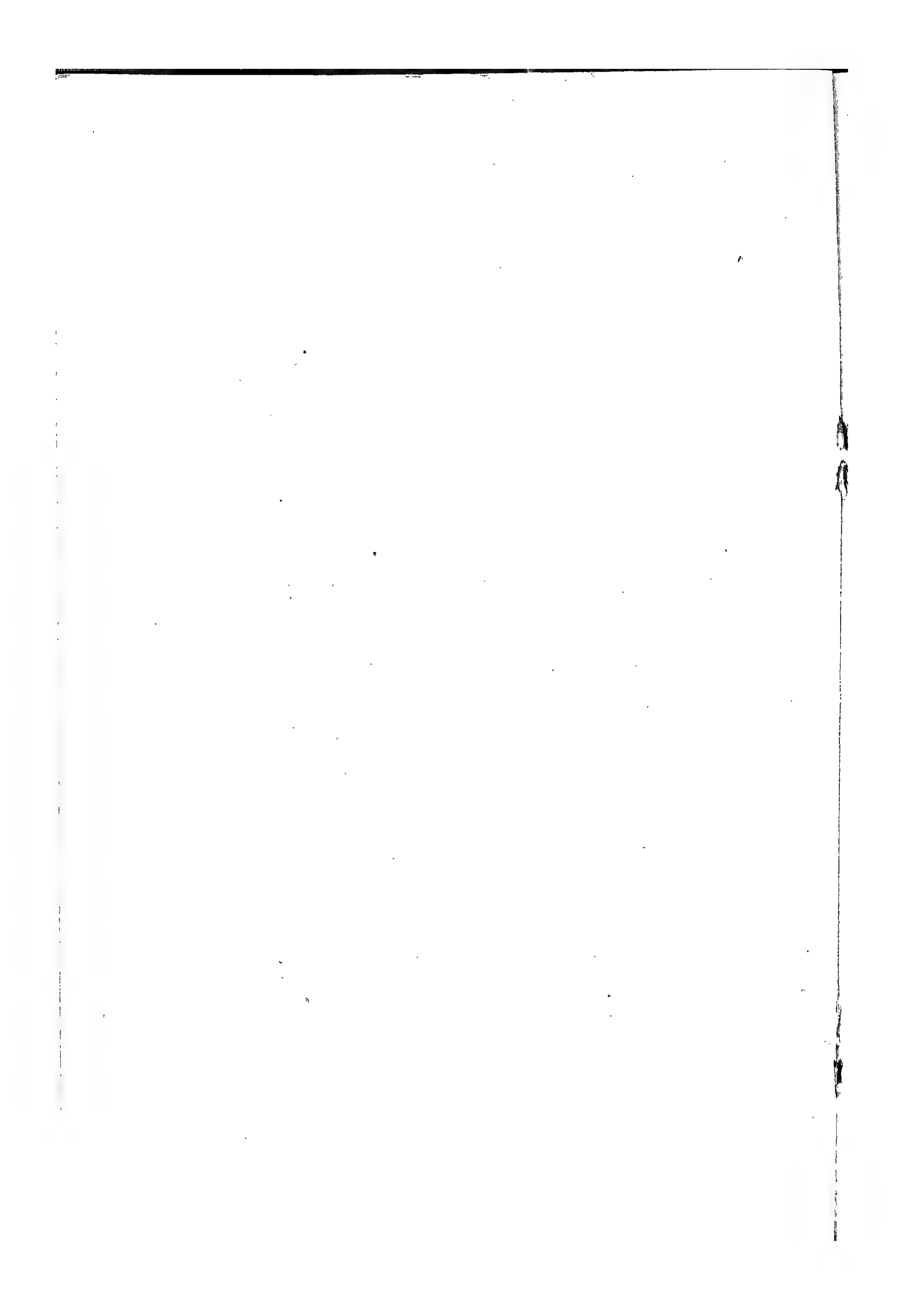
قال تعالى فى ختام سورة البقرة :

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا ، وارحمنا . أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين »

وقال أيضا فى سورة القصص :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين »

والحمد لله رب العالمين



فهرس

صفحة

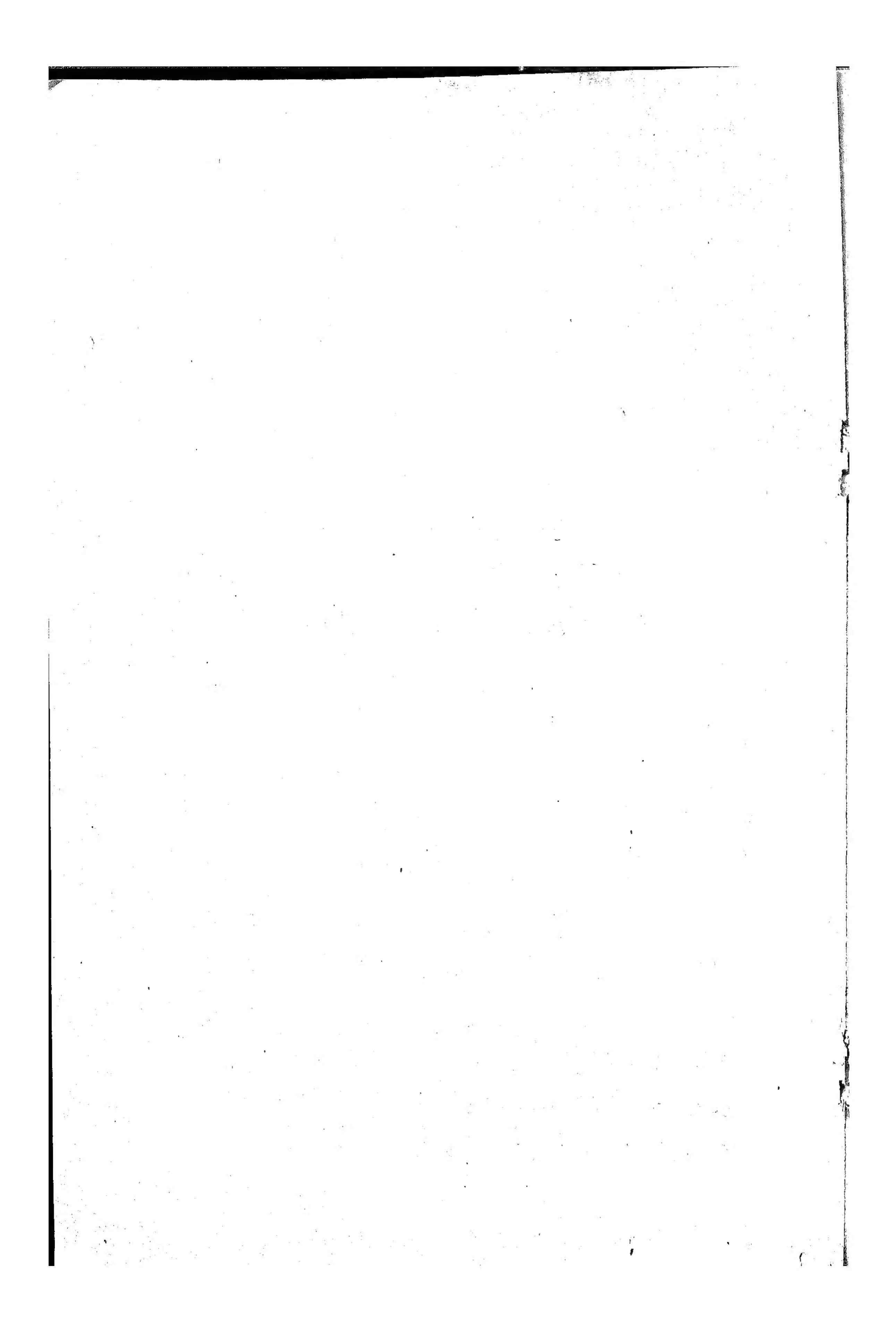
٣ ـ المقدمة

٤٥ ـ بنى الاسلام على خمس

	صفحة
١ ـ شهادة لا إله إلا الله	٤٨
٢ ـ واقام الصلاة	٦٦
٣ ـ وايتاء الزكاة	٨١
٤ ـ وصوم رمضان	٩٢
٥ ـ وحج البيت	١٠٠

١٢٩ ـ وخمس أخرى

١ ـ العلم	١٣٠
٢ ـ العمل وحسن المعاملة	١٥٥
٣ ـ العدل والرحمة	١٧٠
٤ ـ الوسط	١٨٠
٥ ـ الجهاد فى سبيل الله	١٩٠



سلسلة

تاريخ الاسلام

بقلم

محمد صبيح



المجموعة الأولى : الرسول والرسالة

١ — عن القرآن الكريم ـ بحث جديد . . . صدر
٢ — قواعد الاسلام خمس . . وخمس . . . صدر
٣ — محمد نبي الإسلام — جزء أول
٤ — محمد نبي الإسلام — جزء ثان

المجموعة الثانية : الراشدون

١ — أبو بكر الصديق
٢ — عمر بن الخطاب
٣ — على بن أبي طالب
٤ — عثمان بن عفان

المجموعة الثالثة : الأمويون (أربعة أجزاء)

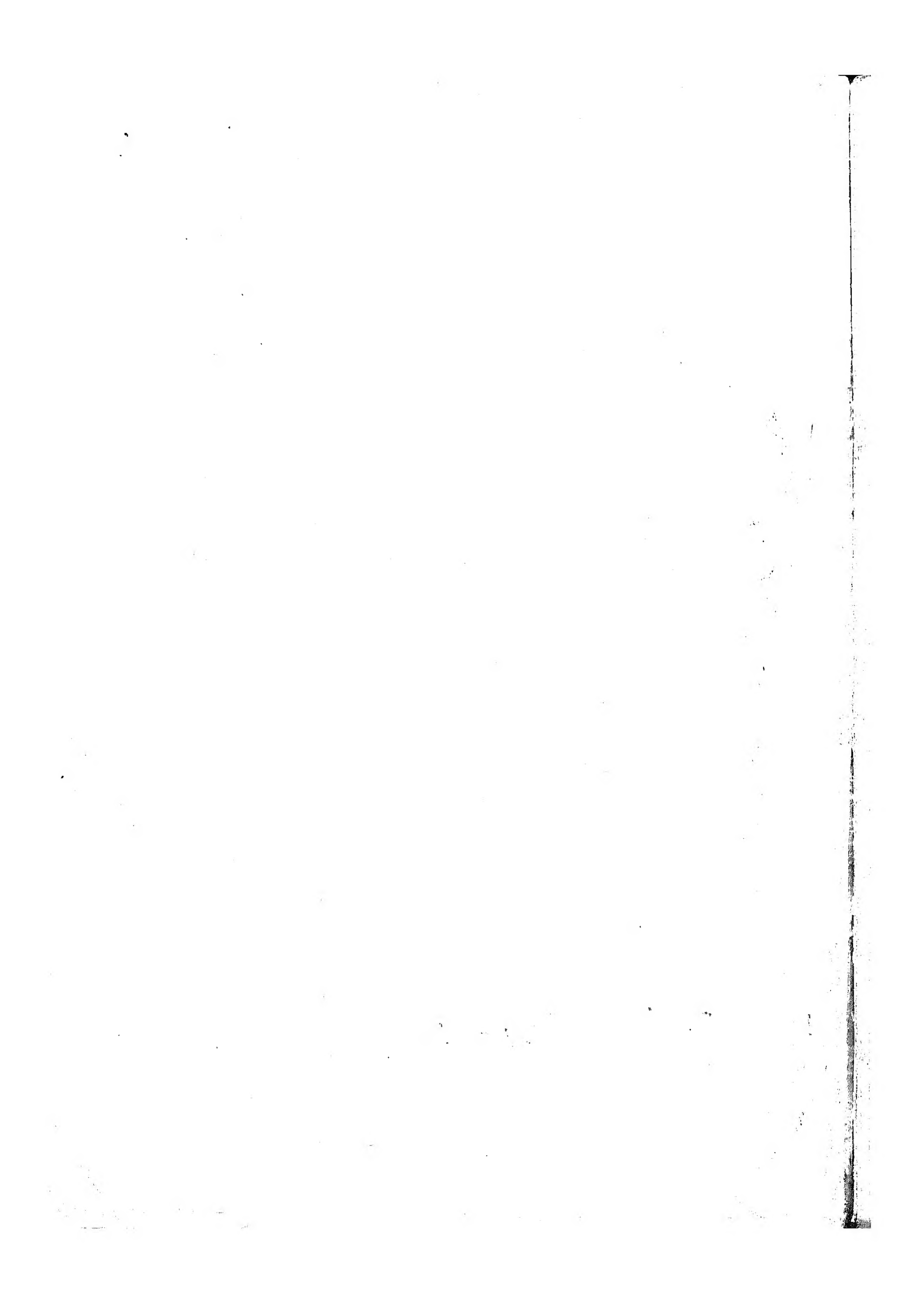
المجموعة الرابعة : العباسيون (أربعة أجزاء)

المجموعة الخامسة : العثمانيون (أربعة أجزاء)

الخــــاتمة : الدعوة الإسلامية بعد الخلافة

مجموعة هذه الدراسات فى ٢١ جزءاً — أكبر موسوعة إسلامية فى خمسة آلاف صفحة

أكتب (لدار الثقافة العامة) أحمد نور الدين: ٨ شارع البستان القاهرة ت ٧٠٢٧٧
أكتب للمؤلف : محمد صبيح : ٣٩ شارع الفلكى القاهرة ت ٢٤٥٩٩



الكتاب القادم

محمد نبي الإسلام

تصدر هذه الدراسة فى جزئين من سلسلة كتب الشهر . وتقدم للمرة الأولى تقييما اجتماعياً واقتصادياً وفكريا للبيئة الحجازية التى ظهرت فيها الدعوة الاسلامية مع خط سير الدعوة منذ ميلاد رسول الله عليه السلام حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى

